بعد الوليمة

يوكيو ميشيما

ترجمة ميسرة عفيفي

بعد الوليمة

تأليف
يوكيو ميشيما

ترجمة
ميسرة عفيفي

هنـــداوي

بعد الوليمة

يوكيو ميشيما

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٠ ٣١٧٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة اليابانية عام ١٩٦٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ ميسرة عفيفي.

المحتويات

١- ستسوغوان	٧
٢- نادي كاغِن	١٣
٣- رأي السيدة تاماكي	٢١
٤- صحبة فارغَيْن	٢٧
٥- تفسير كازو للحب	٣٥
٦- حتى موعد الرحيل	٤١
٧- طقس النار المقدَّس في قاعة الشهر الثاني	٤٧
٨- حفل الزواج	٥٧
٩- ما يقال عنه «الحياة الزوجية الجديدة»	٦٧
١٠- ضيوف مُهمُّون	٧٥
١١- «الحياة الجديدة» الحقيقية	٨٥
١٢- صدام	١٠٣
١٣- عقبة في طريق الحب	١١١
١٤- الانتخابات أخيرًا	١١٧
١٥- يوم الوعد	١٣٥
١٦- أوركيد/برتقال/غرفة النوم	١٤٥
١٧- مقبرة غيوم الغروب	١٥٥
١٨- بعد الوليمة	١٦٩
١٩- قبل الوليمة	١٨٥

الفصل الأول

ستسوغوان

أَفلَت مطعم ستسوغوان من أية أضرار ناتجة عن الحرب؛ لأنه لحُسن الحظ يقع على تلة عالية في منطقة كوايشيكاوا كثيفة التعرُّجات بطوكيو. فلم تُصَب بأذى الحديقة الشهيرة التي على نسق مدرسة كوبوريئنشو ذات السمعة العريقة التي تصل مساحتها إلى عشرة آلاف متر مربع، ولا أيضًا بوابة تشوجاكو التي نُقِلَت من أحد معابد كيوتو الشهيرة، ولا المدخل وحجرة الضيوف اللتان نُقِلَتا كما هما من معبد بوذي قديم في مدينة نارا، ولا القاعة الكبرى التي أُنشِئت فيما بعد.

في خضمِّ الجلبة التي حدثت بسبب ضريبة الأملاك بعد الحرب، انتقل مبنى ستسوغوان من يد مالكه الأصلي فنان صناعة الشاي ورجل الأعمال الشهير، إلى يد مالكةٍ جميلةٍ وذات نشاط وحيوية، فتحوَّل على الفور إلى مطعم ذي شهرة عريضة.

تلك المالكة اسمها كازو فوكوزاوا. كانت كازو ذات براءة ريفية مع مظهر رائع الجمال، وكانت تفيض قوةً وحماسًا على الدوام. يخجل الشخص الذي يَتحرَّك قلبه بهمَّة وحماس من تعقيدات نفسه، عندما يرى كازو، وعلى الأرجح يَتشجَّع الشخص الذي ارتخت قواه المعنوية عندما يرى كازو، أو على العكس يحس بشعور الانسحاق التام. تستطيع تلك المرأة التي جمعت في جسد واحد من خلال نعمة سماوية ما، الجسارة الرجولِيَّة مع الحماس النسائي الأعمى؛ الذهاب إلى أبعد مدًى أكثر من أي رجل.

كانت صفات كازو الشخصية مَرِحة بشوشة في كل سكناتها وحركاتها، وكانت ذاتها لا تعرف الخُنوع أو الاستسلام، فأعطى لها ذلك مَظهرًا جميلًا بسيطًا. وكانت كازو منذ شبابها تُفضِّل أن تُحِب على أن تُحَب. تُخفي براءتها الريفية كَمِّيَّة فرْض نفسها على غيرها القليلة، وربَّت النوايا الشريرةُ المتنوِّعة للمحيطِين بها من التافهِين، لديها قلبًا أكثر تلقائية وليس به أي جموح.

تملك كازو منذ زمنٍ بعيد عددًا من الأصدقاء الرجال بدون تعقيدات غرامية. وعلى العكس كان السياسي غينكي ناغاياما المحرِّك الخفيِّ لحزب المحافظِين صديقًا جديدًا نسبيًّا بالنسبة لها، وكان يكنُّ لكازو التي تصغُره بعشرين عامًا حبًّا كأختٍ صغرى له.

وكان يقول دائمًا:

«إنها امرأة رائعة نادرة المثال. من المؤَكَّد أنها ستفعل الأعاجيب قريبًا. بل وإن قيل لها أن تفعل ما تَقْلِب به اليابان رأسًا على عَقِب، على الأرجح ستفعل. إذا وُصِف الرجل بأنه بطل مِغوار، فالمرأة تُوصَف بالفاعلة. إذا وُجد رجلٌ يستطيع أن يستخرج من تلك المرأة مشاعر الحب، من المؤكد أن تلك المرأة في ذلك الوقت بالذات ستنفجر.»

عندما سمعَت كلمات غينكي تلك من شخص آخر لم تشعر بالاستياء مطلقًا، ولكنها قالت له في وجهه ما يلي:

«إنك يا سيد غينكي لست الشخص الذي يستطيع استخراج عاطفة الحب من قلبي. فلن يفيد معي أن تأتي إليَّ وأنت ممتلِئ بثقة شديدة في النفس. أنت لديك حُسْن نظر بالناس، ولكنه لا ينفع كوسيلة لاستمالة النساء.»

قال السياسي العجوز بنبرة حديث مُنفِّرة:

«لا نية لديَّ مُطلقًا في استمالتك. إن وصل الأمر إلى محاولة استمالتكِ فتلك نهايتي.»

ومع زيادة شعبية مطعم ستسوغوان، أنفقت كازو مبالغ كبيرة في الاعتناء بالحديقة. وثمة بِرْكة جنوبية شرقية تقع على الواجهة الجنوبية تمامًا لغرفة الضيوف المسمَّاة غرفة المكتبة الصغرى، وتصبح تلك البِركة أهم منظر في الحديقة أثناء حفلات مشاهدة القمر. تحيط الحديقة أشجار عملاقة عتيقة من النادر رؤية أشجار شبيهة لها في أنحاء طوكيو. تقف أشجار الصنوبر والكستناء والدردار والقسطل شامخة، وتختفي وجوه المباني المدنية الحديثة فلا تُشوِّه مَنظر السماء الزرقاء التي يمكن التَّلصُّص إليها من بين تلك الأشجار. يسكن زوج من الحدأة منذ زمن طويل على أغصان الصنوبر العالية. ويزور الحديقة جميع أنواع الطيور من وقت لآخر. ولكن بصفة خاصة في مواسم هجرة الطيور، لا تُقارن كثرة وضوضاء الطيور التي تنزل لتقف على الأرض تلتقط الحشرات من فوق حشائش النجيل الرحبة، وحبات ثمار النادين بأي شيء آخر.

تخرج كازو كل صباح للنزهة في الحديقة، وفي كل مرة تعطي للجنائني تنبيهات ما. تكون تنبيهاتها أحيانًا صائبة، وأحيانًا لا تكون. فقط مجرد أنها تعطيه تنبيهات أصبح أحد مهماتها اليومية، وجزءًا لا يَتجزَّأ من حالتها المعنوية المرتفِعة؛ ولذلك كان الجنائني العجوز الخبير على العكس لا يعارضها.

تمشي كازو في الحديقة، وكانت تلك فرصتها في التفكير بصمت وفي متعة كاملة بأنها عزباء وبمفردها. فهي تقضي أغلب اليوم إما تتحدث أو تُغنِّي، ولا تسمح لها ظروف العمل أن تكون بمفردها، ومهما كانت معتادة على التعامل مع الزبائن إلا أن ذلك يُجهدها. كانت نزهة الصباح هي الدليل على سكينة القلب الذي لا تقوم فيه الرغبة في الوقوع في الغرام.

لن يُعكِّر الحب صَفْو حياتي بعد الآن ... كان هذا هو اليقين الذي شعرت به بنشوة وهي تنظر إلى أشعة الشمس المهيبة المتسلِّلة من بين الأشجار التي علق بها الضباب، والتي تجعل الطحالب الخضراء في الطريق أمامها، تلمع في روعة. لقد مر وقت طويل منذ ابتعدت كازو عن الحب. ولقد أصبح آخر حب لها في ذاكرة بعيدة. وأصبح لا يمكن زعزعة شعور الأمان التي تحس به تجاه خطر المشاعر المتنوعة.

كانت نزهة الصباح تلك، قصيدة شعر آمنة لكازو. وبالرغم من تخطيها الخمسين من العمر إلا أن جمال جسدها المحتفظ ببشرة خلابة وعيون متألِّقة، يخلب بلا شك قلب كل من يراها تتنزه هكذا كل صباح في الحديقة الرحبة، ويجعله يُمَنِّي نفسه بقصة حب. ولكن كانت كازو نفسها تعلم أكثر من أي شخص آخر بانتهاء القصة وموت الشِّعر. بالطبع كازو نفسها تشعر داخلها بقوة جامحة لا تُقاوَم، وفي نفس الوقت تعرف جيدًا أن تلك القوة انثَنَت بالفعل وسُيْطِر عليها ولن تستطيع التخلص تمامًا من القيود.

هذه الحديقة الرحبة الغنَّاء، وتلك المباني المحيطة، وحساب البنك، والسَّنَدات المالية، والأسهُم، وزبائنها من كبار رجال عالم المال والاقتصاد ذوي السُّلْطَة والقوة، كان كل ذلك كافيًا ليعطي كازو حياة آمِنة في شيخوختها. إذا وصلت لتلك الحالة فما من قلق لديها أو خوف من أن يكرهها الناس أو يُطلِقوا حولها الشائعات من خَلْف ظهرها. إن جذورها ضاربة بعمق في هذا المجتمَع، وتحظى باحترام الجميع، وتنغمس في الهوايات الراقية تمامًا، وتستطيع في نهاية الأمر إيجاد الشخص المناسب لِيخلُفها في إدارة المطعم ثم تقضي عُمرها المتبقِّي بدون أية نواقص وهي تذهب في رحلات ترفيهية وتُوزِّع هدايا التهنئة في المناسَبات الاجتماعية.

تَسبَّب امتداد تلك الأفكار داخل قلب كازو، في تباطؤها عن الحركة، فجلست فوق الأريكة التي بجوار بوابة الحديقة، وتأمَّلَت بعمق الأرض المكشوفة المليئة بالفطريات الخضراء، وتأمَّلَت كذلك أشعة شمس الصباح المتساقِطة هناك، وحركات الطيور الدقيقة.

عندما تكون كازو في الحديقة فهي لا تسمع مُطلَقًا تردُّد صدى القطارات ولا أبواق السيارات. يصبح العالم لوحة صامتة. لا تَعرف كازو سَبب اختفاء عاطفة حُب وصَلَت

مَرَّة لأوج اشتعالها دون أن تترك أي أثر. لا تعرف إلى أين يذهب حب اخترق قلبها لِمَرَّة بشكل مؤكَّد، ثم تَركَها ورحل. بعد تراكُم خبرات متنوعة يكبر الإنسان حتى لدرجة أن يعتقد أن نموه ذلك نوع من الكذب. إن الإنسان عبارة عن مجرى ماء مُغطًّى تمر به أشياء عديدة، بل يُعتقد أنها مجرد طريق مرصوفة بالأحجار في تقاطع تَمرُّ عليه أنواع متعدِّدة من السيارات التي تترك كل منها آثار عَجلاتها على الطريق. يَبْلى مجرى الماء المغلق وتتآكل الطريق المُعبَّدة. ولكن كان ذلك التقاطع لمرةٍ هو تَقاطُع في يوم المهرجان.

لم تخُض كازو تجربة الحب الأعمى منذ وقت طويل. يبدو كل شيء مثل هذه الحديقة في أشعة شمس الصباح، واضحًا جليًّا بلا أي غموض، كل شيء يُرى جيدًا مع حواف لا تحتمل اللبس، فما من شيء واحد في هذا الكون مبهمًا. بل وتعتقد أنها يمكنها النظر بوضوح إلى كل ما داخل البشر. فما من أشياء كثيرة تثير لديها الدهشة. إن قيل إن الإنسان يخون أصدقاءه من أَجْل مصلحته الشخصية فهذا أمر يحدث كثيرًا، ولو سمعت أن فلانًا فَشِل في تجارته بسبب امرأة، فهذا أمر كثير الحدوث. ولكن الأمر المؤكَّد أنها هي فقط لا يمكن أن يحدث لها ذلك.

عندما يأتي أحد لاستشارة كازو في مسألة عاطفية، تعطيه بلباقة إرشادات جيدة وصائبة. إن علم النفس الإنساني مُقسَّم بشكل مُنتظِم إلى عشرات الأدراج، ومَهْمَا كانت الأسئلة صعبة وعويصة كانت الإجابات تخرج بمجرَّد تجميع خلطة من عدة عواطف. وما من شيء في حياة الإنسان أعقد من ذلك؛ فهي تتكون من عدد محدَّد من التكتيكات، وهي تُمثِّل لاعبًا مخضرَمًا محترِفًا اعتزل اللعب وهو في موقف أنه يستطيع إعطاء أي شخص نصائح مثالية مُؤكَّدة. ولذلك كانت بالطبع تحتقر «الزمن». هل يمكن للإنسان مَهْمَا رغب في التجديد، أن يكون استثناءً لقواعد الشَّغَف الموجودة منذ قديم الأزل؟

كثيرًا ما تقول كازو: «إن شباب هذه الأيام تختلف ملابسه فقط ولكن لا يختلف جوهره عن الماضي. يظن الشباب خطأً أن تجربته الأولى هي كذلك تجربة المجتمع الأولى. إن أي انحراف هو نفسه كما كان في الماضي، ولكن لم تَعُد عين المجتمع تثير ضجة مثل الماضي؛ ولذا يتجه الانحراف إلى أن يكون أكبر وأكثر جذبًا لعيون الناس.»

كان ذلك رأيًا بسيطًا وعاديًّا، ولكن عندما يخرج من فم كازو يكتسب قوة وإقناعًا.

أخرجت كازو وهي جالسة سجائر من جيبها ثم دخَّنَتها بتلذذ. ارتفع ذلك الدخان مع أشعة الصباح، ثقيلًا لامعًا مثل حرير مزدوج لعدم وجود رياح. كانت متعة ذلك الطَّعم بها اعتداد بالنفس لمعيشة مريحة لا تعرفها المرأة المتزوجة بالتأكيد. كانت صحة كازو

الجسدية جيدة لدرجة أنها لا تتذكر قط أنها شعرت برداءة طعم السجائر التي تُدخِّنها في الصباح مَهما بالغت في الشراب في الليلة السابقة.

كانت مناظر الحديقة الكاملة محفورة في قلب كازو حتى لو لم تكن تراها من مكانها إلا أن ذاكرتها تحتفظ بكل ركن من أركانها كما لو كانت تحفظ راحة يدها. شجرة السنديان العملاقة ذات اللون الأخضر الداكن التي تَتمركَز في منتصف الحديقة، وتجمع أوراقها الصغيرة السميكة ذات البريق، العنب الجبلي المتدَلِّي حول أشجار الجبل الخلفي، ... ثم المناظر التي تُرى من قاعة المكتبة، قناديل مشاهدة الثلوج المَهيبة في المدخل الرئيس مع برج المراقبة ذي حشائش النجيل الرحبة، الخيزران الكثيف في الجزيرة الوسطى التي وُضع بها برج الباغودا الخماسي القديم. وأية زرعة نباتات مهما صغرت في الحديقة، حتى أصغر زهرة، لم تَتفتَّح أو تنبت عن طريق الصدفة.

أحست كازو أثناء تدخين السجائر، أن منظر تلك الحديقة المُفصَّل هذا، غَطَّى تمامًا على ذكريات عديدة ومتنوعة لديها. إن كازو تواجه الآن الناس والمجتمع مثلما تواجه هذه الحديقة الآن. ليس هذا فقط. بل إنها تمتلك كل ذلك.

الفصل الثاني

نادي كاغِن

أبلغ أحد الوزراء كازو أنه يريد إقامة اجتماع نادي كاغِن الدوري هذا العام في مطعم ستسوغوان. وهو نادٍ من نوادي الطبقة العليا يضم سفراء كانوا متزامِنِين في فترة العمل في الماضي، ويقيمون اجتماعهم مرة واحدة في السابع من نوفمبر من كل عام. ولكنهم حتى ذلك الوقت لم يُسعفهم حَظُّهم بمكان جيد لإقامة الاجتماع؛ لذا قام الوزير بالتوسط لديها من أجل ذلك.

قال الوزير لها: «إنهم جميعًا من الطبقة العليا المثقَّفة الذين تَقاعَدوا عن العمل.» ثم أضاف: «ثمة شخص واحد فقط لا يقدر على التقاعد بأي حال. أنتِ أيضًا تعرفينه بلا شك. العجوز نوغوتشي. ذلك الرجل الشهير الذي شغل منصبًا وزارِيًّا في الماضي عدة مرات. هذا الرجل لسببٍ ما أصبح في فترة نائبًا برلمانيًّا لحزب الإصلاح، ولكنه هذه المرة خسر في الانتخابات.»

كان هذا أثناء حفل في الحديقة تحت رعاية ذلك الوزير؛ ولذا لم تستطع كازو معرفة تفاصيل أكثر من ذلك. في ذلك اليوم كانت حديقة ستسوغوان ممتلئة بعدد كبير من الأجانب رجالًا ونساءً، بما يشبه أن تُغِير أسراب من الطيور العملاقة المزعجة المتنوعة الألوان على الحديقة بديلًا عن مجموعات العصافير الرقيقة التي تأتي في المعتاد.

ومع اقتراب يوم السابع من نوفمبر، كانت كازو قد نَوَت على نية ما في قَلْبها. إذا كان الزبائن من هذا النوع، يجب أولًا أن تبدي احترامًا عميقًا لهم. فمن هو ملء السمع والبصر في المجتمَع الآن معتاد على المزاح السمج ويمكن أن يَتقبَّله بصدر رحب، وعلى العكس يمكن أن يعتبره شائقًا، ولكن بالنسبة إلى مَن كان في دائرة الضوء ثم تَقاعَد واعتزل العمل العام، ربما يكون نفس المزاح سببًا لجرح كرامته. ومن الأفضل عند صحبة

هؤلاء العجائز الاقتصار على لعب دور المستمِع لهم، ثم مداهنتهم بحديث رقيق الحاشية يجعلهم يَظنُّون أن سُلطاتهم السابقة عادت لتتفتَّح زهورها من جديد في هذه الجلسة.

كانت قائمة طعام ستسوغوان في ذلك اليوم كما يلي:

الحساء:

رَوْب الصنوبر، طوفو فول الصويا بالسمسم، وحساء الميسو الأبيض.

الساشيمي:

شرائح السبيط الحي مع بقدونس صيني وخل الأترج.

الطبق الرئيس:

سالمون مع حساء القواقع الحمراء، وخل الأترج، والفلفل الأخضر الحلو.

المقبِّلات:

طائر سمان مشوي بالصوص، استاكوزا، محار، لفت مخلل مع جذور عرق السوس.

المسلوق:

بط بصوص النشا المحلَّى مع جذور البامبو.

السمك المطبوخ:

قطعتا شبوط ودنيس مشوي بالملح وخل الأترج.

الطبق الأخير:

كعكة بعجينة ذرة ونبات السرخس مع برقوق مخلل.

ارتدت كازو كيمونو من طراز إيدو بلون كُحْلِي ولفَّت حول خَصرها حزامًا عتيقًا مصنوعًا من قماش قرمزي بتصميم زهرة أقحوان ماسِيَّة الشكل وزَيَّنت ماسة سوداء كبيرة الحجم رباط الحزام القرمزي اللون. تجعل طريقة اختيار الكيمونو هكذا جسدها الوافر ممشوق القوام ويساعد في جَعْلِها تبدو نحيفة.

كان ذلك اليوم مُشْمسًا ودافئًا، وبعد غروب الشمس وقبل ظهور القمر في السماء أتى السيد يوكِن نوغوتشي وزير الخارجية الأسبق بمعية هيساتومو تاماكي سفير اليابان الأسبق في ألمانيا. مقارنة بتاماكي ذي الجسم الضخم المهيب، كان نوغوتشي نحيفًا وبَدا متواضع الهيئة نوعًا ما. لكن كانت عيناه تحت الشعر الفِضِّي حادَّتَين في صفاء، ووسط سُفراء اليابان السابقين في أوروبا الذين تَجمَّعوا زُرافات عَرفَت كازو سبب أنه الوحيد الذي لم يتقاعد من تألُّق عينيه تلك التي تبدو مثالية.

كان الحفل صاخبًا اجتماعيًّا، ولكن كانت الأحاديث التي تدور كلها تتعلق بالماضي. وكان تاماكي هو أكثرهم حديثًا.

أقيم الحفل في قاعة المكتبة المتوسِّطة بمبنى الضيافة، وكان تاماكي يجلس مستنِدًا على أحد الأعمدة على الحد الفاصل بين النافذة التي تُشبِه كأس الزهرة المصبوغة باللاكيه الأسود ولوحة الفاصل رائعة الجمال. كان القاطع به رسمة لزوجَي طاووس بألوان شديدة البَهْرَجة مع زهور الفاونيا البيضاء، ورُسم في الخلفية مياه جبلية على طراز لوحات جنوب الصين، في اندماج غريب مع طراز من عصر الإقطاعيين.

وكان تاماكي يرتدي ملابس مصنوعة في لندن، ويضع في جيب صدرية البذلة ساعة جيب بسلسلة ذهبية من النادر رؤيتها في الوقت الحاضر. فوالده الذي كان سفيرًا في ألمانيا كما المتوقَّع تَسلَّمها من إمبراطور ألمانيا القيصر فيلهام الثاني وكانت تلك الساعة كثيرًا ما تُسيِّر له الأمور الصعبة حتى في عصر ألمانيا الهتلرية.

كان تاماكي وسيمًا، بليغ اللغة فصيح اللسان، وكان دبلوماسيًّا من النبلاء يفخر بأنه على عِلم وافر بمعيشة وعواطف الطبقات الشعبية، ولكن اهتمامه الآن يَتخطَّى العصر الحاضر تمامًا. لم يمثل حفل استقبال يجتمع فيه خمسمائة أو ألف شخص، في ذهنه إلا بريقَ ثُريَّا في الماضي.

«آه كلما تذكرتُ الأمر أُصاب بالرعب. ولكنها في الواقع حكاية شائقة.» بهذا التقديم الخالي من المتعة قدَّم تاماكي لحكايته بطريقة الحاكم الإقطاعي. «لقد جذبني السيد ماتسوياما مستشار السفارة عنوة وجعلني أركب قطار الأنفاق معه؛ لأنني لم أركب قطارًا ولو مرة واحدة بعد أن أصبحت سفيرًا. كنا في العربة الثانية، لا بل كانت الثالثة من الخلف. وبعد أن رَكِبْنا، كان الازدحام قليلًا، وعندما نظرتُ أمامي، رأيتُ غورينغ.»

وعند هذا الحد نظر تاماكي لكي يرى ردَّ فعل المستمِعين، ولكنهم جميعًا وكأنهم سمعوا تلك الحكاية عشرات المرات، فلم يُبدِ أحد أي ردة فعل. ولكن كازو فقط قالت ما يلي موافِقة على كلامه:

«أليس ذلك رجلًا رفيع المنصب وقتها؟ لو قلنا اليابان فهو مثل كيوماسا كاتو. هل كان يركب قطار الأنفاق؟»

«بالطبع. إنه غورينغ الذي كان يسقط أي طائر في السماء. كان يركب قطار الأنفاق مُتنكِّرًا في ملابس العمال الواسعة، ويلف ذراعيه حول خصر فتاة صغيرة الحجم جميلة جمالًا يبهر الأنظار في السادسة أو السابعة عشرة من العمر. لقد اعتقدتُ أنني أخطأت

النظر فَدلكتُ عيني ولكنه كان غورينغ ذاته بلا جدال. فلقد كنتُ أراه كل يوم تقريبًا في الحفلات الرسمية. وعلى العكس أنا الذي تَوتَّرتُ وكان هو رابط الجأش. كانت المرأة على ما أعتقد بائعة هوى، ولكنني للأسف لستُ خبيرًا في هذا المجال.»

«لَكنَّك لا تبدو كما تقول.»

«في الواقع كانت فتاة حسنة الوجه، ولكن كانت مساحيق الوجه كثيفة وخاصة أحمر الشفاه، وكان العامِل غورينغ يعبث بشحمة أذنها ويُداعبها في ظهرها وكأن شيئًا لم يكن. وعندما نظرتُ بجانبي رأيتُ عيني ماتسوياما على وسعهما من الدهشة، ولكن بعد محطتين تقريبًا نزل غورينغ والفتاة ... حسنًا، لم يعد أمامنا نحن الذين بَقينا شيء. وبعد ذلك التصقَتْ برأسي صورة غورينغ في قطار الأنفاق ولم تبرح من ذهني. ولكن في الليلة التالية كان ثمة دعوة لحفل يقيمه غورينغ. اقتربتُ أنا وماتسوياما من بعضنا البعض وأخذْنَا نتأمَّل. كما هو متوقَّع إنه هو الرجل الذي رأيناه في اليوم السابق دون أي اختلاف.» وأخيرًا لم أعد أستطيع كبح جماح الفضول، ونسيتُ دون وعي مكانتي كسفير، فوجهت إليه السؤال التالي:

«لقد ركبنا أمس قطار الأنفاق من أجل التعرف على أحوال الشعب. وأعتقد أنها وسيلة ذات فائدة كبيرة، فهل تفعلون ذلك أحيانًا؟»

وعندها ابتسم غورينغ ابتسامة خفيفة وأجاب بردٍّ ذي معنًى عميق.

«نحن بالفعل مع الشعب دائمًا. نحن جزء من الشعب؛ ولذا ما من ضرورة لي لكي أركب قطار الأنفاق.»

قال السفير السابق تاماكي رد غورينغ ذلك بلغة ألمانية موجزة، ثم أتبعها على الفور بترجمتها باللغة اليابانية.

كان السفراء خلافًا لما يُشاع غير دبلوماسِيِّين بالمرة ولا يُنصِتون لأحاديث الآخرِين. ولقد انتظر السفير السابق لدى إسبانيا انتهاء حديث السفير تاماكي وكأنه لا يصبر على الانتظار، فبدأ يحكي عن حياته في عاصمة جمهورية الدومينيكان الجميلة سانت دومينغو عندما كان قُنصلًا فيها. طريق التنزُّه تحت غابات النخيل المحاذية لشاطئ البحر، منظر غروب البحر الكاريبي الذي يشبه الاحتراق، بشرة بنات الجزيرة الهجين السمراء التي تعكس شمس الغروب ... نسي العجوز نفسه وأخذ يصف تلك الأشياء بالتفاصيل، ولكن سَحب منه السفير تاماكي الثَّرثار البساط ووجَّه دَفَّة الحديث إلى لقائه مع ديترتش في شبابه. فبالنسبة إلى تاماكي ما من قيمة لبنت جميلة مجهولة، وأن ثمة ضرورة لأسماء العظماء والأسماء التي تَلْمَع مثل الذهب لكي تُجمِّل الحديث.

كانت كازو تَستَاء من تَطايُر الكلمات الأجنبية المتنوعة في حديث الضيوف وبصفة خاصة قولهم الجملة الأهم من حديثهم الفاحش بلغة أجنبية دائمًا، ولكنها مع ذلك تَولَّد عندها فضول تجاه بيئة الدبلوماسيِّين الذين لا يظهرون في مطعمها إلا نادرًا. فقد كان الجميع بالفعل «مُتقاعِدين من الطبقة العليا في المجتمع»، وحتى وإن كانوا فقراء اليوم إلا أنهم من العُصبة التي لمست بأصابعها المجد الحقيقي في الماضي ولو لمرة. والمحزِن أن تلك الذاكرة تستمر طوال العمر تصبغ أصابعهم بالتبر.

كان يوكِن نوغوتشي فقط هو الذي يلفت الأنظار من بينهم. كان في وجهه الرجولي براءة تلقائية لا تخبو دائمًا، وما مِن تفاخُر أو مَيل نحو الأناقة في مَظهره بخلاف الآخرِين. يَبرُز فوق عينيه الحادَّتَين الصافيتين حاجبان كأنهما بَقايا اندفاع ريشة رسام، تنبعج ملامح الوجه المهيبة تلك كل منها على حدة، واحدة بعد أخرى، مما يزيد من تنافُرِها مع جسده النحيف. وعلاوة على ذلك لم ينسَ نوغوتشي الابتسام، وعلامة على حماية نفسه دائمًا، لا يومئ موافقًا إلا في النادر. جَذَب ذلك التميُّز عَين كازو حتى وإن لم ترغب في ذلك، ولكن الذي لفت نظر كازو في أول لقاء لها به من النظرة الأولى هو اتساخ ضئيل جدًّا خلف ياقة قميصه الأبيض.

«يا للهول! هل يرتدي وزير سابق مثل هذا القميص؟ أما من أحد يعتني به؟»

أثار ذلك اهتمامها فأخذَتْ تنظر إلى ياقة قمصان باقي الضيوف من دون أن تثير الانتباه. كانت ياقات العجائز الأَنيقِين تتألق جميعها ناصعة البياض، وتقبض بصرامة على بشرتهم الذابلة.

كان نوغوتشي هو الوحيد الذي لم يتحدَّث عن الماضي. قبل أن يعود إلى وظيفته بوزارة الخارجية، تولَّى منصب سفير في دولة صغيرة، ولكن كانت تلك الحياة الباذخة بعيدة تمامًا عن اهتمامه. وربما كان عدم حديثه عن الماضي دليلًا على أنه الوحيد بينهم الذي لم يَمُت بعد.

بدأ السفير تاماكي الحديث مرة أخرى عن إحدى حفلات الماضي الليلية. كان حفلًا ليليًّا بالغ الفخامة أقامه القصر الملكي، تجمَّع تحت أضواء الثريا العظيمة، النبلاء من الأسر الملكية في أنحاء أوروبا. وكان ذلك الحفل يُعد معرضًا للأوسمة والنياشين والجواهر من جميع أنحاء أوروبا، وتحت انعكاسات المجوهرات الكثيفة العدد شحبت خدود النبيلات العجائز المليئة بالتجاعيد والبُقع مثل ورود بيضاء ذابلة.

ثم بعد ذلك تَطرَّق الحديث إلى الأوبرا في الماضي. فبدأ أحدهم يشرح بحماس روعة مشهد التمرد في أوبرا «لوسيا» لمغنية الأوبرا أمليتا غالي غورتشي. فأَصر شخص آخر على

أن أمليتا تَخطَّت ذروة عطائها؛ ولذلك فإن دور لوسيا الذي شاهده هو للمغنية توتي دال مونتي أفضل بكثير.

وأخيرًا تحدث نوغوتشي قليل الكلام.

«لنتوقف عن الحديث عن الماضي. إننا ما زلنا شبابًا.»

قال نوغوتشي ذلك بمرح ولكن كانت نَبْرَته بها اندفاع قوة جامحة فصَمَت الجمع تمامًا.

غزَت تلك الكلمة قلب كازو تمامًا. والأصل في مثل هذه الحالة أن تقول مالكة المطعم قولًا غبيًّا تنقذ به الموقف وتنهي الصمت، ولكن لشدة صواب كلمة نوغوتشي ولأنها تولَّت عنها قول ما كانت تحس به حقًّا، لدرجة نسيانها لموقفها وما يجب عليها فعله.

قالت كازو لنفسها: «إن هذا الرجل يستطيع قول ما يصعب قوله بطريقة رائعة».

وبكلمته تلك شحب بَهاء المكان، مثل مجمرة فحم رُشت بالماء، فلم ينبعث منها إلا الرماد الأسود الرطب. سعل عجوز من الحاضرين فمَرَّ صوت البلغم المؤلم الطويل الذي تَبِع السُّعَال بين صمت الجميع وهو يجر أذياله. ويُفهم من لون أعينهم جميعًا أنهم فَكَّروا للحظة في المستقبل، أي في الموت.

في تلك اللحظة انتشرت في الحديقة إضاءة القمر الباهرة. لفتت كازو انتباه الجميع إلى هذا الظهور المتأخر للقمر؛ ولأن خمر الساكي قد دار عليهم كثيرًا، فلم يُبدِ الرجال خوفًا من البرد وطلبوا أن يأخذوا جولة في الحديقة التي لم يتسنَّ لهم رؤيتها أثناء النهار. أصدرت كازو أوامرها إلى العاملات لِيُجهِّزن القناديل. وحتى العجوز الذي سعل وَضَع قناعًا أبيض كبيرًا على وجهه وخرج معهم خوفًا من أن يُترك وحيدًا.

كانت أعمدة قاعة المكتبة الوسطى دقيقة ورقيقة، وصُنعت حافة الدرابزين التي تصل إلى الحديقة صناعة رشيقة مع المعبد العتيق. حملت العاملات القناديل وأضَأْن المنطقة المحيطة بأقدام الضيوف حيث بحث كل منهم عن قبقاب الحديقة فوق عتبة المطعم الحجرية؛ لأن القمر الذي ظهر فوق الجزء الشرقي من السطح، جعل تلك المنطقة في ظلام حالك.

كان لا بأس من بقائهم فوق النجيلة الواسعة، ولكن عندما قال تاماكي لنذهب إلى الطريق التي خلف البركة، ندمت كازو على أنها لفتت انتباههم إلى قمر شهر نوفمبر. سقطت ظلال خمسة من الضيوف على النجيلة فبدت مضمحِلَّة جدًّا وكأن الهواجس تنتابها.

«إن هذا المكان خطر. انتبه إلى موضع قدمك.»

كلما حذَّرتْهم كازو بذلك القول، عانَد الضيوف الذين لا يعجبهم أن يُعامَلوا معاملة العجائز، وأرادوا الذهاب إلى طريق المنحَدَر باتجاه الغابة. هناك كانت ظلال القمر المتسرِّبة في منتهى الجمال، وأي شخص يخرج للتنزُّه ومُشاهدة القمر، ويأتي إلى البركة، يريد الذهاب إلى الطريق الخلفي للبركة وسط الأشجار.

اجتهدَت العاملات تحت إمرة كازو في إنارة ما يمكن أن يُسبِّب سهولة الانزلاق مثل الصخور الخطرة، وقِطَع الأشجار، والطحالب سهلة الانزلاق، وأخَبَرْن بها الضيوف بكل وُدٍّ ودماثة خُلق.

قالت كازو وهي تلف كُمَّي الكيمونو حول صدرها:

«إن الليل أصبح باردًا. مع أن اليوم كان دافئًا في النهار.»

كان نوغوتشي وقتها بجوارها، وبَدَا الزفير الذي يخرج من تحت شاربه أبيض تحت ضوء القمر. ولم يحاول أن يوافِقَها على كلامها بسهولة.

سارت كازو في المقدمة؛ لكي تَدلَّهُم على الطريق، وبدون وعي سبَقَتْهم أكثر من اللازم. تحرَّكت قناديل الناس خلْفَها بنشاط بالِغ تحت ظلال الغابة التي تحيط بالبركة، فانعكست أضواء تلك القناديل مع القمر على سطح البركة في منظر ممتع. وفي لمح البصر أصبحَتْ كازو نفسها مثل الأطفال أكثر استثارة من الرجال المتقاعِدين من الطبقة العليا. فصرخت بصوت عالٍ من الجهة المقابلة من البركة.

«إنه منظر جميل. انظروا إلى البِركة! انظروا إلى البركة!»

برزت ابتسامة على وجه نوغوتشي ثم قال لها:

«إنك تُصدِرين صوتًا بكل هذا العلو! وكأنك طفلة صغيرة.»

انتهت نزهة الحديقة بسلام، وبعد أن عاد الجميع إلى المكتبة الوسطى، حدثت الكارثة.

زادت كازو من قوة المدفأة التي تعمل بالغاز بسبب حِرصها الكبير، وتجمَّع حول النار العجائز الذين بردت أجسامهم من ليل الخارج، كلٌّ مسترخٍ بالشكل الذي يهواه. وجاءت الفاكهة، ومعها الحلوى والشاي؛ ولأن تاماكي أصبح قليل الكلام، قلَّت الحيوية والضوضاء إلى النصف تقريبًا، وعندما جاء الوقت لكي يستعد الجميع للرحيل، ذهب تاماكي إلى المرحاض. وعندما نهض الجميع للرحيل أخيرًا، انتبَهوا إلى أن تاماكي لم يَعُد من المرحاض بَعْد. وقرر الجميع الانتظار قليلًا حتى يعود. ولكن كان الصمت في المكان ثقيلًا ولا يُطاق، وأصبح الخمسة رجال وكأنهم لديهم موضوع لا يريدون الحديث عنه.

وأخيرًا وقَعَت الأحاديث على تحدُّث كل واحد منهم على حدة عن حالته الصحية، وبدأ كل منهم يشتكي من كثرة البلغم، أو مَرَض المِعدة أو الضغط المنخفِض. وظل نوغوتشي بوجه متجهِّم لا يريد الاشتراك في مثل هذا الحديث.

نهض نوغوتشي وقال بنبرة هادئة:

«سأذهب لأتفقَّد الوضع.»

وكأن كازو حصلت على تلك الكلمة شجاعة النهوض، سبَقَته لكي ترشده إلى المكان. هرعت كازو مسرعة في المَرِّ الذي صُقل ونُظِّف بعناية بالِغة. وعثَرَا على السفير تاماكي فاقدًا وعيه داخل المرحاض.

الفصل الثالث

رأي السيدة تاماكي

لم يسبق لكازو أن واجهَت مثل هذا الموقف بعد أن أصبحت مالكة مطعم ستسوغوان. استدعت الناس بصوتٍ عالٍ. وتجمَّع حولها العاملات. فأمرتهن بتجميع كل الرجال في المطعم على الفور. وفي ذلك الوقت تجمَّع أعضاء جماعة كاغِن في الممر مُقترِبين منها.

استمعت كازو بجانب أذنها نوغوتشي يتحدَّث بصوت رابط الجأش إلى أحد الأعضاء:

«لا بد وأنه نزيف في المخ. سيكون ذلك مزعجًا لهذا المطعم ولكن أعتقد أنه يجب عدم تحريكه، واستدعاء طبيب هنا ليراه. دعوا الأمر لي جميعكم لديكم أسر في انتظاركم؛ ولأنني الوحيد الذي ليس له عائلة وأستطيع الحركة بحرية.»

ومن العجيب أن كلمة نوغوتشي تلك هي التي ظلت باقية بوضوح في أذن كازو وسط تلك الحادثة الكبرى التي حدثت. من المؤكد أن نوغوتشي قال: «الوحيد الذي ليس له عائلة»، ومعنى تلك الجملة ظل يطلق شعاع ضوء داخل قلب كازو وكأنه بالضبط مثل سِلك فضي انقطع فظل يرتجف بلا نهاية.

بذلت كازو كل جهدها بإخلاص من أجل تاماكي الذي أصيب بالمرض فجأة، ولكن بين أوقات الانشغال تلك، كانت كلمة نوغوتشي فقط هي التي ظلت محفوظة في وعيها بألوان زاهية. أسرعت زوجة تاماكي بالحضور للمطعم فَبكَت كازو أمامها وهي تعتذِر لها لإحساسها العظيم بالمسئولية تجاه إهمالها. ومع أن مشاعرها لم يكن بها أي نوع من الكذب، إلا أن كلمة نوغوتشي كانت تحيا في عقلها الباطن بوضوح تام.

«إنك تُفرِطين في تحميل نفسك المسئولية. إن تاماكي يأتي لأول مرة، ولا تعرفين أنت أي شيء عن حالته الصحية، وتاماكي ذاته هو الذي اقترح التَّنزُّه في الحديقة الباردة.»

هكذا دافع نوغوتشي عن كازو وهو يقف بجوارها.

استمر تاماكي في إصدار شخير بصوت عالٍ.

كانت زوجة تاماكي سيدة متوسِّطة العمر ترتدي ملابس غربية جميلة أصغر من عمرها بكثير جدًّا. ولكنها كانت باردة المشاعر تجاه حالة زوجها. ثم عقدت حاجبيها بخفة تجاه صوت عزف الشاميسن المتألق الذي يأتي من وقت لآخر من القاعة الكبرى. ووصل قرار الزوجة إلى قمة الهدوء عندما رفضت بعناد رأي الطبيب بضرورة إبقائه بحالته تلك لمدة يوم كامل قائلة سببًا في منتهى الوجاهة للرفض.

«إن زوجي كان يُكرِّر دائمًا كلمة لا يجب إزعاج الآخرين. ولا أدري إلى أي مدى سيعنفني بعد شفائه إن أزعَجْنا ستسوغوان أكثر من ذلك. وعلاوة على ذلك فهذا مطعم يأتيه العديد من الزبائن. وإن كان لنا صداقة قوية منذ زمن طويل ربما يمكن تقبل ذلك، ولكنني لا أستطيع أن أجعل مالكة المكان تنزعج أكثر من ذلك. يجب نقله إلى المستشفى بأسرع وقت ممكن ...»

كرَّرَت الزوجة نفس القول بنبرة كلام راقية، وكررت شكرها أكثر من مرة لكازو التي تقف بجوارها. وعلى العكس من ذلك كرَّرَت كازو رأيها قائلة: «لا داعي للتحفُّظ أو الخجل، سأتولى رعاية المريض هنا حتى يسمح الطبيب له بالحركة.» وظل الاثنان يتبادلان تلك المجاملات الجميلة بجوار رأس المريض الذي يصدر شخيرًا عاليًا ولا يعرف متى ينتهي ذلك التنازل المتبادَل. ثم مهما مضى من وقت لا تفقد الزوجة هدوءها وسَكينتها، وكازو كذلك لا تفقد دماثتها التي تفرضها بنقاء، مما جعل الطبيب السمين يضجر.

كان المكان الذي حُمل إليه المريض غرفة متوسطة الحجم معزولة لا تستخدم في المعتاد. وبمجرَّد وجود المريض ونوغوتشي والسيدة تاماكي والطبيب والممرضة وكازو فقط أصبحَت تلك الغرفة تعاني بالفعل من الازدحام والفوضى. غمز نوغوتشي بعينه إلى كازو لتخرج من الغرفة. أطاعته كازو وخرجت إلى الممر. مشى نوغوتشي أكثر وأكثر في الممر.

وأثناء رؤيتها لمنظر ظهره هذا، ولأن طريقة مشيه كانت تمتلئ بثقة بالغة بالنفس؛ شعرت كازو على العكس أن هذا هو بيت نوغوتشي وأنها مجرد ضيفة جاءته صُدفة.

ظل نوغوتشي يمشي بعشوائية ودون تخطيط. ويَعْبُر الممر المنحني للخلف قليلًا والذي يتخذ شكل الجسر. ثم مشى أكثر في الممر وانعطف يسارًا. وخرج إلى الحديقة الخلفية التي تمتلئ بزهور الأقحوان البيضاء. وبينما الحديقة الأمامية لا يُزرع بها زهور، كانت الحديقة الخلفية لا تنقطع عنها الزهور في الفصول الأربعة.

كانت الغرفتان الصغيرتان المتتابعتان اللتان تطلان على تلك الحديقة هما غرفتي كازو. كانت الإضاءة مطفأة في الغرف. من أجل المعيشة الشخصية لها عندما تغادر

العمل، كانت كازو تحتاج إلى مثل تلك الحديقة الصغيرة التي يمكن أن نطلق عليها رَثَّة وغير مرتبة. وحتى الزهور والحشائش ليست مزروعة بطريقة نظامية في غاية الصرامة، ولم تضع بها أحجار الحدائق ولا حوض الماء للتطهُّر كما تقتضي الطريقة المثلى، بل بالضبط مثل مُنتَجع صيفي مُؤجَّر صغير، تريد حديقة مثل هذه مخطَّطة بأصداف القواقع حَوْل زهور رجلة الصنوبر؛ ولذلك فالأقحوان الأبيض لهذه الحديقة، غير متماثل، بعض الأقحوان طويل، وبعضه قصير وفقير. وتصبح هذه الحديقة في بداية الخريف عبارة عن حديقة زهور الكوزموس الفوضوي.

تعمدت كازو ألا تدعو نوغوتشي إلى غرفتها، ولم تظهر له أن تلك الغرفة هي محل إقامتها؛ لأنها كانت تَكْره أن تبدي له أُلفة بشكل ملحوظ. دَعَت نوغوتشي إلى الجلوس على المقاعد التي وُضعت بحيث تطل على منظر الحديقة بالكامل. وبعد أن جلس هناك تحدث نوغوتشي على الفور.

– «أنتِ عنيدة حقًّا! بهذا العناد لن يصبح الحنان الذي تُظهرينه حنانًا.»

– «أجل! حتى وإن كان زبونًا يأتي لأول مرة، لو فرضًا ظهر عليه مرض في مطعمي، يجب عليَّ أن أرعاه في مرضه.»

– «هذا ما تريدين أنتِ أن تنفذِّيه؟ إنك لستِ طفلة صغيرة، وتعرفين أن رفض زوجة تاماكي ليس مجرَّد الرفض المعتاد، ألا تفهمين ما تحاول قوله؟»

– «أفهم ذلك جيدًا.»

ابتسمت كازو وقد جمعت بعض التجاعيد الطفيفة حول حافة عينيها.

– «إذا كنتِ تفهمين فما تفعلينه يُسمى عنادًا.»

هذه المرة لم تضحك كازو.

«ألا ترين أن تلك الزوجة التي أُبلغت أن زوجها سقط مريضًا بشكل مفاجئ، لم تَظهَر إلا بعد أن أخذت وقتًا في التزين على أكمل وجه؟»

– «إذا كانت المرأة زوجة سفير، فهذا هو الأمر الطبيعي.»

– قال نوغوتشي: «لا يمكن القول إنه من الضروري فعل ذلك.»

وهذه المرة هو الذي صَمَت. استمتَعَت كازو بذلك الصمت متعة كبيرة.

يُسمع صوت أغاني الموسيقى الوترية في خفوت قادمًا من القاعة الكبرى. أحست كازو وقتها أنها أُنقذت من القلق والحيرة أخيرًا بعد تلك الحادثة. استند نوغوتشي بتُؤدة على مقعده وأخرج سجائره. فوقفت كازو وأشعلتها له.

فقال نوغوتشي لها بصوت حازم.

«شكرا لكِ.»

فهمت كازو جيدًا أن كلمة الشكر تلك كان لها صدى يَتردَّد من موقع يختلف عن علاقة مالكة مطعم بزبون.

«أحس بالاعتذار للسيد تاماكي ولكني الآن أشعر بحالة من البهجة. تُرى هل جاء أثر السُّكر من شرب الخمر بعد كل تلك المدة؟»

«حقًّا!» قال نوغوتشي ذلك بنبرة غير مَعْنية بالأمر ثم أضاف: «كنت أفكر الآن في حب المرأة للمظاهر الفارغة. سأدع نفسي أتكلم بصدق أمامك أنتِ بالذات، السيدة تاماكي ترى أنه إن حان أَجَل زوجها فهي تريد أن يموت على سرير المستشفى وليس في قاعة مطعم حتى إن أدى ذلك إلى التسريع بوفاته. إذا تحدثتُ عن مشاعري أنا، فأنا في أشد الحسرة على فقدان صديق قديم. وكانت مشاعري أنني أريد أن أطلب منكِ بقاءه هنا حتى تتحسن حالته ويمكننا نقله إلى المستشفى ... ولكن أمام حب الْمَظاهر الفارغة التي تتمتع به زوجة صديقي لن يمكن أن أفرض مشاعر الصداقة مهما كانت قوة تلك الصداقة.»

«ذلك يعني أنك لا تمتلك فعلًا محبة صادقة له.»

قالت كازو ذلك وهي تشعر أنها أصبحت تستطيع قول أي شيء لنوغوتشي. ثم أضافت:

«أنا أنفذ ما أشعر به مهما كان قول الآخرين. ولقد فعلت ذلك في حياتي حتى الآن. حقًّا، لقد نفذت رغبتي بتلك الطريقة.»

«والليلة أيضًا تصرين على تنفيذ تلك الطريقة، أليس كذلك؟»

قال نوغوتشي ذلك بنبرة حديث جادة جدًّا. وأصبحت كازو التي أحست أنه يغار منها بقمة الابتهاج. ولكن المرأة ذات الفطنة أسرعت بالتفسير الجيد.

«كلا. فأنا اندهشتُ جدًّا وأحسستُ أيضًا بالمسئولية. فلست أحمل أية مشاعر تجاه السيد تاماكي.»

«هل كان ذلك مجرد عناد فقط؟ إذن يجب أن ننقل المريض بأسرع وقت.»

كانت كلمات نوغوتشي تلك التي قالها وهو ينهض من مقعده، باردة برودًا قاطعًا وغير ودودة مطلقًا، فقضت تمامًا على أوهام كازو. وخرج منها رد تلقائي بدون أن تختلط به أية مشاعر، وكان ذلك يوضح ثقة كازو الشديدة بنفسها:

«حاضر. لنفعل ذلك. كما تريد السيدة تاماكي.»

عاد الاثنان خلال الممر دون أن يَنبِسا بكلمة. وأخيرًا في منتصف الطريق كان نوغوتشي هو الذي بدأ الحديث قائلًا:

«إن أدخلناه المستشفى الليلة، فسأعود للبيت. وأذهب في ظهيرة الغد لزيارته. فعلى كل حال أنا لا عمل لدي.»

انتهت الضجة التي كانت تأتي من القاعة الكبرى ولذا يبدو أن زبائنها قد رحلوا. وسيطر ليل هادئ يشبه سكون الكهوف المميز لمطعم ستسوغوان بعد الولائم. أرشدت كازو نوغوتشي واخترقت معه القاعة الكبرى؛ لأن ذلك سيكون طريقًا أقصر. انحنت العاملات اللائي يقمن بترتيب القاعة عند مرور الاثنين. ومر الاثنان من أمام القاطع الذهبي الكبير المكون من ستة تواءم والذي يصنع خلفية لخشبة مسرح الرقص. ترسب اللون الذهبي للقاطع بعد الوليمة، محتفظًا ببعض السخونة، لدرجة الشعور بظلام كئيب.

سألت كازو إحدى العاملات قائلة:

«هل قال أشار أحد الزبائن في نهاية الحفل إلى عدم وجودي هنا؟»

رفعت تلك العاملة الماهرة متوسِّطة العمر وجْهَها في رِيبة. فقد كانت عادة كازو ألا تلقي مثل هذا السؤال الوظيفي أمام أحد الزبائن مطلقًا، ولأن نوغوتشي كان زبونًا بما لا شك فيه.

أجابت العاملة:

«كلا. فَوَقْت نهاية الحفل كان الجميع في حالة مزاجية جيدة.»

فتح نوغوتشي وكازو باب الغرفة بهدوء. نظرت السيدة تاماكي نظرات حادة إليهما. كانت حواجبها الرفيعة مرسومة في غاية الدقة، وكان الدبوس الذي يُثبت القبعة السوداء على وشك الخلع، وكان ذلك الدبوس البلاتيني يستقبل إضاءة الممر ويجعلها تهتز.

الفصل الرابع

صحبة فارغَيْن

نُقل السفير تاماكي على الفور إلى مستشفى جامعي. في ظهيرة اليوم التالي عندما ذهبت كازو لزيارته، قيل لها إن حالة الغيبوبة مستمِرَّة. وأرسلَت كازو سلة الفاكهة فقط إلى غرفة المريض، وتراجعَتْ إلى مقعد بعيد جدًّا في المَمر تنتظر نوغوتشي؛ ولأنها مهما انتظرت لم يأتِ نوغوتشي، عرفت كازو أنها أحبَّت نوغوتشي مَعرِفة مُؤكَّدة.

ومع أن كازو ذات شخصية قوية، إلا أنها لم يسبق لها أن أحبت رجلًا أصغر منها سنًّا. إن الشباب يرزحون معنويًّا وبدنيًّا تحت أعباء كثيرة، وخاصة عندما يعشقون امرأة أكبر منهم سنًّا، يزداد غرورهم ولا يُعرف إلى أي مدى يصل. وغير ذلك السبب كانت كازو لا تحب الشباب جسديًّا. فمن وجهة نظر المرأة، فإنها تشعر شعورًا أكثر حدة من الرجل نفسه بعدم التوازن الْمُخجل بين روحه وجسده، ولذا لم تقابل كازو فتًى يحقق ذاته الشابة بمهارة. وكذلك كانت تشعر بالاستياء من لمعان بشرة الشباب النضرة.

كانت كازو تُفكِّر في هذا الأمر وهي تنتظر في ممر المستشفى الكئيب الْمُعتِم. يمكن معرفة مكان غرفة تاماكي في نهاية المر بوضوح من هذا المكان البعيد؛ لأن باقات الزهور التي أحضرها الزائرون فاضت إلى خارج الغرفة بالفعل. انتبهت كازو إلى عُلو نباح كلاب فجأة، فنظرَت من النافذة إلى الخارج.

كانت كلابًا ضالَّة حُبِسَت من أَجْل استخدامها في التجارب داخل قَفص معدني واسع تحت سماء غائمة باردة قليلًا. يَصطفُّ داخل ذلك القفص عدد مَهول من بيوت الكلاب وكانت أشكال تلك البيوت في الواقع غير مُنتظِمة. منها ما يُشبِه سلسلة من أقفاص الدجاج، وهناك الأكواخ التي تُستَخدم كبيوت كلاب الحراسة العادية. وبيوت الكلاب العادية تلك موزعة بعشوائية فمنها المائل ومنها الساقط على جانبه. لا ريب أن ذلك بسبب أن الكلاب التي رُبِطَت بالسلاسل تجذب الأقفاص وتَلفُّ بها. ثمة كلاب مكشوط

جلدها، وكلاب في نحافة شديدة جنبًا إلى جنب مع كلاب سمينة. وكلها تنبح في وقت واحد نباحًا حزينًا وكأنها تشتكي حالها.

ويبدو أنَّ عمال المستشفى قد تَعوَّدوا على تلك الحالة، فلا يَأْبَه أحد بالقفص الحديدي. وتَصطَفُّ على الجانب الآخر من القفص نوافذ صغيرة كئيبة لمبنى مركز أبحاث قديم مُكوَّن من ثلاثة طوابق. يبدو زجاج النوافذ الذي يعكس السماء الغائمة كأنه عيون مُتعكِّرة فَقدَت الفضول.

... أصبح قلب كازو أثناء سماعها ذلك النباح المتزامن من الكلاب؛ يمتلئ بمشاعر التعاطف الحارَّة معها. ولقد اندهشت كثيرًا من أن قَلْبَها أصبح بهذه الحالة من سهولة التأثر والتعاطف. ثم بكت متأثرة وهي تقول: يا لها من كلاب بائسة! يا لها من كلاب بائسة! وفلتت من معاناة الانتظار عندما بدأت تفكر بجدية هل من وسيلة لإنقاذ تلك الكلاب؟

وشاهد نوغوتشي الذي جاء وجه كازو الباكي؛ ولذا عندما رأى وجهها سألها على الفور:

«هل مات؟»

أسرعت كازو بالنفي، ولكن كان الوقت سيئًا فلم تَعثُر على فرصة ملائمة لشرح سبب دموعها.

فلقد سألها نوغوتشي بِتعجُّل سؤالًا طفوليًّا ضحلًا.

«هل تنتظرين أحدًا في هذا المكان؟»

أجابت كازو بوضوح:

«كلا.»

وعندها فاضت الابتسامة أخيرًا على خدودها الغنية.

فقال لها نوغوتشي:

«إن كان الأمر كذلك، فلقد جئتُ في الوقت المناسب. انتظريني هنا، سأنتهي سريعًا من زيارة المريض وأعود. فأنا رجل خالي العمل وأنت خالية في الظهر أليس كذلك؟ ولأننا هكذا لدينا وقت فراغ فلنذهب لتناول الغداء معًا في المدينة.»

عندما كان الاثنان يهبطان طريق المنحدَر المعبَّدة بالأحجار خلف المستشفى الجامعي، تَمزَّقت الغيوم، وسقطت منها أشعة شمس بجراءة وكأنها ماء سلسال فوق المشهد.

اقترح نوغوتشي عليها المشي، فأعادت كازو السيارة التي كانت تنتظر.

كانت نبرة نوغوتشي التي اقترحت المشي معًا بها قوة أخلاقية، لدرجة إرجاع السيارة خصوصًا من أجل ذلك. وأخذت كازو انطباعًا أنه ينتقد رفاهيتها بطريقة غير مباشرة. ولقد جاءت كازو بعد ذلك أكثر من فرصة لتصحيح ذلك الانطباع، ولكن لأن طريقة كلام نوغوتشي وسلوكه في الحياة اليومية كانت نبيلة وراقية بدرجة شديدة، حتى لدرجة أن أنانيته ونزوته الضئيلة تبدو وكأنها أخلاقية.

حاول الاثنان عبور الطريق للذهاب إلى حديقة إيكينوهاتا. كانت الطريق تعج بالسيارات ومع ذلك كانت كازو لديها ثقة في قدرتها على عبور الطريق إلا أن نوغوتشي كان حريصًا ولا يحاول العبور، وعندما تحاول كازو الإسراع بالعبور يقول لها: «ليس بعد. ليس بعد» ويوقفها. فتضيع فرصة من كازو هباء. كلما حانت فرصة وجود مسافة بين السيارات يُفترض أنها تستطيع العبور أثناءها، تذهب تلك الفرصة هباء في لمح البصر أمام عينها من خلال تَدفُّق السيارات المقترِبة التي تعكس شمس الشتاء على نوافذها الأمامية. وأخيرًا نَفد صبرها من الانتظار فأمسكت يد نوغوتشي بقوة وأسرعت بالعبور وهي تقول: «الآن. الآن.»

وبعد أن عبرا إلى الجهة الأخرى من الطريق، ظلت كازو تمسك يد نوغوتشي. كانت تلك اليد جافة جدًّا ورفيعة وكأنها تشبه عينة النباتات. ولكن باستمرار قَبْض كازو عليها، أفلت نوغوتشي يده من يدها أخيرًا خلسة وكأنه يسرقها. كانت كازو تستمر في مسك يده بدون وعي تمامًا، ولكن تجاه سحب نوغوتشي يده بتلك الطريقة المتخوِّفة جَعلَها تَنتبِه إلى طَيشها. كانت يده بالضبط مثل حالة طفل مُتعكِّر المزاج يَتلوَّى بجسده ويهرب من حماية الكبار له.

نظرت كازو دون وعي إلى وجه نوغوتشي. كانت العين التي تحت الحاجب المتجَهِّم صافية صفاء حادًّا وفي سلام تام وكأن شيئًا لم يَكن.

وصل الاثنان إلى حديقة إيكينوهاتا وسارَا يسارًا في الطريق المحاذي للبِركة. كانت نسائم الهواء التي تأتي عَبْر البركة باردة على الأغلب وتجعل سطح الماء مجعدًا مثل قماش الكريب. تمتزج ألوان سماء الشتاء الزرقاء والغيوم البيضاء، مع الماء المرتعش، ويصل لون السماء الأزرق من بين ثقوب الغيوم لِيتلألأ على حافَّة الضفة المقابِلَة للبِركة. وخرجت خمسة أو ستة مراكب للتنزُّه في البِركة.

غُطِّيت ضفة البركة بأوراق الصفصاف الرقيقة التي سقطت من أشجارها، وكانت ألوان تلك الأوراق الساقطة تتراوح بين لون أصفر تمامًا وبين لون أصفر غلب عليه اللون

الأخضر. وكانت ألوان الأوراق الساقطة أكثر بهرجة من الأشجار الواقفة المليئة بالأتربة والتي غُطيت بأوراق القمامة.

ظهر من الاتجاه المقابِل مجموعة من تلاميذ المدارس المتوسِّطة يُمارسون رياضة الجري. وكانوا يرتدون سراويل التدريب البيضاء القصيرة المَوَحَّدة، وبَدا أنهم أَنهَوا دورة أو دورتين حول البِركة، وحالتهم وهم يعقدون حواجبهم وتهتاج أنفاسهم بمعاناة كالتي تُميِّز الشباب الصغار، تجعل المرء يتذكَّر تمثال أشورا في معبد كوفوكوجي. غادروا مُسرعِين من جانب الاثنين دون إلقاء نظرة جانبية إليهما وتَبقَّى فقط صوت الحذاء الرياضي الذي يضرب الأرضية. ظهرت المنشفة الوردية التي يلفها أحدهم حول عنقه بوضوح تام تحت أشجار الطريق الذابلة حتى بعد ذهابه لمسافة بعيدة.

وبدا نوغوتشي لا يحتمل عدم التحدث عن المسافة العُمْرِية بينه وبين هؤلاء الأشبال التي تكاد أن تصل إلى نصف قرن من الزمان وإبلاغ كازو بها فقال:

«إنهم رائعون. إن الصغار رائعون حقًّا. إن صديقًا لي يَتولَّى منصب رئيس اتحاد الكشافة، أنا أعتقد أنه عمل غبي، ولكنني أَتفهَّم شعور مَن يغرق لأذنيه في عمل مثل هذا.»

وافقته كازو قائلة:

«إن الأطفال في منتهى البراءة.»

ولكن تلك البراءة عندما تراها على الجهة المقابِلة من البركة لم تكن من النوع الذي يُسبِّب لها شعورًا بالغيرة، علاوة على أن كازو أَحسَّت أن انطباع نوغوتشي في مُنتهى المباشَرة والاعتيادية.

نظر الاثنان في الاتجاه الذي جرى فيه الشباب مُبتعِدين بمحاذاة البركة ويُلقُون عليها بظلالهم. تتابع تجمعات البنايات في حي هيروكوجي أوينو بكآبة، ويرتفع بالونان للدعاية بلون ثمار الحرنكش فوق السماء التي تَغبَّشَت بالدخان والسُّخام.

اكتشفت كازو أن طَرف مِعطف نوغوتشي بالٍ، وأصبح كل ما تراه كأنه يُوجِّه لها الانتقاد. كانت كازو لا يمكنها فعل شيء تجاه كل تلك الاكتشافات البائسة التي تَعثُر عليها. وتشعر أنها ترفض تَطفُّلها من البداية، ثم أظهر نوغوتشي حساسية غير متوقعة تجاه نظراتها فقال:

«هذا؟ إنه معطف اشتريته من لندن عام ١٩٢٨م. ألا تعتقدين أنه كلما كانت روحك شابة كانت الملابس العتيقة أفضل؟»

اخترق نوغوتشي وكازو جزيرة بنتن التي تحيط بها أوراق اللوتس، وصَعدَا تَلَّة أوينو من مدخل معبد غوجوتِن الشنتوي، ثم وَصَلا إلى المدخل العتيق لمطعم سيوكن وهُمَا يتأمَّلان سماء الشتاء الزرقاء التي تبدو وكأنها لوحة زجاجية على الجانب الآخر من لوحة الظلال الرقيقة للأشجار الذابلة. كان مطعم المشويات ذلك خاليًا تقريبًا مع أنه وقت تناول وجبة الغداء.

طلب نوغوتشي وجبة غداء كاملة وطلبت كازو نفس طلبه. بدا برج الناقوس القديم من الواجهة من خلال تلك المائدة التي تطل على النافذة. قالت كازو صراحةً وقد فرحت بالمدفأة داخل المطعم:

«كانت نزهة في جو بارد، ألا ترى ذلك؟»

ولكن مع ذلك كانت تلك النُّزهة تَصطَبِغ بألوان لم تَكُن كازو المشغولة في حياتها اليومية بعملها في معاملة الزبائن تعرفها مُطلَقًا، أعطتها تلك النزهة القليل من الدهشة؛ فكانت من صفات كازو ألا تُحلِّل ما تفعله الآن تحليلًا مزعجًا، وأن تؤجل ذلك لتفعله فيما بعد مجمعًا. مثلًا تذرف دموعها فجأة وهي تتحدث مع أحد الأشخاص. هي لا تعرف وقتها سَببَ تلك الدموع، بل تبكي ولا تعرف هي نفسها سبب مشاعرها تلك.

وحتى بعد أن قالت كازو إن النزهة كانت في جو بارد، لم يقل نوغوتشي أعتذر لك؛ لأنني جعلتُك تمشين؛ ولذا كانت كازو لا تتحمل البقاء صامتة دون أن تشرح بالتفصيل لمَ كانت تلك النزهة ممتِعة رغم برودة الجو. وأخيرًا واستغلالًا لقدوم أطباق المقبِّلات قال نوغوتشي هامسًا:

«كانت ممتِعة.»

ولكن بانت السعادة على نوغوتشي رغم عدم إظهاره أية تعبيرات على وجهه.

لم يسبق أنْ رأت كازو رجلًا بتلك الصفات من قبل. بالطبع كان هناك الكثير من الزبائن قليلي الكلام، وكازو هي دائمًا مَن يتحدث كثيرًا، ولكن بدا أن نوغوتشي بقِلَّة كلامه تلك هو الذي يجذب كازو ويدور بها. ولا تعرف كازو لِمَ يمتلك هذا العجوز المتواضِع للغاية مثل تلك القوة.

بعد أن انقطع الحديث، تأمَّلَت كازو طيور الجنة المحَنَّطة داخل صندوق زجاجي، والستائر المغزولة غزلًا رفيع الذوق، والإطار الذي كُتب عليه عبارة «لتمتلئ القاعة بالضيوف الصالحين.» ولوحة البارجة إيسه القديمة التي صنَعَتها شركة كاواساكي لصناعة السفن. وكانت تلك اللوحة بالفعل، تُظهر تمامًا أنها من إبداع فنان الرسم على

النحاس في نهاية عصر إيدو «دينزن أُودو» ورُسمت بنفس أسلوبه. تمخر البارجة إيسه عباب البحر وهي تدفع خط الأفق المائي الأحمر من بين أمواج البحر المرسومة بدقة. ثمة ما يهيج قَلْب كازو الذي يحب حيوية وطاقة كل شيء مُزدَهر ونشط حاليًّا، من شدة التوافق التام مع وزير سابق يرتدي ملابس إنجليزية قديمة ويتناول وجبة غداء في مطعم غربي من عصر ميجي مثل هذا.

وفجأة قال نوغوتشي:

«إن وظيفة الدبلوماسي هي رؤية الناس، وأنا أعتقد أنني على مدار حياتي جعلت قدرتي على رؤية الناس فقط هي مهارتي. إن زوجتي الراحلة كانت امرأة عظيمة، ولكنني رأيتها بعينيَّ هاتين مرة واحدة فقط وحسَمْتُ قراري على الفور، ولكن لأنني لستُ عرَّافًا فليس لي علم بالآجال. لقد أصاب زوجتي المرض بعد نهاية الحرب مباشرة وتُوفِّيَت؛ ولأننا لم ننجب أطفالًا أصبحتُ وحيدًا تمامًا … آه، عندما تقل كمية الحساء يُشرب بإمالته إلى الجهة الأخرى. أجل بتلك الطريقة.»

فوجئت كازو بشدة ولكنها أطاعته بتلقائية. لم ينتقد رجل حتى الآن طريقة أكلها للطعام الغربي.

واصل نوغوتشي كلامه دون أية مبالاة لتعبيرات وجه كازو قائلًا: «في ربيع العام القادم، سأذهب إلى نارَا مدعوًّا من صديق لمشاهَدة طقس النار المقدس في قاعة الشهر الثاني. لم يسبق لي رؤية ذلك المهرجان من قبل رغم هذا العمر الطويل. وأنتِ؟»

– «وأنا أيضًا نفس الأمر. مع كثرة دعوتي من كثيرين. ولكن حتى النهاية …»

– «ما رأيك؟ أَلَا تأتين معي؟ مع أني أعتقد أنك مشغولة في عملك.»

– أسرعت كازو بالقول: «موافقة»، على الفور.

ومع أنه وَعْد لا يزال أمامه ثلاثة أو أربعة أشهر، إلا أنها بمجرد أن أجابت «نعم» اهتاجت مشاعرها، وفاضت تَخيُّلاتها، ولم تستطع كازو أن تُخفي تدفق الدماء إلى رأسها بعد أن اقترن دخولها من مكان بارد إلى غرفة بها مدفأة مع تصاعد الحرارة إلى وجهها.

قال نوغوتشي وهو يحرك السكين المخصَّص لتقطيع الأسماك والذي نُقش عليه نقش دقيق: «إن بكِ ما يشبه اللهب.» بدا نوغوتشي في قمة الرضا وهو يفرض ملاحظاته على الآخرين بثقة في النفس.

«لهب» كرَّرت كازو الكلمة؛ لأنها كانت في قمة السعادة عندما قِيلَت لها. «تقول لهب؟ ولكن تُرى كيف يكون ذلك؟ إن الجميع يسخرون مني بالقول إنني كُرة من اللهب، مع أنني شخصيًّا لا أعتقد ذلك.»

– «أنا لا أقول ذلك بغرض السخرية.»

سكتت كازو لأن كلمة نوغوتشي بدت لها وكأنه قالها وهو في منتهى الانزعاج.

بدأ الحديث الذي انقطع مرة أخرى من الحديث عن زهرة الأوركيد. وكان هذا الحديث أيضًا لا تعلم عنه كازو شيئًا، وكان يجب عليها أن تَصمُت وتُصغِي أذناها لهذا المسن الذي أمام عينيها وهو يَتفاخَر مثل مُراهِق صغير بما يملك من معلومات لا تفيد. وأمكنها تخيل نوغوتشي من بضع عشر سنة مضت يُظهر بفخر واعتزاز كل ما يملك من معلومات أمام إحدى الفتيات التي يعجب بها.

– «انظري إلى هناك. هل تعرفين ذلك النوع من زهور السحلبية ماذا يُسمى؟»

لفت كازو عنقها وشاهدت سريعًا أصيص الزرع الذي وُضع فوق قاعدة خلفها، ولكن لأنها لم يكن لديها أي اهتمام، أعادت عنقها للأمام دون أن تراه تقريبًا وأجابت بأنها لا تعرف. وكانت تلك الإجابة أسرع من اللازم بعض الشيء.

فقال نوغوتشي بمزاج سيئ:

«اسمها دندربيون.»

وهنا لفَّت كازو رأسها مرة أخرى واضطرت هذه المرة لأن تشاهدها بالتفصيل الدقيق.

كانت سحلبية غربية من نوع زهور البيوت الزجاجية مزروعة في أصيص بلون اللازورد موضوع فوق قاعدة، ولم تكن زهورًا بها ندرة بصفة خاصة. الزهور المَطلية بجسيم أحمر متنِّوع في حافَّتها من ساق تشبه سيقان الكنباث الشتوي تلتصق بها وكأنها تطفو لاعبة. بدا الشكل المعقَّد الذي يشبه سحلبية من أعمال طي الورق؛ ولأنه ما من ريح تهزه، كأنه صناعي أكثر وأكثر. في مركز الزهور القرمزية الغامقة، وكلما حَمْلَقت كازو أكثر، وبدت لكازو شيئًا يبعث على السخرية بشكل، شيئًا قبيحًا لا يتناسب مع هذا الظهر الشتوي الهادئ.

الفصل الخامس

تفسير كازو للحب

افترقَت كازو عن نوغوتشي في تلك الظُّهرية وعادت إلى ستسوغوان، ثم خافت من تضييع وقت سعادة ذلك الغداء كما هي في خضم ساعات العمل الهام. أول ما أسعد كازو كان إبداء شخص غريب عنها اهتمامًا غير عادي بها. وبسبب تلك السعادة انتبهت كازو للمرة الأولى إلى الوحدة التي كانت تعيش فيها حتى الآن.

ومع أنه عندما كانت مع نوغوتشي لم يحدث شيء تقريبًا، ولكن بعد أن افتَرَقا حدثت على الفور مشاعر مُتنوِّعة وكأنها الريح التي نشأت من انفجار ضخم. فأولًا، غرقت بحماس في تخيل أنها تُلبس نوغوتشي قميصًا نظيفًا دائمًا غُسِل وكُوِي لِتَوِّه، وتُلبسه ملابس غربية جديدة صُنعت لِتَوِّها من أَجْله. وعندما تتدخل في تلك المشكلة، تصل المشكلة على الفور إلى ما هو مشاعر نوغوتشي تجاه كازو؟ فلا يمكن أن تتدخل كازو في رعاية شئون نوغوتشي من دون التأكد من مشاعره. ولكنها لا تعرف عن مشاعره تلك شيئًا. شَعرَت كازو بالدهشة من وقوعها في حالة عدم فهمها مُطلَقًا لمشاعر الطرف الآخر القلبية مرة أخرى في حياتها. ليس دهشة فقط بل كان أمرًا خارج نطاق تفكيرها.

وعندما تفكر كازو لِمَ يرتدي نوغوتشي مثل تلك الملابس البائسة حتى وإن كانت جيدة، قَلِقَت كثيرًا بشأن حالة ذلك الرجل المادية. إنه على أي حال يعيش على مُرتَّب التقاعد، ولا يمكن مطلقًا القول عنه إنه دَخْل كافٍ. بالنسبة إلى شخص عمل في الماضي وزيرًا، يجب القول إن الظروف الحالية في غاية الانحطاط. أثناء الاختلاط بالزبائن ليلًا، كانت كازو لا تفكر إلا في هذا الأمر، وبحثَتْ عن طريقة لمعرفة ذلك الرقم بالتحديد.

وعندما اقتربت صدفة من مَقاعد جَمْع من موظَّفِي الدولة ولأن الجميع كانوا يتحدثون عن فترة التقاعد، سألتْ كازو السؤال التالي بدون أن تلفت الانتباه:

«لو قمتم أنتم في حكومة الدولة بِتولِّي إدارة المطاعم فعلى الأغلب أن عجوزًا مثلي ستتقاعد على الفور. ولكن بدلًا من هذا العمل الشاق، يا لها من حياة رائعة أن أحصل على مُرتَّب تقاعد وأعيش في لعب وَلَهْو. لو كنتُ أنا كم تعطونني مُرتَّب تقاعد؟»

– «مالكة مطعم بدرجة وزير؛ ولذا على الأرجح يكون مرتب التعاقد ثلاثين ألفًا شهريًّا.»

– «حقًّا! هل تعطونني كل هذا؟»

أجابت كازو تلك الإجابة الصارخة وأضحكَت الجميع.

وفي تلك الليلة عندما هجعَت في غرفتها الصغيرة، تَخيَّلت كازو العديد من الأمور في رأسها الذي لم يستطع النوم. كانت غرفة كازو غرفة متواضعة كئيبة لا يمكن أن يتخيلها زبائنها مقارنة بستسوغوان. وُضع بجوار وسادتها هاتف منزلي، وتتراكم حوله بعشوائية المجلات التي انتهت كازو من قراءتها. ولا تضع أية قطع فنية من أي نوع، وفي ركن الزينة وضعت عددًا من الأدراج الصغيرة الحجم. وتحس كازو عندما ترقد فوق الفراش المعد لها في تلك الغرفة أنها عادت أخيرًا إلى جسدها.

لقد عرفت أن دَخْل ذلك الرجل الشهري ثلاثون ألف ين. وإن كان الأمر كذلك فتكلفة دعوتها على غداء اليوم ليست هينة، ولكن لتلك الدرجة بقي الجميل في أعماق قلبها؛ ولأنها حصلت على معلومات محددة، حصل خيال كازو على أجنحة لأول مرة. مَرتبَة الرجل الاجتماعية السابقة، وفقره الحالي، ثم سلوكه العنيد، ... تبدو تلك المعلومات نوعًا من الرومانسية في عالم لا تتعامل فيه إلا مع زبائن من نجوم العصر الزاهرة.

أُجِّل خبر في ركن من الجريدة التي فتحتها لقراءتها قبل القيام بالنزهة الصباحية اليومية المعتادة من عادتها تلك. كان الخبر هو موت تاماكي، لقد لفظ تاماكي أنفاسه الأخيرة في المستشفى في الساعة العاشرة ليلة أمس. وكُتِب أن الجنازة ستقام في الساعة الواحدة من بعد ظهر بعد غد في معبد تسوكيجي هونغانجي. أخرجت كازو ملابس الحِداد بِنيَّة الذهاب للتعزية على الفور، ولكنها أَحجمَت عن ذلك عندما فكَّرَت في سلوك زوجة تاماكي تلك الليلة. وكان استمرارها في الصبر والتحمل لمدة يومين منذ ذلك الوقت، يُشعل النار في قلب تلك المرأة المتَّقِدة المشاعر.

كان يجب على نوغوتشي أن يخبر كازو بموت تاماكي بغض النظر عن إعلان الخبر في الجرائد من عدمه. فهذا الاتصال الهاتفي منه يُعتَبر معيارًا لمشاعر الحب، أو على الأقل

الصداقة التي يحملها تجاهها. ولكن مع ذلك لم يَأتِها منه أي اتصال. كلما تردَّد صدى دقات الهاتف في أنحاء المكان، تَرتعِد كازو وكأنها فتاة مراهِقة، وتبدو كأن أنفاسها تنقطع. فلقد كانت تخشى إن كان ذلك الاتصال من نوغوتشي، ألا تقدِر على إخفاء المرح من صوتها عندما يخبرها الرجل الحزين بموت صديقه الحميم.

لم يسبق لكازو أن انتظرَت مأتم عزاء شخص بمثل هذا الشوق. وفكَّرَت في الذهاب إلى الكوافير في اليوم السابق ولكنها قررت أن تؤجل ذلك إلى صباح اليوم نفسه. في النزهة الصباحية لليوم السابق ليوم الجنازة، جعلت عيون عمال الحديقة تَبْرُق من الدهشة. فقد دارت دورة كاملة تَتنزَّه في الحديقة بدون تحية الصباح وبلا توبيخ ورأسها متدلٍّ لأسفل، بل بدت هيئة المالكة وكأنها قد جُنَّت وهي تدور دورة أخرى حول الحديقة وهو الأمر الذي لم تفعله من قبل. قال البستاني العجوز الذي يعمل في المكان منذ عهد المالك السابق: إن هذه الهيئة تشبه هيئة جِنِّيَّة الجبال وهي تدور حول الجبال.

لم يأتِ اتصال من نوغوتشي حتى مع مجيء اليوم السابق للجنازة؛ ولذا تَذوَّقت كازو نوعًا من أنواع الإحساس بالهزيمة. ولكن حتى تَذوُّق إحساس الهزيمة ذلك أشعل مشاعرها؛ فهي لم تفكِّر مثلًا في أن الرجل تَولَّى مسئولية رئيس لجنة تنفيذ جنازة صديقه الحميم وليس لديه وقت فراغ لكي يَتَّصل بأحد. لا تنظر مُطلَقًا إلى مثل هذه التخمينات التي تجعلها تطمئِن. بل هي فقط تشتعل غضبًا لإحساسها أنها أُهملَت.

وجعل شعور الانتقام من كل من نوغوتشي والسيدة تاماكي كازو تجهِّز من الليلة السابقة مبلغَ التعزية بقيمة مائة ألف ين. وهي تُفكِّر أن المبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف مُرتَّب تقاعد هؤلاء القوم. ومع أنه شخص ليس بينها وبينه معروف أو جميل، أَحسَّت كازو أنه ما من شيء يُعبِّر عن مشاعرها سوى مبلغ التعزية الضخم هذا.

كان طقس يوم الجنازة نفسه مشمسًا رائعًا ودافئًا بما يليق ببداية الشتاء وكانت الرياح خفيفة. وامتنعت كازو عن النزهة الصباحية، واستغرق ارتداء كيمونو الحِداد وقتًا طويلًا، وجَعلَت سائقها يَتَّجِه بها إلى الكوافير في غينزا.

كانت ترى الشباب يسيرون في طُرُقات المدينة من خلال زجاج النافذة التي تتسلط عليها أشعة الشمس. أَبعدَت كازو عينيها عن ملابس الحداد التي ارتدتها على عَلَّاقة الصدر ووجَّهَت عينها بحماس معروف السبب إلى هؤلاء الشباب. كانوا وكأنهم يسيرون بأجساد شفَّافة. رأت كازو بوضوح مشاعرهم وطموحاتهم وألاعيبهم الصغيرة ودموعهم وضحكاتهم.

مَرَّ طالبان وطالبَتَان معًا يحرِّكون أياديهم بمبالغة شديدة لا تتناسب مع طبيعة اليابانيين، ويضع طالِب منهم يرتدي الزِّيَّ الموحَّد مع قبعة موحدة يدَه على كتف طالبة منهما وظل بهذه الحالة على الدوام. كانت الطالبة ترتدي معطفًا نِصفِيًّا مُزغبًا بلون وردي. ولا تلتفت إلى يد الطالب الموضوعة على كتفها، بل تضيق من عينيها في ذلك اليوم المشمس الذي يُبشِّر ببداية الربيع، وتنظر شاردة إلى الطريق التي يسير فيها مترو البلدية.

في تلك اللحظة تَحوَّلت إشارة المرور إلى اللون الأخضر، وفي اللحظة التي أسرعت فيها السيارات بالتحرُّك رأت كازو شيئًا غريبًا، الفتاة التي بالمِعْطَف النِّصْفِي ذي اللون الوردي، خَطفَت فجأة قبعة الزِّيِّ الموحَّد للطالب، وألقَتْ بها في عرض الطريق. نظرت كازو بحركة لا إرادية إلى ذلك المشهد من زجاج السيارة الخلفي، وكانت تلك اللحظة التي دَهسَت فيها السيارات القادِمة تلك القُبَّعة، ورأت الطالب على الجانب الآخر من الطريق وهو يَركُل الأرض غضبًا.

وكان السائق كذلك يرى تلك الحادثة بعين جانبية.

قال السائق وهو ينظر إلى الخلف وعلى وجهه ابتسامة مريرة ورزينة:

«تبًّا! تبًّا لفتيات اليوم! لا أفهم ماذا يَفعَلْن؟ تُرى لِمَ فَعلَت ما فَعلَت؟ تبًّا لها.»

أجابت كازو بملابس الحداد:

«مجرد مزاح ثقيل.»

ولكن كان قَلبُها يخفق على غير المتوقَّع، وأُعجبت بفعل تلك الفتاة الطائش التي خطفت قبعة الفتى وجعلت السيارة تدهسها. كان ذلك فعلًا بلا أي معنى على الإطلاق. ولكنها تأثَّرت تأثُّرًا غريبًا من ذلك الفعل، لدرجة أنها رأت للحظة شعر الطالب المشعث بعد أن نُزِعَ من القبعة.

تركت تلك الحكاية ظلالها في قَلْب كازو لفترة طويلة أثناء وجودها في الكوافير حيث حَجَزت وقتًا طويلًا لكي يصفف لها شعرها بعناية بالغة. كان من عادتها الدائمة في الكوافير أن تكون مَرِحة كثيرة الحديث، ولكنها كانت في ذلك اليوم تميل إلى الصمت. وكان وجهها المنعكس في المرآة جميلًا غنيًّا، ولكن المجامَلَة التي تقولها مُصفِّفَة الشعر دائمًا لها كانت كذبًا. فلم يَكُن ذلك الوجه شابًّا بأية معايير.

كانت جنازة معبد تسوكيجي هونغانجي فخمة جدًّا. استمر طابور المعزِّين بمحاذاة باقات الورود الدائرية العملاقة. انضمَّت كازو إلى ذلك الطابور بعد أن سلَّمَت المائة ألف ين مبلغ التعزية لمكتب الاستقبال؛ ولأنها رأت وجوه عدد من زبائن ستسوغوان، ألْقَت

عليهم كازو التحية بأدب بالغ. كانت رائحة دخان البخور الذي يتدفق داخل أشعة شمس بدايات الشتاء، مُنعِشة، وكان أغلب المعزِّين عجائز، ويُصْدِر عجوز أمام كازو مباشرة صوت احتكاك طقم أسنانه عند انطباق فَكَّيه بعضهما على بعض بلا انقطاع.

مع تقدم الطابور للأمام، وعندما تُفكِّر كازو في اقتراب لحظة لقائها مع نوغوتشي، يضطرب قلبها، ولا تستطيع التفكير في أي شيء. أخيرًا استطاعت كازو رؤية زوجة تاماكي. كانت عيناها بها شراسة أكثر منها حزنًا، ونظراتها التي تنظر بها أثناء رَفْع وجهها بعد الإيماء المؤدَّب الطويل وكأنها تعود إلى نقطة محددة في الهواء مجذوبة بخيط.

أخيرًا ظهر نوغوتشي. يرتدي بذلة سموكن صارمة الضيق، ويلف حول ذراعه قماش شاش أسود، يرفع فَكَّه لأعلى قليلًا، ووجهه بلا أي تعبير مُطلَقًا.

بعد أن انتهت كازو من طقس حَرْق البخور، نظرت كازو مباشرة إلى نوغوتشي من قريب. ولم تجفل عينا نوغوتشي ولو قليلًا، بل نظر إلى كازو بنفس الوجه بلا أي تعبير، ثم خفض رأسه لها في احترام.

لا يمكن القول عن لحظة طقس حرق البخور تلك خارج توقُّعاتها تمامًا. بعد أن تَتبَّعَت السبب غير المنطقي؛ لأنه في اللحظة التي تلاقَت عَيْنَا كازو مع عَيْنَي نوغوتشي اللتين بلا تعبير هاتين، شعرت كازو أنها وَقَعَت في حب نوغوتشي.

بعد عودتها مباشرة إلى ستسوغوان، كَتبَت كازو الخطاب الطويل التالي على ورق الخطابات المطوي.

«تحية طيبة،

بعد رؤيتي لكَ اليوم في خير، وإن كانت نظرة واحدة، شعرت بمشاعر ملأَت فؤادي. لا يمكن لي نسيان دَعوتك لي على وجبة الغداء في تلك الظهيرة، والنزهة التي قَبْلَها وأتذكَّرُهما مِرارًا، فلم أتقبل مثل تلك الضيافة والكرم المسبِّب للسعادة من أحد في الفترة الماضية، وأنا عملي استضافة الناس، يجب عليَّ أن أقول إن استقبال كَرَم من الآخَرين شيء يجلب السرور، فقط أريد إبلاغك أنني أشعر بالسرور من أجل رعايتك لي.

شيء واحد يدعو للأسف وهو أن خبر وفاة السيد تاماكي عَلِمتُ به من الصحف وأُصِبتُ بدهشة بالغة. وهو الأسف من أنك لم تَتصِل ولو باتصال هاتفي سريع. ولي كلمة لا بد أنك شعرت بها، يجب أن أقولها دون إخفاء، منذ

ذلك الوقت وحتى اليوم، كنتُ في انتظار أن أسمع صوتك طوال ذلك اليوم، إن كنتَ أخبرتني بذلك الأمر، كان ذلك سيكون دليلًا على اهتمامِك بي، ولكن للأسف يظل الأسى مُتبقِّيًا من ذلك.

وسبب أنني أُكرِّر قولي المزعج هذا لك، حتى وإن كان بدون قصد أو نية، هو عبارة عن طيش واندفاع لفرط احترامي لك، أتمنى أن تَتخلَّص منه بإلقائه إن أردتَ، وأبلغك أن هدفي في الحياة هو أنني أتمنى أن ألتقي بك في أقرب فرصة ممكنة.»

كازو

في اليوم التالي، ذهبت كازو كواجب اجتماعي لها لمشاهدة حفل غنائي راقص، دَمعت عيناها عندما سمعت افتتاحية أغنية «ياسونا»:

«يا حُب أَيَا حب، يا حُب خُذني إلى السماء.»

وقرب ظهيرة اليوم التالي، جاء اتصال هاتفي من نوغوتشي. تحدث حديثًا عاديًّا، ولم يَتطرَّق مُطلَقًا إلى اللوم الذي وجَّهَته له في الخطاب.

كان صوته في الهاتف بلا مرح بل كانت كل كلمة مُفعَمة بالهيبة والجلال، واستمر في الحديث طويلًا وهو يَتوقَّف من حين لآخر. وتواعد الاثنان على اللقاء مجددًا.

وفي النهاية نفد صبر كازو فقالت بحقد وغل ضئيل:

«لماذا لم تخبرني بنفسك بالأمر؟»

سكت نوغوتشي على الجانب الآخر من الهاتف، ثم قال قولًا غامضًا اختلط فيه الضحك المحتوي على الارتباك الذي يُجرُّ شيئًا ما:

«في النهاية، ما من سبب لذلك. مجرد أنني استثقلت الأمر فقط.»

لم تستطع كازو مطلقًا فهم تلك الإجابة. «استثقل» كانت تلك الكلمة كلمة عجائز بوضوح تام.

الفصل السادس

حتى موعد الرحيل

بعد ذلك تَقابَل الاثنان من وقت لآخر، وزارت كازو بيت نوغوتشي. كان نوغوتشي يعيش بمفرده في بيت قديم في حي شيينا، واطمأنَّت كازو أن الخادمة التي ترعى شئونه كبيرة في السن وقبيحة الوجه. وعلى الفور بدأت كازو تهتم برعاية نوغوتشي وترتيب حياته الخاصَّة. وأرسلَت له عشاء العام الجديد بشكل كامل من مطعم ستسوغوان.

وكانت رفوف مكتبة نوغوتشي تمتلئ بالكتب الأجنبية، وشعرت كازو بالاحترام تجاه لغة لا تستطيع قراءتها. وكان نوغوتشي كذلك يعلم جيدًا تلك الفاعلية والتأثير، فكان كُلَّما جاءت كازو لزيارته قابلها في غرفة المكتبة. سألته كازو ببراءة وهي تحوم بعينيها حول رفوف الكتب.

«هل قرأتَ كل تلك الكتب؟»

– «أجل، قرأتُ أغلبها.»

– «ثمة بينها كتب مريبة بالطبع.»

– «ما من كتاب واحد من تلك النوعية.»

تعجَّبَت كازو من أعماقها لهذا القول القاطع. كان العالم الذي يستقيم فيه العلم بمجرد أنه علم فقط، خارج نطاق فَهْمِها. أليس من المفترض أن لكل أمر وجهًا آخر؟ ولكن يبدو أن الذي يعطيها انبهارًا طازجًا لا يتوقف في السيد نوغوتشي أن تلك الشخصية ليس لها وجه آخر وأنه لا يملك إلا الوجه الذي يُريها إياه. بالطبع كازو بشكل مبدئي لا تؤمن بوجود مثل هذا الإنسان. لا تؤمن بوجوده ولكن مثل ذلك النوع النافد الصبر، ذو الهيئة غير المكتملة من المثالية بدأت تنطبق شيئًا فشيئًا على نوغوتشي. وعندما حدث ذلك، أصبحت تشعر تدريجيًّا أن طريقة نوغوتشي المتكلَّفة بها نوع من السحرية والجاذبية التي لا يمكن وصفها بالكلمات.

وخلال العلاقة من نوغوتشي، اكتشفَت كازو أن المجتَمَع نَسِي تقريبًا وجود نوغوتشي، وأَحسَّت بالدهشة من عدم تأثر نوغوتشي بذلك مُطلقًا. ولم تُبدِ كازو اهتمامًا بالمثالية السياسية الإصلاحية التي يؤمن بها نوغوتشي حاليًّا، وفكَّرَت كازو أنه يجب تصحيح عدم التوافق بأسرع وقت بين جدة تلك المثالية ونسيان المجتمع له. تُرى كيف تعيش المثالية المليئة بالنشاط والحيوية مع حياة الموتى؟ حتى بعد هزيمة نوغوتشي للمرة الثانية في انتخابات مجلس النواب، ظَلَّ اسمه على قائمة مستشاري حزب الإصلاح، ولكن عندما عَلمَت كازو أن الحزب لم يكن يُرسل له سيارة من أجل حضور الاجتماعات، فيضطر إلى الخروج واستخدام القطار، شعرت بالغضب الشديد.

في كل مرة تروز كازو فيها بيت نوغوتشي ترى شيئًا جديدًا يثير حَنَقها بنفس الطريقة التي حَنقت فيها لأول مرة على نوغوتشي بسبب البُقع التي كانت على قميصه أو تَهرُّؤ أطراف أكمامه. الآن هي قد لاحظت عدم تَماثُل جانبَي باب المدخل الأمامي، وكثرة الأتربة وتقشير البوية في البيت الخشبي الذي على الطراز الغربي، أو براعم نبات الكبدية المائية التي بداخل البوابة، أو الجرس في مدخل الباب المتروك مُعطَّلًا. لم تَكُن كازو لديها الحرية في عمل الإصلاحات من نفسها، وكان نوغوتشي ما زال حريصًا على ألا يَقترِب من كازو أكثر من درجة مُعيَّنة. كان موقِفُه محافظًا، ولكن ذلك الموقف يثير رغبة كازو في الاقتراب أكثر وأكثر.

ذهبَا إلى مسرح الكابوكي في يناير بناءً على اقتراح من كازو. بَكَت كازو بحرية في اللحظات الحزينة، بدون أن تفقد أيًّا منها، ولكن نوغوتشي جلس بدون تأثُّر أو تفاعُل طوال العرض بأكمله. سألها بلهجة يبدو عليها الاستمتاع عندما كانا يقفان في الردهة أثناء الاستراحة: «ما الذي يجعلك تبكين بمجرد رؤية ذلك التمثيل السخيف؟»

– «ما من سبب مُعيَّن. ولكن الدموع تنهمر بشكل طبيعي.»

– «إن طبيعتك تلك ممتِعَة لي. حاوِلي أن تشرحي لي بشكل أكثر تحديدًا ماذا تعنين؟»

سخر نوغوتشي من كازو بنبرة صوت مهيبة كما لو كان يَتنمَّر على فتاة صغيرة. لم يكن لدى كازو نِيَّة التظاهُر بالبراءة ولكنها أحست في تلك اللحظة، كما لو أنه يسخر منها بشكل مُتعمَّد، مما أصابها بالخوف.

في ذلك اليوم سقطت قَدَّاحة نوغوتشي ماركة دانهيل في المسرح. كان ارتباكه عندما اكتشف فُقدان القدَّاحة في المسرح مذهلًا، تَبخَّر كل وقار وهدوء اللحظة السابقة. لقد اكتشَفَ فُقدان القَدَّاحة في مُنتَصف المسرحية الثانية لتلك الليلة. وعندها رفع نصفه الأعلى

قليلًا ليبحث في كل جيب من جيوبه. واختلف تمامًا التعبير الذي ظهر على ملامح وجهه يَغمِغِم قائلًا: «ليس هنا. وليس هنا أيضًا.» عن تعبيرات نوغوتشي الطبيعية.

سألته كازو: «ماذا حدث؟» ولكنه لم يَرُد. أخيرًا جَثا نوغوتشي على ركبتيه ودفع برأسه تحت المقعد. وأثناء ذلك انتبه فجأة وتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ جدًّا قائلًا:

«إنها الردهة. تلك هي. لا شك أنها سقطت مني في الردهة.»

التفت الجمهور حوله ناحيته، بِتجهُّم وغَمغَمة مُستاءة. أخذَت كازو المبادرة ونهضَت وتَبِعَها نوغوتشي للخارج. ولحظة أن أصبَحَا في الخارج عند الردهة، سألَته كازو تلك المرة بمنتهى الهدوء:

«أَلَا أخبرتني ما الذي فقَدْتَه؟»

– «قداحة دانهيل. إن أردتُ شراءها اليوم فلن أعثر أبدًا على هذا النوع القديم.»

«هناك حيث كُنَّا نتحدث أثناء الاستراحة، أليست هذه؟»

«هذا صحيح. إنها هناك.»

شَعرَت كازو بالأسف لنوغوتشي؛ لأنه كانت أنفاسه تقريبًا تلهث. ذهبَا إلى ذلك المكان، فلم يجدَا شيئًا فوق السجادة القرمزية البرَّاقة. اقتربت منهما موظفة مكتب الاستقبال التي في منتصَف العمر والتي يبدو أن لديها وقت فراغ أثناء العرض قائلة:

«أتساءل هل هذه ما تبحثان عنه؟»

وهي تمسك في يديها قَدَّاحة نوغوتشي بلا أي ريب.

ستتذكر كازو طويلًا تلك الفرحة البريئة على وجه نوغوتشي عندما رأى القَدَّاحة، وتسخر منه بعد ذلك مرارًا قائلة: «أتمنى لو تُظهر ذلك الوجه للناس أيضًا وليس للقدَّاحة فقط» ولكن لم تصبح تلك الحادثة سببًا لخيبة أمل كازو مُطلَقًا. فهي لا تحمل نظرة مُتحيِّزة، فمجرد أنها رأت فقط تَعلُّق نوغوتشي البريء بما يمتلك كالأطفال.

لم تَتوقَّف الحوادث المشابهة عند هذا الحد. لقد قال نوغوتشي في اجتماع نادي كاغِن:

«لنتوقف عن الحديث عن الماضي. إننا ما زلنا شبابًا.»

وذلك في الواقع يعبر عن موقفه حقيقة تجاه الذكريات القديمة بعد انتهاء المجد، ولكنه مع ذلك يتعلق بأشياء ذلك الماضي تعلُّقًا شديدًا. وكلما اقتربت كازو من نوغوتشي أكثر، تراه من وقت لآخر يحمل معه مُشطًا قديمًا يمشط به شعره الأشيب. عندما سألته عن ذلك المشط، أكد لها أنه يستخدمه منذ ثلاثين عامًا. قال لها إنه عندما كان شابًّا ذا

شعر كثيف وأشعث كانت أسنان الأمشاط العادية تنكسر غالبًا. وأنه صنع ذلك المشط خصوصًا من شجر البَقس القوي للأمشاط.

لا يمكن أن يُقال عن ذلك ببساطة إنه بخل شديد أو فقر. ولكن نوغوتشي محتفِظ بعناد بالأناقة الإنجليزية التي تلتزم بالتقاليد العتيقة، لمقاومة الأناقة الضحلة بملاحقة الجديد التي أولدها الاقتصاد الاستهلاكي على الطريقة الأمريكية. وكذلك ترتبط جيدًا روح الكونفوشيوسية في التوفير مع ذلك الذوق الأرستقراطي. وكانت كازو تجد صعوبة في فَهْم أناقة نوغوتشي تلك التي تبالغ في الاحتفاء بالقديم.

كانت كازو أحيانًا تفكر في حيرة عندما تخرج للتنزُّه الصباحي الذي لم تنقطع عنه قط حتى في عز الشتاء، وهي تدهس بقدميها إبر الجليد التي تنبت في الأرض، ما الذي يُشْعِرها بالجاذبية أكثر، وما الذي تُعجَب به أكثر في نوغوتشي، أعَملُه الأرستقراطي كوزير سابق، أم الفكر التقدُّمي الإصلاحي الذي يؤمن به الآن؟ يحيط بالأُولى بريق ذهبي يسهل أن يستمع إليه العامة، والثانية رغم عدم فَهْمِها جيدًا إلا أنها تعطي إحساسًا بشيء حي يسير قُدمًا نحو المستقبل. صارت كازو تفكِّر في الأمرَين كما لو كانَا صِفتَين قريبتَين من الصفات الجسمانية ولا يمكن التفريق بينهم، وكأنها تسأل؛ هل تحب أنفه ذا الرأس الحاد أم أذنه المتميزة.

تطوَّر حبهما ببطء شديد جدًّا وكانت أول قُبلة بينهما عندما ذهبت كازو إلى بيته للاحتفال برأس السنة. كانت كازو ترتدي كيمونو مصنوعًا من خيط واحد بقماش يشبه خزف السيلادون صُبغ عليه جداول بيضاء وضفاف صناعية فضية وأشجار صنوبر خضراء، وربطت حزام الأوبي بأرضية ألوانها فضية رمادية، وطُرز عليها حيوان استاكوزا كبير باللونين الأحمر والذهبي. وخلعت فرو المنك وتركته في السيارة.

ظل بيت نوغوتشي كئيبًا مُوحِشًا مُغلَق الأبواب حتى مع بداية العام. ولكن عرفت كازو أن ذلك الجرس المعطوب قد أُصلح أخيرًا. وانتبهَت كازو إلى أن الخادمة التي في منتصف العمر والتي ظهرَت أخيرًا بعد أن جعلَتها تنتظر طويلًا، تنظر إليها نظرة احتقار. في أحد الأوقات قال سيدها لها اسم كتاب باللغة الألمانية وجعل تلك الخادمة تُحضر ذلك الكتاب من رف المكتبة. كرَّرَت الخادمة اسم الكتاب بلا تلعثُم، وبحثَت بعينيها سريعًا على رفوف الكتب وأخرجت ذلك الكتاب في التوِّ والحال. ومنذ ذلك الوقت كرِهَت كازو تلك الخادمة.

ما من صوت بتلك المنطقة المنفصلة عن الطريق الرئيسة إلا صوتًا جافًّا صافيًا للعب الأطفال بالمضرب الخشبي يأتي من بعيد. كانت كازو تشعر في كل مرة بالخِزي والخجل مِن جَعْلِها تنتظر طويلًا أمام سائقها بعد أن تنزل من السيارة وتضغط على جرس البوابة. وكانت أشجار صنوبر البوابة التي أنارتها أشعة شمس شتوية صافية مائلة هي الوحيدة الجديدة في هذا البيت.

ظلَّت كازو تنظر بثبات على الطريق أمام البوابة الخالية من البشر. تبرز تحت أشعة الشمس بوضوح الأجزاء المحدَّبة والمقعَّرة المعقَّدة للطريق المُعبَّدة التي نُزع أسفلتها. تسقط على الطريق هناك ظلال الأشجار وأعمدة الكهرباء. تلمع آثار الإطارات العريضة التي نُقِشت فوق التربة السوداء اللامعة التي ظهرت بها إبر الصقيع في أجزاء الطريق تلك.

أصغت كازو أذنيها إلى صوت المضارب الخشبية، يبدو أنه يأتي من حديقة بيت قريب، ولكن لا يُرى الأطفال الذين يلعبون، ولا يُسمع صوت ضحكاتهم. توقف الصوت. فكرت كازو: لقد سقطت. ثم بعد ذلك يستمر الصوت بنبرة اندفاع جيدة. ثم يتوقف ... أثناء ذلك التكرار المسبب للضجر، رَسمَت كازو في مخيلتها كُرة ذات أجنحة مزدهرة الألوان تُضرَب بالمضارب وتسقط على الأرض المُوحِلة من ذوبان الصقيع. وبفعل ذلك بدا لها على الفور اللعب الذي يواصل الانقطاع ثم الاستمرار داخل السور غير المرئي وكأنه مداعبة خفية اختبأت من عيون الناس.

سمعت كازو صوت قبقاب خشبي يقترب من البوابة. وبسبب التوتر من ملاقاة الخادمة الكريهة اتَّخذ جسم كازو وَضْع الاستعداد. فُتِحَت البوابة؛ ولأن الذي فتح الباب كان نوغوتشي نفسه فقد تَورَّدت خدود كازو من الدهشة غير المتوقَّعة.

قال نوغوتشي الذي ارتدي زي هاكاما بشعار عائلته:

«لقد أعطيتُ الخادمة عُطلة لترفِّه عن نفسها؛ ولذا أنا بمفردي اليوم في البيت.»

– «مبارك عليك العام الجديد. إن ارتداء الزِّي ذي الشعار يجعلك عظيمًا.»

أحسَّت كازو بالغيرة على الفور وهي تدخل من الباب من حسن هندام نوغوتشي. تُرى مَن ساعده في ارتدائه؟ وتعكر مزاجها أثناء تفكيرها في ذلك وهي تَعبُر الممر لتصل إلى غرفة المعيشة.

كان نوغوتشي دائمًا يتجاهل تَعكُّر مزاج كازو في هذه الحالة. أخذ قِنِّينة الخمر المعتَّق الخاص برأس السنة في يده، وحاوَل أن يعرض على كازو أن تشرب. وعندما فكَّرَت أنها

يجب ألا تبدأ العام الجديد بتجرُّع كأس المرارة، أَبدَت كازو من نفسها كما هي العادة علامة على غضبها. وعندها قال لها نوغوتشي ما يلي:

«يا للغباء! إن الخادمة هي من ساعدني في ارتدائه. إنها لا نفع منها في الملابس الغربية ولكن إن كان زي الكيمونو فهي تعمل بكل هِمَّة.»

– «لو كنتَ تُفكِّر في أمري، لكنتَ طردتَ تلك الخادمة، وأنا سأجلب لك خادمة كأحسن ما يكون، وإذا لم تطردها.»

بدأت كازو في قول ذلك ثم أجهشت بالبكاء وأكملت:

«حتى عندما أكون في البيت فأنا أغرق في القلق ولا أستطيع النوم.»

قاومها نوغوتشي بالصمت عن الكلام. فأخذ يحصي ثمار نبات لحية التنين التي تشبه حجر الفيروز تحت أشجار البرقوق في الحديقة. بعد أن استمع لفترة إلى شكاوى كازو، رفع القِنِّينة مرة أخرى وكأنه تَذكَّرها فجأة. أخذت كازو الكأس الخشبي الذي قُدِّم لها عنوة ووضعته فوق المنديل الذي تبلل بدموعها، ولكنها ألقَت به على الفور فوق حصير التاتامي، وبكت بعد أن خبأت وجهها في ركبة نوغوتشي التي يرتدي سروال هاكاما من منطقة سنداي. ووقتها حرصت على أن تبسط المنديل الجاف الآخَر فوق سروال الهاكاما حتى لا يتسخ.

داعبَت يد نوغوتشي بهدوء ربطة خلفية الحزام. وأثناء فعله ذلك، كانت كازو تعرف بيقين أن عيون نوغوتشي قد انجذبت إلى ظَهرِها اللامع الذي يمكن اختلاس النظر إليه قليلًا من فتحة ياقة الكيمونو المشدودة للخلف، والذي يمتلئ بلحم قوي مَرِن برائحة البياض المحبَّبة. كانت حركة يد نوغوتشي التي تُداعبها وَسط الهدوء الذي يشبه الذهول، بها ما يشبه لحنًا موسيقيًّا تعرفه كازو جيدًا. وبعد ذلك تَبادَل الاثنان قُبلتَهما الأولى.

الفصل السابع

طقس النار المقدَّس في قاعة الشهر الثاني

كانت رحلة الذهاب إلى طقس النار المقدَّس في نارا هو الوعد الذي قطعه مع كازو منذ فترة طويلة، وفي نفس الوقت، رحلة تُلبِّي عرضًا سابقًا من صديق يعمل مديرًا كبيرًا في إحدى الجرائد الشهيرة. بالطبع كانت الرحلة بأكملها دعوة من الجريدة، وتقرر أن ينضم للرحلة أيضًا، صحفي عجوز في الثمانين من عمره، ورجل أعمال، وخبير اقتصادي كبير السن. وعندما سمعت كازو تلك التفاصيل، لم تفهم لماذا دعاها نوغوتشي إلى تلك الرحلة شبه الرسمية.

ولأن الأمر يتعلق بنوغوتشي الذي يضع حدودًا فاصلة بين العامِّ والخاص، لا يمكن أن يكون نوغوتشي دعا كازو للانضمام للرحلة صامتًا دون أن يخبر رفقاء الرحلة. ولكن إذا كانا سيذهبان على حساب نوغوتشي الخاص، فمن الأفضل لهما الذهاب إلى مكان آخر، وما من سبب يُحتِّم عليهما الذهاب إلى مكان ملحوظ تمامًا لهؤلاء الرفقاء. لقد سمعت كازو من قبل عن طقس النار المقدَّس من أحد الأصدقاء، فحتى لو كانا الاثنان أخذَا مسارًا مختلفًا عن مجموعة الجريدة فعلى أي حال سيضطران إلى التلاقي معهم ليلًا في قاعة الشهر الثاني.

علاوة على ذلك، كان تحميل نوغوتشي عبئًا اقتصاديًّا كبيرًا يؤلم شعور كازو. وكانت تَكره كذلك أن تشعر بالرُّخْص أمام أصدقاء نوغوتشي من تلك النوعية. لا تَمل أو تتعب كازو بصفتها مالكة مطعم، من التعامل مع صاحب سلطة مَهما كان، ولكنها تَكره أن تضطر للمجامَلات الاجتماعية الخاصَّة بالعمل مع هؤلاء الناس بصفتها الشخصية.

ظلَّت كازو تضع الافتراضات هنا وهناك فقط، وهي مغتاظة من أن نوغوتشي لم يفسر لها أي شيء. وأخيرًا حَسمت أمرها، وزارت نوغوتشي ومعها مائتا ألف ين في مظروف نقدي. كانت تنوي أن تقدمها له على أنها تكاليف الرحلة.

كانت كازو معتادة على أن مشاهير السياسيين يَقبلون المال النقدي بلا حساسية. فقد أعطت غينكي ناغاياما من قبل مائة ألف، ومائتي ألف، بل وما يقارب مليون ين على سبيل المصاريف الشخصية.

ولكن اختلف الأمر في حالة نوغوتشي؛ فكان ذلك المال سببًا في أول مُشادَّة لفظية بينهما. وعندما سمعت منه جيدًا عرفت أن نوغوتشي في الواقع يفكر في أمر تلك الرحلة بمنتهى البساطة.

«أجرة القطار والفندق الخاصة بك سأدفعها أنا. والخاصة بي مُتضمَّنة في الدعوة. عندما قلت لهم إنني سأصحب معي مالكة ستسوغوان فرح الجميع، وقال الداعي إنه سيضمك لأصل الدعوة ولكني رفضتُ وأصررتُ على تحمُّل نفقاتك. هل أصبح الأمر هكذا مفهوما لكِ؟»

– «حسنًا، أنا من ناحيتي كنتُ أريد في أول رحلة لنا أن نذهب بمفردنا إلى مكان هادئ.»

– «حقًّا! ولكني كنت أريد أن أقدمك لأصدقائي.»

بهذه الكلمة، فجأة هدأ الشجار الطويل الذي استمر بينهما. تأثَّر قلب كازو بشدة، واستمتَعت في سعادة بمشاعر هذا الرجل النَّقي الذي لا يعرف تجميل مشاعره المتباهية.

– «حسنًا سأفعل ما ذكرتَه، ولكن مقابل أن أرافقكم في تلك الرحلة دعني أدعو الجميع على مأدبة طعام في ستسوغوان بعد الرحلة. ما رأيك؟»

– «هذه فكرة جيدة.»

وافق نوغوتشي على ذلك بهدوء تام.

من أجل أن يَستقلَّا قطار «تسوبامه» الذي ينطلق في الساعة التاسعة من صباح يوم السبت الثاني عشر، وبعد أن تَجمَّع الحشد جميعًا في محطة طوكيو المركزية للقطارات، اندهشت كازو أن نوغوتشي بدا أصغر عمرًا بدرجة كبيرة. وكان ذلك أمرًا طبيعيًّا؛ لأنه بين خمسة رجال كان ثلاثة منهم قد تخطى عمرهم السبعين عامًا.

وكانت كازو قد قامت بتدبير أمور متعدِّدة خاصة بالكيمونو الذي ارتدته في تلك الرحلة؛ وذلك لأن تلك الرحلة هي أول إعلان على الملأ للعلاقة بينها وبين نوغوتشي، فكَّرَت أن تظهر اسم نوغوتشي بأي شكل على الكيمونو. ولكن رغم ذلك فاسم العائلة الخشن ذلك، ليس به حرف يمكن أن يصبح رسمة إلا حرف «نو» بمعني المرعى فقط.

استعدَّت كازو مبكرًا، وبعد تفكير طويل في أفكار عديدة، رأت أنه حتى لو لم يفهم أحد أن التصميم له علاقة باسم نوغوتشي، فيكفي أن تعرف هي فقط ذلك، صبغت على قماش كريب أسود مساحة بيضاء وتحتها زهرة الهندباء ونبات الكنباث، وأظهرت هناك «مرعى» محاط به ظلال بأرض ذهبية. وربطَتْه بحزام بتصميم حلقات من الغيم مع رباط مختصر بلون أصفر فاتح يناسب السفر.

كان الجميع يُكنُّون عظيم الاحترام للعجوز الأشيب الثمانيني، وهو ممن يُطلَق عليهم الذين فَتحوا طريق الصحافة في اليابان. فهو يحمل درجة الدكتوراه في القانون، وترجم أعمالًا عديدة من الأدب الإنجليزي، وكان ذلك العجوز الأعزب ساخرًا على الطريقة الإنجليزية، ومؤيِّدًا لكل تَقدُّم يحدث في المجتمَع، ولكنه معترِض بِشِدة على قانون إلغاء البغاء فقط، وكان يدعو نوغوتشي بصيغة التقريب. أما رجل الأعمال المتقاعَد فهو شاعر هايكو حر، بينما كان المحلِّل الاقتصادي يصب اللعنات والسُّباب على الناس جميعًا.

كان الجميع عجائز لطيفي المَعْشَر، لم يَتعمَّدوا تجاهُل كازو تمامًا ولم يَتعمَّدوا كذلك إظهار اللُّطف معها بدون داعٍ، واستمتعَت كثيرًا بصحبتهم حتى نارا. بعد أن أعطى الخبير الاقتصادي تقييمه لرجال عالَم الاقتصاد الياباني واحدًا بعد آخر واصفًا إياهم، غبي، بلا موهبة، جاهل متفاخِر، انتهازي، متخلِّف عقليًّا، مجنون، مُدَّعٍ، أَهوَج، أعظم بخيل في التاريخ، أحمق، مريض بالصَّرع ... إلخ. تَحوَّلت دَفة الحديث إلى شِعر الهايكو.

فقال العجوز الثمانيني:

«أنا لا يُمكنني حَمْل رأيي حول الهايكو إلا ما يَحمِله الغربيون.»

ثم أَكمَل بما يلي معتمِدًا على ما يملك من ذاكرة قوية وموسوعية:

«في مقالة الكاتب توراهيكو تيرادا المسماة (أحاديث مطولة عن الهايكو) يحكي فيها أن أحد علماء الفيزياء الألمان الشباب جاء في زيارة إلى اليابان، فأصبح خبيرًا في الشأن الياباني، وتفاخَر عند أصدقائه اليابانيين قائلًا لهم إنه ألَّف شعر هايكو. والهايكو كان كما يلي:

«في كامامورا الكثير من طائر الكركي.»

إنه بالفعل يتبع طريقة الهايكو في عدد المقاطع خمسة-سبعة-خمسة؛ ولأنه ما من اختلاف كبير مع هذا، فلقد ألَّفتُ شِعر هايكو بعد أن سمعتُ حديث صديقنا «ر».»

«عالم السياسة، وعالم الاقتصاد، يمتلئان بالأغبياء.»

ضحك أغلب الحضور، ولكن لو كانت تلك المزحة خرجَت من فم شاب، فعلى الأرجح أن أحدًا لن يضحك. كانت كازو أثناء حديثهم عن الهايكو، في حيرة أتخلع مِعطفها في عربة القطار تلك الدافئة أم لا؟ وأخيرًا انتهى الحديث عن الهايكو.

انتقل الحديث إلى التنافس حول إلى أي درجة يملك أحدهم ذاكرة مؤكدة ودقيقة. وعند سماعها لذلك بتركيز أَحسَّت كازو أنه يشبه إلى حدٍّ ما حديث شباب يتنافسون بغرور في معرفتهم عن النساء. دقة غير ضرورية، تعليق مُفصَّل غير ذي حاجة، ومحاوَلة رعاية مشاعر الآخر حتى في تلك الأمور بشكل متعمَّد. مثلًا لو الحديث عن أمر في العام الثاني عشر من عصر شوا، على العكس يقول الشاب:

«حسنًا، كان ذلك في العام العاشر أو الثاني عشر تقريبًا.»

ويُنهي الأمر على ذلك، نجد أن العجوز يصل به القول حتى:

«حسنًا، كان ذلك في العام الثاني عشر الشهر السادس واليوم السابع بالتأكيد. أنا متأكد أنه كان اليوم السابع. وأعتقد أنه كان يوم سبت؛ لأنني تركت عملي أبكر من الوقت المعتاد.»

وكلما غَطَّت الحيوية على الحوار، تزداد الجهود التي تحاول القتال باستماتة واستبسال، وفي النهاية تشبه مثل تلك الجهود الحيوية ظاهريًّا. ولكن كان نوغوتشي استثناءً حتى في هذا الأمر. لم تفهم كازو ما هو الاهتمام الذي يجعل نوغوتشي يحب مخالطة هؤلاء الناس، ولكنه كان محتفظًا «بشبابه» بينهم في وقار. كان يُجاري الحوار بإيماءات الموافَقة التي لا تتغير، وعندما يصبح الحوار مملًّا، يَعُد بعناية حَبَّات البرتقال التي قَشَّرها، ويقسمها نصفين متساوِيَين، ويُعطي كازو نصف العدد بالتمام. ولكن حَبَّات البرتقال أحجامها غير متساوية فحتى لو اقتسم معها نفس العدد، يكون الحجم الذي يعطيها إياه أصغر من النصف. تَحمَّلت كازو كتمان الضحك، وتأمَّلَت بعمق تلك البشرة الرقيقة التي بلون قمر الشفق التي شُد عليها بتعصب لحم الفاكهة، ذات التجاعيد الكثيرة.

ركب الوفد بعد الوصول إلى أوساكا في الساعة السادسة والنصف مساء، السيارة التي جاءت لاستقبالهم على الفور، وتَوجَّهوا مباشرة إلى فندق نارا، ولم يكن لديهم وقت للراحة حتى تَجمَّعوا مرة ثانية للتَّوجُّه إلى قاعة الطعام. كان درجة الحرارة في نارا دافئة دفئًا غير طبيعي. كان من المتوقَّع في العادة أن تهب مَوجة برد قاسية في موعد طقس النار المقدَّس؛ لذا سعدت كازو بتلك الليلة الدافئة مع العجائز.

يبدأ مهرجان طقس الطابق الثاني في قاعة الشهر الثاني بمعبد طودايجي أو ما يُسمَّى طقس النار المقدَّس في الأول من مارس من كل عام. ولكن يصل المهرجان إلى ذروة الطقوس الروحانية بطقس دوران سلال الصنوبر المشتعل في ليل الثاني عشر حول المعبد، وطقس تَناوُل الماء المقدَّس وطرد الأرواح الشريرة في صباح الثالث عشر. ويكون أكبر عدد للزوار في ليلة الثاني عشر تلك.

بعد تناوُل العشاء، أسرع الوفد بالذهاب إلى قاعة الشهر الثاني، واندَهشوا من حَجم العدد الهائل من الناس الذين تجمَّعوا بالفعل أسفل القاعة. بدَا كما لو أنهم جماهير تجمَّعَت بأمل حدوث حادث غريب أكثر من أنهم تجمَّعوا لطقس ديني.

اقترب وقت بداية طقس دوران سلال الصنوبر المشتعل، فقاد الرهبان الوفد إلى أماكنهم، تحت مسرح قاعة الشهر الثاني، فذهبوا وهم يخترقون جموع الجماهير المحتشِدة في ظلام الليل. جذب نوغوتشي يد كازو، وتقدَّم دون أن يُلقِي انتباهًا إلى موضع أقدامه الخطرة، وكان على العكس تمامًا عندما لم يستطع عبور طريق السيارات في أوينو، فيبدو أنه يخاف من السيارات ولكنه لا يَأبَه بالناس. كان موقفه وهو يخترق القُروَيِّين مُفرِّقًا إياهم فيه وقار وهيبة.

أُرشِد كبار الضيوف حتى حدود تسوير الخيزران التي شُبكت من أجل أن تَمْنَع الحشود من الانهيار مثل جبل جليد. كان ذلك المكان يَتَّصل تمامًا أسفل سُلَّم الدرجات الحجرية وممر الظهور من خلال تعريشة من الخيزران أمام عيونهم مباشرة. كان العجوز الثمانيني قد أُرهق بشدة من تلك الطريق الصعبة، فأمسك بالتعريشة وتَنفَّس الصُّعداء، وكان مدير الجريدة يقلق عليه بشدة، فأحضر مقعدًا يُطوى خصوصًا للعجوز.

أما كازو فقد ضاع خُفُّها هباء. كان غارقًا في وَحل الأرض المائلة المليئة بالحشائش الذابلة بعد ذوبان الصقيع. وحاولَت أن تحمي قدميها ولو قليلًا، أمسكت كازو كذلك بالتعريشة، ودارت برأسها مبتسمة إلى نوغوتشي خلفها. كان وجه نوغوتشي مغلفًا بالظلام. وفوق وجهه في الأعلى بعيدًا، درابزين مسرح قاعة الشهر الثاني المهيب، رُفع عليه إفريز بارز بعمق كبير. الإفريز به من الداخل إشراق سحري، وبين فراغات شجر الأرز المسنن حول القاعة، يبرق عدد من النجوم مثل القطرات.

وكان طقس «رسالة السبع مرات» قد بدأ لتوه. يجري رهبان العطايا الذين يرفعون لأعلى شعلات الصنوبر المشتعل، بهيئة مهيبة شجاعة وخطوات واسعة صاعِدين ثم هابطِين السلالم الحجرية عدة مرات. أعطى الصوت العالي عن كل «إعلان»، الإعلان عن

وقت البخور، والإعلان عن المهمة، والإعلان عن الخدمة ... إلخ، مع شرارات اللَّهب المتساقِطة من الصنوبر المشتعل؛ صدًى مهيبًا للطقوس في عيون الناس الذين لا يعلمون شيئًا عن التقاليد القديمة للبوذية الباطنية القديمة وديانة الشِّنتو الثنائية، فهيئة مثل هيئة رهبان العطايا تلك، التي تبدو وكأنها في غاية الأهمية، وتلك الحركات المكثَّفة العَجِلة، تلك الحركة الموحَّدة، بدت لهم وكأنها علامة على أن فاجعة كبرى على وشك الوقوع. ثم تعطي وحشة ووحدة السلالم الحجرية الخالية من الرهبان ومن المشاعل الصنوبر إحساسًا أنه يجب حدوث أمر ما فوق تلك السلالم الخالية. كازو التي لم تكن من الأصل ذات قلب إيماني عميق، وكانت قليلًا ما يجذب قلبها الأمور الغيبية التي لا تُرى بالعين، ولكنها وهي تَتشبَّث بالعريشة، وتنظر إلى أعلى تجاه ممر المسرح الذي يصل به السلالم الحجرية وقد برزت باردة بيضاء بشكل ضئيل، أحسَّت أن قلبها أيضًا صعد في غفلة من الزمن السلالم الحجرية، ويُرفق في اهتمام بالغ في حضرة عالم الغيب الذي لا يُرى.

كانت امرأة مشرقة مستبشِرة، ولكنها تفكر من وقت لآخر فيما بعد الموت. وعندها يرتبط ذلك بالتفكير في الذنوب والآثام. وعندما أَحسَّت بدفء معطف نوغوتشي من ظهرها إلى جنبها، بُعثت في ذاكرتها العديد من العلاقات العاطفية التي عاشتها في الماضي والتي لم تتذكَّرها أبدًا أمام نوغوتشي حتى الآن. مات رجل من أجل كازو الشابَّة. وغرق رجل في قاع المجتمَع. وفَقَد رجل كل ثروته وجاهه. ومن العجيب أنه ما من خِبرة لدى كازو في تربية رجل عظيم أو جعل رجل ناجحًا. فرغم أنها ليس لديها تلك النِّيَّة السيِّئة، إلا أن أغلب الرجال تَكون العلاقة معها هي نهاية حدوده ثم يسقط في الحضيض.

وصل تفكير كازو وهي تنظر عاليًا كما هي للسلالم الحجرية إلى ما بعد الموت. ما من أرض في أي مكان يمكنها أن تذهب إليها بعد أن انهار مَوضِع أقدامها في الماضي واحدًا بعد آخر. في حالة أن ماتت كما هي الآن، ما من شخص واحد يَتقبَّل عزاءها. عندما تُفكِّر فيما بعد الموت، تجد أنها يجب عليها أن تعثر على شخص يمكنها الاعتماد عليه، وتملك أسرة وتعيش حياة لائقة، ولكن من أجل فعل ذلك، تُفكِّر أنه كما هو متوقَّع يجب أن تصل إلى إجراءات الحب، فلا يمكنها أن تبقى بلا خوف من الذنوب والآثام. كانت كازو حتى خريف العام الماضي فقط، ترى المجتمَع والناس بنظرة رائقة وواضحة وكأنها تنظر إلى الحديقة في أثناء نزهة كل صباح في ستسوغوان، كانت تمتلئ بيقين أنه ما من شيء سيزعجها بعد الآن، ولكنها بدأت الآن تفكر، أَلَا يكون ذلك الوضوح نفسه تحذيرًا من الجحيم؟! ... ثم ما سمِعَته من الراهب الذي أرشدهم حتى مكانهم منذ قليل، أن

تاريخ هذا الطقس كان عبارة عن شعيرة اعتراف لمحو الذنوب وتخفيفها، شعرت كازو أنها تتفهم بما لها من تجربة ذلك.

أخيرًا حدَثَت حولهم همسات بقرب ظهور المشاعل. مشاعل القناديل الاثني عشر التي صُنعت بالفعل، يبدو أنها مُصطفَّة بجوار مبنى غرف الاستحمام. عقدة الجذر لأعواد مشاعل الخيزران تلك واحدًا بعد الآخر، المحيط أربعون سنتيمترًا تقريبًا والطول يبلغ سبعة أمتار، وبعد ذلك ملتصِق بها مشعل به كرة لهب قُطرُها مِتر وعشرون سنتيمترًا.

في الجهة الأخرى من تسوير الخيزران، يقف عدد من الرهبان يرتدون الأوشحة الحريرية ذات الديباج الذهبي والياقات المثلَّثة العالية يَصدُّون الطريق، وتحاول كازو التي لم تكن طويلة القامة أبدًا اختلاس النظر على خروج المشاعل من بين أكتافهم، وطلبت من نوغوتشي بصوت خفيض قائلة: «احملني على ظهرك» ضحك نوغوتشي ضحكة غامضة المعنى، وهز عنقه المدفونة داخل اللفاح بعلامة الرفض. وفي ذلك الوقت، صدر صوت انفجار عالٍ، فظهر وجه نوغوتشي بوضوح تحت إضاءة اللهب.

أسرعت كازو بتحويل ناظريها إلى الجهة الأخرى من العريشة. كانت ذلك الصوت هو صدى طقطقة النيران التي أنارت بوضوح حتى الشقوق في الحائط الأبيض التي انعكست صفراء، وحتى خربشة الكتابة حرفًا بحرف. وضع الرهبان ذوو الياقات العالية مِرْوَحة المهرجان أمام وجوههم للوقاية من اللهب العملاق الذي ظهر فجأة أمام عيونهم، فأصبحَت ظهورهم صورة ظِلِّية ظهرت أمام العيون كُتَل النار المتطايرة والأوراق الخضراء لشجر السرو المغروز فيها مشاعل الصنوبر، وظهرت أذرع انعكست عليها النيران للشباب الذين يُدْعَون أطفال الآلهة والذين يحملون على ظهورهم الخيزران العملاق. كَتمَت كازو أنفاسها، وتابعت عيونها بقلق كُتَل اللهب التي تصعد السلالم الحجرية.

صعد «أطفال الآلهة» السلالم الحجرية حامِلين على كتف واحد مشاعل الخيزران التي تصل إلى عشرين مشعلًا. تتساقط هنا وهناك قِطع اللهب قرمزية اللون المتأججة فوق السلالم. وبعد برهة من الوقت، انتقل اللهب إلى عمود من أعمدة الممر فاشتعلت النيران فيه. ثم بعد ذلك صعد راهب ذو رداء أبيض يطفئ تلك النيران بممسحة مُبتلَّة بالماء.

ارتوت عيون كازو بالإثارة والتشويق من تلك الهيئة الوحشية الموحشة للنيران وسط النظرات المتجمِّدة للجموع التي ملأت تمامًا المساحة تحت القاعة. قبضت كازو على يد نوغوتشي بقوة بيدها المليئة بالعرق وهي تصدر في جوف حنجرتها صوتًا مبهمًا.

ثم أخيرًا قالت:

«ما رأيك؟! ما رأيك؟! إنه شيء يستحق المجيء حتى نارا من أجله.»

في أثناء ذلك كانت المشاعل العملاقة قد أكملت صعود الممر الصاعد، وترتاح عند الحافة اليسرى لدرابزين ممر قاعة الشهر الثاني. مرة أخرى تَردَّد صدى صوت طقطقة النيران عاليًا بجوار أذن كازو. فقد ظهر حَمَلة المشاعل التالية من أسفل الممر الصاعد.

وفي نفس الوقت تهتاج نيران المشاعل التي فوق المسرح بجنون مثل أُسود جامحة ترقص وتدور، وتسقط شظاياها الكثيفة فوق رءوس الجماهير المحتشِدة. ثم بدأت النيران تجري متوجِّهة إلى الحافَّة اليسرى لأعلى الممر، فأنارت الجزء الداخلي من الإفريز الواسع بألوان النيران الحمراء. ثم خَفت قليلًا حدة اشتعال المشاعل عندما دارت عند الحافة اليمنى للدرابزين، مرة أخرى عادت مشاعل أشجار الأرْز التي على شكل حِراب ذات اللون الأخضر الداكن ببهرجة بارزة وهي تقذف كُتَل النار الهشَّة.

الآن برزت الجماهير المحتشِدة التي كانت قد غرقت في الظلام، ظاهرة، واختلطَت بسطح صراخات الصلوات العالية الصوت. وفوق رءوسهم استمرت كُتَل اللَّهب الهشَّة في السقوط مثل رمال ذهبية، وخَيَّم عليهم مهابة ووقار المبنى المعماري الغارق في السواد لقاعة الشهر الثاني.

«ما رأيك؟ ما رأيك؟»

كرَّرت كازو ترديد ذلك. وعندما انتبه لها نوغوتشي، كانت كازو تبكي.

كان الفجر قد اقترب بعد العودة إلى الفندق. لم تحتمل كازو الانتظار بعد طقس النار المقدَّس، حتى طقس تناوُل الماء في الصباح الباكر. بعد العودة إلى غرفة الفندق، سمعَتْ أصوات صياح الدِّيَكة تأتي من مكان بعيد خارج النافذة، ولكن لم تكن السماء قد أشرقت بعد.

قال نوغوتشي إنه سيأخذ غفوة نوم سريعة بعد أن يَستحم. كانت عَينَا كازو تَبرُق من الإثارة والتشويق، فقالت إن النوم سيستعصي عليها رغم أنها مرهَقة. خلعَت كازو مِعطفها، لَفَت ظَهر المعطف انتباه نوغوتشي وهي تَشرَع في طَيِّه.

فاقترب نوغوتشي إلى جوار المعطف المفرود فوق السرير تحت مصباح الغرفة الساطع. كان قماش بطن المعطف بلون العنب القرمزي، هادئًا وفي غاية الجمال. كان مفرغًا في لون أبيض، وكان مكتوبًا بيد شديدة المهارة بداية بيت شعر هايكو.

فقال نوغوتشي وهو يفك رباطة العنق:

«ما هذا؟»

– «بداية هايكو سوغي. لقد طلبْتُها بصفة خاصَّة من أحد الخطَّاطِين من أجل هذه الرحلة فكتبها لي. وخاصة أننا صرنا بالفعل في فصل الربيع.»

لم تقل كازو إن كتابة هايكو لشاعر سوغي كان اقتراحًا حكيمًا من الحائك.

قرأ نوغوتشي:

«خذي راحتك
عندما تَعلمين أنني أنتظر
يا زهور الربيع.»

أوقَف نوغوتشي يده عن فك رابطة العنق، وظل يتأمل في ذلك الهايكو لفترة طويلة. وأحسَّت كازو بجمال يد ذلك العجوز الذابلة التي امتلأت بالعروق البارزة.

– «لقد فهمت.»

أخيرًا تكلم نوغوتشي. كان هذا فقط تعليقه على الأمر. في نهايات تلك الليلة، أخلد رجل عجوز جاوز الستين مع امرأة في الخمسين في سرير واحد.

الفصل الثامن

حفل الزواج

بعد مرور أسبوع من عودتها من طقس النار المقدَّس، لم تستطع كازو الانتظار، فدَعَت وَفْد الرحلة إلى مأدُبة في ستسوغوان ردًّا لجميل الرحلة. وكانت قائمة طعام تلك الليلة كما يلي:

المقبِّلات:

كُنباث بالسمسم، سلطعون مدخن، ملفوف عيدان الفجل، أنقليس مسلوق، سوشي سمك دنيس ملفوف بورق البامبو

الحساء:

حساء صافٍ بنكهة البرقوق المخلل، حساء دقيق على شكل نجوم، حساء بطعم الثوم المعمَّر، حساء مطحون الخضروات

الساشيمي:

سمك دنيس حي مُقدَّم على لحاء الصنوبر، سمك قاروس مخطط

المشويات:

روبيان مشوي بالملح، عش غراب، فلفل بصوص الميسو

المسلوق:

أعشاب بحرية من ناروتو، جذور بامبو يانعة، مطحون خضروات.

واختارت القاعة الكبرى مكانًا للمأدبة بصفة خاصَّة رغم أن عدد الضيوف كان صغيرًا؛ وذلك لأنها كانت تعرف أن تلك الليلة لا يمكن نسيانها، وستظل في الذاكرة لوقت طويل بعدها.

ظل نوغوتشي وكازو في نارا ليلتين بعد أن عاد قَبلهم الرفقاء الأكثر انشغالًا. زارا العديد من المعابد البوذية، ثم زارا للمرة الثانية قاعة الشهر الثاني التي أُنهِكت للغاية بطقس مشاعل الصنوبر في صباح مُشرق جميل، ثم صعد السلالم الحجرية إياها لكي يرى المسرح. عاد «أطفال الآلهة» الذين قاموا بالعمل حتى تلك الدرجة في يوم المهرجان إلى وجوه القُرويِّين البريئة الساذجة في أيامهم المعتادة، يجلسون فوق درجات السلالم الحجرية يتمتعون بأشعة الشمس. بَدَا المنظر من المسرح تجاه المنحَدَر أسفلهما، مع مشهد الحشائش الذابلة بالضبط مثل الحقول التي شب فيها حريق ثم انطفأت. فبجانب براعم خضراء يانعة نبتت من وهي داخل الأرض تنتشر هنا وهناك جذور أعشاب محروقة تغرق في أشعة الشمس، فتُظهر جذور النباتات النامية بعد الحريق.

في نزهة شبه صامتة تحدَّث نوغوتشي بنبرة حديث عقلانية، وكان الحديث يَتقدَّم أحيانًا ويتأخَّر أحيانًا، وأخَذ بنفسه دفة الحوار إلى موضوع زواجهما. تَلقَّت كازو نِيَّة نوغوتشي بدون أن تجعل العاطفة تسيطر عليها، وشرَحَت رأيها على نحو صريح وواضح. على أي حال لم تَكن لدى كازو نية إغلاق مطعم ستسوغوان. ورغم قول ذلك، فليس من المقبول أن يأتي رجل في وضع يوكِن نوغوتشي ليقيم في ستسوغوان. وفي هذه الحالة سَيُضطران إلى حياة زوجية غير تقليدية. أي تعود كازو في نهاية كل أسبوع إلى بيت نوغوتشي. ويقضي الزوجان نهاية الأسبوع فقط معًا في بيت نوغوتشي. وتعود كازو صباح الاثنين مرة أخرى إلى مكان عملها في كويشيكاوا … كان ذلك هو الحل الوسط الأفضل الذي تَوصَّل إليه الاثنان بعد نقاش وتفكير.

بفصل الهواء النقي في ربيع مُبكِّر، وهدوء المدينة العتيقة، تناقَل الاثنان خطواتهما ببطء شديد، يُحكمان الخطة، وبدَا أن الحل الذي توصَّلَا إليه عقلاني بدرجة كبيرة. وأحسَّت كازو بالدهشة؛ لأن تلك السعادة التي لم تَكن تتوقَّعها لم تحمل لها إثارة واهتياجًا عنيفًا، بل كانت فرحة هادئة.

إن كازو الآن على وشك أن تكون زوجة رجل عظيم. وإن فكرت في هذا الأمر، فهو الحلم الذي كانت تُخطِّط له منذ زمن بعيد ليكون المحطة النهائية برحلة حياتها الطويلة. لقد وُلدت في محافظة نييغاتا، وفَقَدت والديها، وتبنَّاها قريبٌ لها يملك مطعمًا، وهربت مع أول حبيب لها إلى طوكيو، … وفي النهاية حصلت كازو على مكانتها الحالية بعد معاناة ومصاعب عديدة. كانت كازو ما إن تعقد العزم في قلبها على شيء تحمل داخلها يقينًا أنها ستحققه بالضرورة في وقت ما. ومع أنه يقين غير منطقي بتاتًا، ولكن خلال حياتها حتى الآن، تَحرَّكَت تمامًا طبقًا لذلك اليقين مَهما كانت العقبات.

كانت كازو قد حقَّقَت كل رغباتها، وكان موقفها الآن أن ذلك اليقين قد استَنفَد غرضه حتى الآن حتى خريف العام الماضي، ولكن بعد أن تقابَلَت مع نوغوتشي، اندهشَت لاشتعال قلبها بشكل لم تكن تتوقَّعه، وانتبهَت أن ذلك اليقين ما زال له فاعلية لم تستخدمها بَعد.

وكان التطابق العجيب لحماسها مع ذلك اليقين سببًا لأن تعاني كازو من سوء التفاهم مع المجتمَع لوقت طويل بعد ذلك. لا يجب القول إن حماس كازو تجاه نوغوتشي كان سببه النفعية. ولا يجب كذلك القول إنها كان تسعى إلى الشهرة. على العكس كان حبها لنوغوتشي طبيعيًّا وأثناء ما كانت كازو تتصرف بطبيعتها التلقائية، كان الحلم الذي لم تتعجَّل في تحقيقه عنوة، يكتمل أمام عينها. لم يكن الأمر إلا مجرد أن الخمر الذي ظَلَّت تحلم به أثناء تخميره نتج بطعم يوافق ما حَلم به قلبها.

ولكن عندما أظهرت كازو، الصادقة مع نفسها أكثر من اللازم، سعادة تلقائية وبريئة من زواجها بنوغوتشي، تولَّد سوء الفهم. كانت يجب عليها أن تَقبل عَرْضه الزواج منها ببعض الحزن.

كانت ليلة الثاني والعشرين من مارس دافئة بالفعل، أتى نوغوتشي مبكِّرًا وتناقَش مع كازو حول كيفية استقبال الضيوف. حتى في مثل ذلك الوقت جلس نوغوتشي على مقعده في هدوء ويعطي تعليماته إلى كازو التي تجلس بجانبه ولا يبدو على وجهه اهتمام.

بعد أن أظهرت كازو قائمة الطعام لنوغوتشي قالت ما يلي:

«اليوم سأُقدِّم طبقًا خاصًّا غير مذكور في هذه القائمة. وهو متعلِّق بطقس النار المقدَّس، سيكون طعامًا ثقيلًا، وتقديمه فيما بعد ربما يكون سببًا في أن الضيوف لا يأكلونه، وسيكون ذلك مأزقًا، ولكن حتى لو قلنا ذلك، فمن الأفضل أن يكون إعلام الأمر إيَّاه على الملأ بعد انتهاء العشاء.»

– «وما هي العلاقة بين إعلاني الأمر وذلك الطعام الخاص؟»

سأل نوغوتشي ذلك السؤال بقليل من الشك، وهو يفتح بسيخ تقليب الفحم فتحة عشوائية في الرماد الذي في مجمرة الفحم ذات الخطوط الجميلة.

«أليس كذلك؟»

هكذا قالت كازو وهي تخاف من رَدَّة فعل نوغوتشي المعتادة، ثم أكملت: «عندما تتحدث عني والجميع يستمتع بذلك الطعام، هو في الواقع أمر أنيق، وأعتقد أن مفعوله سيكون كاملًا.»

– «هل تريدين مني التمثيل أمامهم؟»

– «لا، ليس هذا ما أريده. ولكنها فكرة. أليس هناك فكرة لحفلات الشاي؟»

– «ألا ينتهي الأمر على خير من دون البحث عن كل تلك الإثارة؟! حتى أنا! الوضع أنني سأقول ذلك الأمر لهؤلاء الذين هم موضع ثقتي المطلَقة من أصدقاء، وأتعامل معهم باسترخاء وبدون أي حساسية. وإذا استهدفت البهرجة والإثارة فلن يبدأ شيء.»

اقتنعت كازو أن الوقت هو وقت حَذَر ويجب عليها التراجع.

«حسنًا لنفعل ما تقوله. سأقدم القائمة بداية من المشهيات تدريجيًّا، وأنا أفكِّر فقط في درجة امتلاء بطونهم.»

وعندها أعلنت الخادمة عن حضور العجوز الثمانيني صاحب المنصب الرفيع في الجريدة.

استقبلت كازو الضيف المهم بوجه باسم وبشوش للغاية. ولم تأبه إلى نوغوتشي الذي تُرك مشدوهًا مذهولًا من براعتها في إزالة الوجه النفسي عَمَّا كان عليه حتى الآن ووَضْع وجه مختلف في لحظة زمن.

دخل العجوز الثمانيني إلى القاعة الكبرى مُنتصِب القامة يُدلي من إحدى يديه حقيبة مصنوعة من القماش كما هي عادته، ويغطي شعره الأبيض الرائع أذنيه، ويرتدي هاكاما مع معطف تقليدي. ويبدو مدير الجريدة عندما يتعامل مع ذلك الرجل وكأنه يشعر بتحقيق هدفه في الحياة وهو يلعب دور الخادم المخلِص له.

«أهلًا يا نوغوتشي. لقد كانت رحلتنا السابقة معًا ممتعة.»

قال العجوز الثمانيني ذلك وجلس على الفور في المقعد الرئيس؛ وذلك لأنه ما من أحد غيره يستحق الجلوس في ذلك المقعد. وبعد أن جلس مباشرة، حول دفة الحديث بعيدًا تمامًا عن رحلة نارا، فتكلم عن محاضرة «تاريخ الصحف في اليابان» التي حضرها جلالة الإمبراطور أمس وكانت إحدى أمنيات العجوز.

قال العجوز الثمانيني: «بالطبع لم يكن من الممكن شرح جميع التفاصيل في ذلك الوقت القصير. كما المتوقع كان ما اهتم به جلالته بشكل خاص هو الحديث عن عصر ميجي. كان الأمر بالنسبة إلى جلالته يسبب أزمة إذا كان عصر ميجي يبدو في صورة الماضي الجميل أكثر مما نعتبره نحن بكثير.»

«لا بد أن السبب أنك يا أستاذ شرحتَ الأمر على أنه ماضٍ جميل.»

«على كل حال إن لم يعتقد جلالة الإمبراطور الحاكم أن الوضع الحالي هو الأعلى والأفضل، فلن يكون المستقبل واعدًا.»

وأثناء الأخذ والرد في هذا الموضوع اكتمل عدد الضيوف، وبدأ قدوم الخمر والمقبلات. وكانت كازو قد بعدت عن المكان لفترة. وأخيرًا ظهرت كازو جاعلة عاملتين تحملان صواني كبيرة ومما أدهش الضيوف أن فوق تلك الصواني نيران زرقاء مشتعلة. ثم قالت رسائل صوتية:

«إنها مشاعل الصنوبر في قاعة الشهر الثاني.»

وما تم حمله فوق المائدة كان أطعمة تقليدية رائعة تَسرُّ الناظِرين، والمشاعل التي كانت بعدد الضيوف، مصنوع جزء الخيزران من لحم الدجاج، وجزء الصندوق المشتعل مصنوع من طيور مشوية صغيرة رُش عليها نبيذ قوي لينطلق منها لهب، ووزعت حولها أوراق خضروات جبلية لتعبر عن جبال نارا في الخلفية. وعلاوة على ذلك هناك لافتة صغيرة أمام قاعة الشهر الثاني لتخبر الفرسان بضرورة الترجل.

أجمعت أفواه الضيوف على مدح تلك الذائقة، وقال رجل الأعمال إنه استطاع أن يشاهد طقس النار المقدس مرَّتين هذا العام، وعلى الفور ألَّف بيت شعر هايكو ارتجاليًّا على هذا الموضوع. كانت كازو تنظر إلى وجه نوغوتشي من وقت لآخر.

كانت ملامح وجه نوغوتشي في ذلك الوقت أبعد ما تكون عن مشاعر السعادة. كان ذلك الوجه يُقاتل كرًّا وفرًّا، كانت نظرته التي رَدَّ بها على نظرات كازو أقرب — على الأغلب — إلى نظرة كراهية. ولكن تحمَّلَت كازو نظرات ذلك الرجل، واستمتعت بتلك السعادة في خبث مطمئنة تمامًا. وذلك لأنها تعلم جيدًا أن نظرة الكراهية تلك لها علاقة فقط بكبريائه الصغير الذي يدعوه إلى عدم الانصياع لما تقول.

وقفت كازو فجأة وغادرت القاعة. وتظاهرَت بأنها تسير في الممر مبتعدة ولكنها اختبأت خلف باب القاعة المجاورة.

وأخيرًا تردَّد صدى صوت نوغوتشي قادمًا إليها من القاعة الكبرى. وكانت تلك الكلمات هي التي تنتظرها كازو بأمل.

«لدي كلمة أريد أن أقولها للحضور الكريم هذه الليلة، في الواقع لقد قررتُ الزواج من مالكة هذا المكان كازو فوكوزاوا.»

قطعت ضحكات العجوز الثمانيني الأعزب لحظة الصمت التي خيمت على الضيوف.

«لقد كنتُ أعتقد يا نوغوتشي أنك أنت فقط الذي يشبهني في عبقرية فن الحياة، ولكن من المفرح أن ذلك كان تقديرًا مبالَغًا مني تجاهك ولم تكن عبقريًّا بالمرة. حسنًا، لنشرب نخب ذلك. أين ذهبت السيدة المالكة؟»

بعد أن زعق العجوز الثمانيني بصوت عال، وبَّخ مدير الجريدة قائلًا:

«يا لك من كسول! أسرع بالاتصال بالجريدة. إن هذا انفراد صحفي لجريدتنا.»

– «تعاملني معاملة محرر صغير مهما مرت السنين، أليس كذلك؟»

ضحك الجميع على ذلك التعليق، وعلى الفور ساد الجميع شعور بالسكينة والسلام؟

زعق العجوز مرة ثانية:

«أين ذهبت السيدة كازو؟»

لم تسمع كازو أثناء الرحلة زعيق العجوز بهذا الشكل من قبل ولا مرة واحدة، ولكنها قرأت من خلال ذلك الصوت أنه يريد إظهار روح الجموح العشوائي لطالب مدرسي في عصر ميجي البعيد. وعندما عادت كازو إلى القاعة الكبرى أخيرًا، كانت على وشك الاصطدام بمدير الجريدة الذي هرع للاتصال بالجريدة. مدير الجريدة صاحب السلوك الراقي عادةً؛ قرص كَتِف كازو المتلئ وهي تمر بجانبه ثم ذهب مسرعًا.

نُشر ذلك الخبر في الجريدة صباح اليوم التالي. وعلى الفور جاءت مكالمة هاتفية من غينكي ناغاياما. فألقى على كازو تحية الصباح بصوت يبدو عليه المرح كما هي عادته: «صباح الخير. لم نلتقِ منذ فترة. هل أنتِ بخير؟ حقًّا! حقًّا! بخصوص خبر الجريدة هذا الصباح، خبر كاذب أليس كذلك؟»

صمتَت كازو أمام سماعة الهاتف.

«إممم! ... بخصوص ذلك ثمة ما يجب التحدُّث معكِ بشأنه. أَلَا تأتين إلى مكتبي الآن؟»

ذكرَت كازو أنها لا تقدر بسبب مشاغل لديها، ولكن مثل تلك الحجة لا يمكن أن يقبلها غينكي.

«إن الذي لديه مشاغل هو أنا. ولكني سأُخصِّص وقتًا من الآن من أَجلِك ويجب عليك المجيء. مكتبي الذي تعرفينه في بناية مارونوؤتشي.»

كان غينكي يملك ما يمكن أن يُطلق عليه مكتبًا في كل مكان. وكان ما قاله عبارة عن غرفة ضيافة في مكتب أحد أصدقائه. ولكن الأمر العجيب أن مثل ذلك «المكتب» مثله

مثل غرف رؤساء الشركات كان يمكن له تنفيذ أمور عدة من خلال جرس صغير مُلحَق بتلك الغرفة، وفي أي مكتب من مكاتبه كان غينكي يستغل الناس بخشونة طاغية. كانت كازو تعرف مكتب بناية مارونوؤتشي القديمة؛ لأنها ذهبت إليه عددًا من المرات. كان المكتب عبارة عن غرفة ضيافة في شركة كبرى للثروة السمكية، وكان رئيس الشركة من نفس بلدة غينكي.

كانت الأمطار ذلك اليوم تُمطِر مطرًا باردًا خفيفًا في بداية الربيع. عندما مشت كازو في الطابق الأرضي من بناية مارونوؤتشي القديمة المكون من محلات تجارية تُعطي شعورًا بظلام خافِت مُريب، ورأت كازو الممر الذي ابتل من قطرات ماء المطر التي تسقط من مظلات الناس يلمع في وِحْدةٍ مُوحِشَةٍ. وينبع إحساس بالكآبة والجفاء من الناس الذين يسيرون داخل الممر مُرتَدِين معاطف المطر كما هي. أحسَّت كازو بالغبن؛ لأن الفرحة التي فرحتها بقراءة خبر الجريدة في الصباح لدرجة تقديمها العطايا لمذبح الآلهة، تزول بهذا الشكل في طرفة عين بسبب رجل هي التي تُمدُّه بالمال. لقد كانت تعطيه ذلك المال بسبب إلحاحه دون أن تطلب أي مقابِل.

أثناء صعودها في المصعد الكهربائي كانت مشاعر كازو مُحبطَة ولكن عندما قابلت وجه غينكي الضاحك الساخر، فَقدَت كل ضغينة وعاد إلى وجهها الإشراق. الآن تُقابِل كازو ذلك السياسي الشهير الذي يحفل يومه بالأشغال والمهام لأمر شخصي، كان ذلك الوقت من صباح اليوم مَبعث سرور لها.

قال غينكي فجأة:

«إن كل ما تُفعَلِين ليس به أي عقل. تجيئين برجل فجأة إلى المنزل بدون أي إذن من والدك.»

«حقًّا! ألم تكن أخي الأكبر فقط؟! ولكن سواء أب أو أخ أكبر، فأنا بالفعل قد بلغتُ من العمر ما لا يجعل لك رخصة لوعظي بشيء. يجب عليَّ أن أنبهك لذلك مسبقًا.»

كان ردًّا لا يتناسب مع ما تكون عليه كازو دائمًا؛ حيث علا صوتها قليلًا وبرزَت به خلاعة لا داعي لها. لم تنقطع الابتسامة من على وجه غينكي السميك الذي وكأنه صُنع من لصق قطعة صلصال من اللحم، ثم قال وهو يفرك بحكم العادة التَّبغ في السجائر المطوِيَّة في يده بعناية:

«لا يجب التسرُّع الآن، فلقد تأخَّر وقت الزواج بالفعل.»

– «أجل. لقد تأخَّرتُ عشرات السنين.»

بعد هذا الحوار المليء بالدعابة، توقَّعَت كازو أن يقول بشكل متزمِّت للغاية: «هل حقًّا وقعتِ في غرامه؟» وإن حدث ذلك من المؤكَّد أن كازو ستجيب بمرح وسعادة: «أجل» ماذا سيقول غينكي يا تُرى بعد أن يتفهم كل شيء من خلال ذلك الرد؟ ... ولكن رغم ذلك لم يُحرِّك غينكي ساكنًا ولم يقل شيئًا.

كان غينكي رجلًا كثير الحركة لا يهدأ. حصرًا على ذلك الرجل، فكازو لا تعرف على وجه الدِّقة متى يجب عليها إشعال سجائره. في العادة يجب عليها أن تجهز علبة الثقاب والثقاب في يدها، ثم بمجرَّد أن يضع الرجل السيجارة بين شفتيه تحكُّ الثقاب بعلبة الثقاب ثم تُقرِّب اللهب برفق من السيجارة لتشعلها بهدوء؛ فتبدو وكأنها اشتعلت بشكل طبيعي وتلقائي، ولكن عندما يكون الطرف الآخر هو غينكي، مَهما فعلَت لا تتناسب أنفاسهما معًا في تلك الحركة. فدائمًا يمسك غينكي شيئًا ما يلعب به بطرف الأصبع الغليظة التي بها أظافر تشبه الزعانف. ويكون ذلك الشيء أحيانًا سيجارة، وأحيانًا قلم رصاص، وأحيانًا أوراقًا، وأحيانًا جريدة. وفي ذلك الوقت يملك عيونًا بريئة لا تستقِر على هدف مثل عيون الأطفال الرُّضَّع، أطبق شفته الغليظة البُنِّيَّة اللون بميل على أحد جانبيها. كاد أن يضع السيجارة الملفوفة بعد أن دُعست كثيرًا واعوجت بين شفتيه، ولكنه أعادها لمكانها السابق.

ثمة نافذة واسعة خلف ظهر المقعد الذي يجلس عليه غينكي، تُظهر بنايات حي الأعمال تحت الأمطار. وفُتحت الستائر الثقيلة ذات اللون الأخضر الغامق المصنوعة من الساتان المشجَّر على الجانبين. تبدو إضاءة مصابيح النيون المضاءة منذ الصباح في نوافذ البناية المقابِلة، تخترق الأمطار لامعة مكشوفة وقريبة من العين بشكل غريب.

«ولو قلتِ إنك ستتزوجين من يوكِن نوغوتشي، ماذا ستفعلين في المطعم؟»

– «سيستمر المطعم في العمل كما هو.»

– «هذا غير مقبول. ففي وقت ما سيحدث تصادم بين نوغوتشي وبين المطعم. فعلى الأغلب كان ستسوغوان وحتى الآن هو المطعم المفضَّل لسياسيِّ حزب المحافظين وأنا أوَّلهم، فإن أصبحَت مالكة المطعم زوجة مستشار حزب الإصلاح سيكون الأمر مريبًا.»

– «لقد فكرتُ مليًّا في هذا الأمر. ولكن سأظل كما كنتُ حتى الآن أتلقى عناية حزب المحافظِين، وعلى الجانب الآخر زوجي من حزب الإصلاح، ولا تناقُض في ذلك، حتى الدستور يجعل من الطبيعي أن يُصوِّت الزوجان كل منهما لحزب مختلف عن الآخر.»

– «هذان الأمران مختلفان. ألا تفهمين أنني قلِق على مستقبلك؟ من الواضح لكل ذي عينين أنك سحبتِ الورقة الخاسرة في القُرْعة، وأن ذلك الزواج لن يكون فيه خير لا لكِ

ولا لنوغوتشي. فمن خلال قوتك الذاتية يمكنك التعامل مع أي أعمال ضخمة في المستقبل، ولكنك بذلك تغلقين طريق النشاط الذي أمامك بنفسك. كازو! هل تسمعين؟ إن الزواج مثل شراء أسهم من البورصة، لذلك من الطبيعي أن تشتري الأسهم وهي رخيصة، ماذا ستفعلين بِأَسْهُم لا أمل لها في المستقبل؟ أعترف أن السيد نوغوتشي في الماضي كان عظيمًا، ولكن الآن لو بحثْنَا عن قيمته فأي أحد يعرف أن مالكة مطعم ستسوغوان أعلى قيمة من الوزير الأسبق يوكِن نوغوتشي. يجب عليكِ أن تعرفي قيمتك أكثر من ذلك ... ولكن مجرد الاستمرار فقط في تشغيل ستسوغوان يدل على طبعك الذي لن يتغير، فأنتِ لستِ امرأة تقدر على الانعزال في بيت الزوجة في هدوء وسكينة. تلك هي ملامح شخصيتك.»

– «أنتَ تعرف هذا جيدًا.»

– «أليس كذلك؟ إذا شاهدتِ المرايا كل صباح ستعرفين ذلك ... ولكن ما هي حسابات السيد نوغوتشي يا ترى؟ أليس في نيته استغلالك؟»

ارتفعت الدماء في وجه كازو وصاحت بصوتٍ عالٍ:

«هذا الرجل ليس من صفاته أن يكون عالة على امرأة. ماذا تقول؟ وأنت كما تعرف.»

ضحك غينكي ضحكة سخرية دون أن يُبدي أية بادرة غضب.

«لقد انتصرتِ في ذلك الأمر. فأنا من الأصل عالة ذو مهارة جيدة؛ لأنني آخذ فقط دون أي محبة.»

أخيرًا وضع غينكي السيجارة في فمه. وعندما أشعلتها له كازو، أخذ منها نفسًا وبدأ يُحوِّل دفة الحوار إلى حديث خليع لا يليق. فتحدث عن أن شعر المرأة كيت وكيت.

ولكن عندما أظهر سكرتير غينكي وجهه ليخبره أن الضيف التالي ينتظر، التقطت كازو معطف الكتف ووقفَت. وحتى النهاية لم تتسرب من فم غينكي الكلمة التي كانت كازو تنتظرها في أمل أثناء ذلك اللقاء.

ولكن كان غينكي يُفضِّل إغلاق ستارة المسرح بمشهد عاطفي. فهو يعشق وَهْم أنه يُمسك بقلوب الناس أكثر من أي شيء آخر، فعاد إليه هدوؤُه ووجَّه نظره إلى الأمطار خارج النافذة، ثم عدل وجهته إلى ظهر كازو التي كانت على وشك مغادرة المكان ولم ينسَ أن يقول:

«مهلًا! من المؤكَّد أنك ستُوجِّهين لي دعوة لحضور الحفل، أليس كذلك؟»

تزوج نوغوتشي من كازو في الثامن والعشرين من شهر مايو.

الفصل التاسع

ما يقال عنه «الحياة الزوجية الجديدة»

لم يتوقَّع نوغوتشي، وكذلك كازو أن تحدُث تلك الجلبة والاهتمام من المجتمَع بزواجهما. فلقد كانت كازو بدون أي خبرة سابقة بهجمات مُصوِّرِي الصحف والمجلات عليها، وكذلك اندهش نوغوتشي من أن المجتمَع لم ينسَ أمره بعد. وفي رحلة شهر العسل في فندق غاماغوري، عندما ذهبَا لزيارة معبد ياسوتومي الشنتوي في جزيرة بنتن، كانت كازو على وشك أن تضع في صندوق التبرعات مليون ين كما هي عادتها، ولكن هذه المرة منعها نوغوتشي بصرامة. وكان سبب توبيخه لها هو فقط أنه فِعل مبتذَل، ولكن كان ذلك التوبيخ البسيط به نبرة برود طبقة النبلاء مما جعل قلب كازو يتجمَّد من البرودة.

وعندما عادا إلى طوكيو، بدأ الاثنان حياتهما الزوجية «غير التقليدية». في كل صباح تتصل كازو بنوغوتشي في مكالمة هاتفية طويلة. ولكن رغم ذلك لا تنتهي لديها بذور القلق، فطردت كازو الخادمة المتعلِّمة إياها من بيت نوغوتشي وبديلًا عنها وظَّفَت خادمتين وسكرتيرًا. وقد كان الثلاثة يُمثِّلون خدم كازو الذين تأتمنهم على أسرارها. كانت تستدعيهم في كل صغيرة وكبيرة إلى ستسوغوان وتجعلهم يعطونها تقريرًا مفصلًا عن معيشة نوغوتشي اليومية.

عندما تعود كازو إلى «بيتها» مساء يوم السبت تحمل معها جبالًا من الهدايا. وفي أقل من عشرة أيام امتلأ بيت نوغوتشي بالعديد من الخمور والأطعمة غير الضرورية. كان عودة كازو مزعِجة. تدخل البيت وهي تضرب بيدها على كتفها تشتكي من إرهاق أسبوع كامل، وتشتكي من إرهاق التعامُل مع الزبائن في عملها، وتدور في غرفة المعيشة القديمة التي فَقدَت ألقها، وتقول:

«آه، كما هو متوقَّع، المرء لا يهنأ إلا في بيته. عندما أعود لهذا البيت أشعر بالراحة والطمأنينة.»

ولكن صُدمت كازو عندما سمعت أن الأشخاص الذين ذهبَت معهم في رحلة طقس النار المقدَّس قد قالوا عنها فيما بعد سبابًا مريعًا رغم احتفالهم بها لتلك الدرجة في ستسوغوان بمبادرة من العجوز الثمانيني. قالوا إن كازو أثناء الرحلة كانت تَعتبر نفسها زوجته دون مراعاة لعيون الآخَرين، وإنها كانت تهتم فقط بنوغوتشي وتجاهلَت تمامًا الضيوف الآخَرين، وإنها كانت ترد على العجوز الثمانيني بوقاحة، وأن دعوتهم إلى ستسوغوان ردًّا للجميل، كان عبارة عن إعلان للمطعم في شكل رد الجميل، وإنه لم تكن ثمة ضرورة في أن يكون ستسوغوان مَقرَّ الإعلان عن الزواج، وإنه بذلك أصبح نوغوتشي مسكينًا، ... إلى آخره من الأحاديث التي كانت هي محورها ووصلت لسمعِها. وعندما علمَت كازو ذلك، أحسَّت أن الألم البسيط الذي ظنَّت وقتها أنه ممتِع ومرِح الذي نتج عن قرص مدير الجريدة لكتفها بعد الإعلان، قد تحوَّل الآن إلى كدمة بنفسجية اللون في كتِفها. فوضعَت يديها على كتِفها من فوق الكيمونو ودلكت تلك المنطقة بقسوة.

وقالت تلك الشائعات لنوغوتشي. وعندها غضب منها نوغوتشي غضبًا شديدًا قائلًا إنه صحبها معه في تلك الرحلة وأعلن عن الزواج أمامهم؛ لأنه يثق بهم لأنهم أعز أصدقائه. وأن إخباره بتلك الشائعات يُعتقد به أنها ترش النار على صداقات زوجها. وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي تدرك فيها كازو أن قلب زوجها النبيل ينقصه قوة البصيرة.

وظهر في إحدى المجلات الأسبوعية مقال يسخر من نوغوتشي. ومحتواه أنه إذا كان بَيع نوغوتشي نفسه لحزب الإصلاح بعد الحرب فجأة لم يؤدِّ إلى نجاح في نهاية الأمر، فكذلك هذا الزواج من كازو سيئول لنفس النتيجة. اندهشت كازو لذلك المجتمَع الذي يربط الأمور ببعضها بتلك النِّيَّة الشريرة ولكن نوغوتشي قال لها من الأفضل تجاهُل مثل تلك الأمور، وعلى الأقل كان مَظهره الخارجي رابِط الجأش.

ولكن لم تتغير حياة كازو تغيرًا جذريًّا بعد الزواج؛ كانت قد زينت غرفتها في ستسوغوان بصورة شهر العسل، وأثناء عملها في ضيافة الزبائن تذهب بين حين وآخر لرؤيتها. كانت صورة التُقِطَت في منتصف درجات سلالم حجرية في الحافة الجنوبية من جزيرة بنتن، وكانت قد اصطحبت مصورًا من الفندق خصوصًا لالتقاطها.

ومع أنها صورة قبل شهر واحد فقط، إلا أن منظر كازو فيها تأخذ وضعية كأنها تُظهر الذكريات للناس. وأظهرت الذكريات عبَثها سريعًا. وعندما انتبهت كازو لذلك قاومت قلبها المتعجِّل ذلك، ومع ذلك تركَت للذكريات الحرية لتصبح أكثر جِدة وطزاجة.

وعندما دخلا إلى منطقة أعمق في معبد ياوتومي الشنتوي، ظهر المنظر العام الذي ظل محجوبًا حتى ذلك الحين خلف الأشجار، واسعًا فجأة تحت أشعة شمس بداية

الصيف الساطعة ... وقتها كانت كازو حالتها المعنوية محبَطة بسبب تأنيبها في حادثة النذور؛ لذا أحسَّت أنها أُنقذت فجأة بهذا المنظر المنفتح.

«يا له من منظر رائع! انظر. يا له من شعور مبهج!»

أجابها نوغوتشي على الفور:

«لنأخذ صورة هنا.»

حمل المصور كاميرته فوق درجات السلالم الحجرية مستنِدًا بجسده على شجر صنوبر في حالة تقترب من الخطر، ووقف الزوجان في منتصف السلالم ينظرون تجاه البحر. تقبع أمامهم جزيرة ميكاوا الكبرى، وفي الغرب جزيرة نيشيؤرا وفي الشرق يتألَّق البحر الذي يدور حول جبال كوبو ووديان ميا، في سكينة، وتبدو بين الضَّباب أراضي شبه جزيرتي أتسومي وتشيتا؛ ولذا بدَا البحر كبحيرة أكثر منه بحرًا. وقوى من ذلك الانطباع هذا العدد الكبير من مصايد الأسماك المثبَّتة داخل المياه. وانعدمت الغيوم في السماء، وبدَا اليوم بأكمله كلحظة واحدة من الجنة قُطعت وَوُضِعت كما هي دون جَرح في هذا المكان.

كان المصوِّر شديد العناية بعمله لدرجة فظيعة مما حتَّم على الزوجين الوقوف بنفس الوضعية لفترة طويلة. وفجأة انتبهَت كازو إلى أن نوغوتشي منذ فترة قد تجمد جسده مثل تمثال من البرونز مركِّزًا كل وعيه على الكاميرا بلا انقطاع. كانت تلك هي هيئته التي جُبِل وعاش بها طوال حياته بسبب مطارَدة مصوِّرِي الجرائد له ولا يستطيع التخلِّي عنها. ومن أجل أن تُنفِّس عن مشاعرها من تأنيبها منذ قليل أخرَجَت كازو علبة مساحيق الوجه، ونظرت سريعًا في مرآتها على وجهها، وبالمرة جعلت تلك المرآة تنعكس على خديه المتشنجين من جانب كتف نوغوتشي. سُلطت أشعة الشمس الصغيرة المنعكسة في النهاية على عينَي نوغوتشي بالعرض. انهارت هيئة نوغوتشي بسبب زغللة عينيه، وفي تلك اللحظة ضغط المصور اللماح على زر التقاط الصورة.

... ولكن الصورة التي على مكتب كازو حاليًّا ليست تلك الصورة المنهارة الهيئة. لقد طلب نوغوتشي نيجاتيف الصور بعد ذلك من المصوِّر وتخلَّص من الصور التي لا تروقه. بل هي صورة لزوجين في بداية الشيخوخة، يقفان في هدوء وهما يستمتعان بشمس بدايات الصيف. ويميل جسد كازو ليختفي قليلًا خلف ظل كتف زوجها.

كانت كازو مع أنها امرأة، لا تعرف تعريفًا مبدئيًّا للسعادة.

ومع أنه لم يكن زواجًا بعد تضحيات كبيرة، ولم تذهب كزوجة لبيت غريب، ولم يكن هناك إزعاج من حماة أو أخت زوج، ولكن لم تَحمل لها الحياة الزوجية إحساسًا

حقيقيًّا بالسعادة. بالطبع كانت تشعر بفرحة بالغة عندما تخرج مع نوغوتشي كزوجة له. ولكن عند ملاحَقة تلك الفرحة الاجتماعية بعيدًا تجدُها كازو تتصل بفرحة شنيعة مأسوية تخطر على قلبها وسط حفل زفافها. كانت كازو أثناء الحفل منحنِية الرأس دامعة العينين، ولكنها كانت تفكر كالتالي:

«آه، بهذا سوف أُدفن في مقبرة عائلة نوغوتشي! بهذا اكتملت أرض المعيشة الأبدية.»

اختفَت حديقة ستسوغوان هائلة الحجم من ذهن وتفكير كازو، وبرز بوضوح شاهد قبر حجري صغير له تاريخ عريق؛ ولذلك عندما عادت كازو من رحلة شهر العسل، طلبَت من نوغوتشي الذهاب لزيارة المقابر، ولكن أَجَّل نوغوتشي الذي يَكره زيارة المقابر الأمر بحجج واهية. ولكن في يوم أحد من أيام موسم المطر، عندما بدَت أعشاب منطقة المقابر الناضرة حية ويانعة، اجتمع الزوجان تحت مظلة واحدة، يتبعان حارس المقابر الذي حمل نبات الليسوم الياباني والبخور وكوز الماء.

قالت كازو:

«إن الموتى لن يستطيعوا الراحة بهدوء مع مرور السيارات بهذا المرور المتواصل.»

فقال نوغوتشي:

«من حسن الحظ أن مقبرة العائلة في مكان أكثر عمقًا في الداخل.»

لم تكن المقبرة بالفخامة التي تخيَّلَتها كازو، ولكن أظهر شاهد القبر الصخري الرمادي اللون الذي نُقش عليه شعار العائلة، ما يدل على الفخر من حسب العائلة العريقة. كانت كازو تحب من أعماقها مثل تلك الأشياء. تمتد داخل تلك المقبرة سلسلة نسب تلك العائلة العريقة بلا أي غش أو خداع. انحنَت كازو أمام القبر تحت المظلة التي يمسك بها نوغوتشي وأخذَت تصلي صلاة طويلة لدرجة غير طبيعية.

شكَّل الدخان المرتفِع من حزمة البخور ملتويًا في اندفاع محكم دوائر من الدوامات وسط الأمطار الرفيعة، واختلط بشعر كازو، ثم توقَّف داخل شعرها تائهًا. وسبَّبَت تلك الرائحة القوية ما يشبه دوار السعادة لدى كازو.

يا لها من عائلة عالية النسب جميلة المنشأ! لم تُتح الفرصة لكازو لكي تقابل أحدًا من المتبقِّين على قيد الحياة من عائلة نوغوتشي حتى في حفل الزفاف، ولكنها تخيَّلَت أن من مات من العائلة في منتهى الإخلاص، وأورث ذلك الدم إلى الجيل التالي بدون أي خلفية سوداء مطلقًا. لم يكن الفقر المدقِع ولا الوضاعة ولا الكذب ولا المظهر الدنيء من ممتلكات تلك العائلة. ويُفترض أن تلك العائلة ليس لها أية علاقة ولا معرفة بحفلات

المطاعم الريفية الخليعة، ولا زبائن تلك المطاعم السكارى الذين يَدسُّون أيديهم للمس صدر عاملة صغيرة بريئة، ولا قطار البضائع الليلي الذي تهرب فيه تلك العامِلة مُنزوِية بخجل في ركن منه، ولا الشوارع الخلفية الضيِّقة في المدينة، ولا المداعبات التي تُشترى بالمال، ولا الخدع والحيل الصغيرة المتنوِّعة التي تفعلها من أجل حماية نفسها، ولا قُبلات الرجال المغرورين عديمي المشاعر، ولا الاحتقار المختلط بالألفة، ولا شعور الانتقام المِلح تجاه عدُو مجهول ... ثم بالتأكيد عندما كانت كازو تعمل كخادمة في خلفية المطعم وتغسل مِئزر سيدتها، بالتأكيد كان أحد أبناء عائلة نوغوتشي يأكل طعامًا فرنسيًّا، ويُطعم العصافير التي يربيها في منزله.

إن كازو الآن ترتبط بتلك العائلة، وسوف تُدفَن يومًا ما في مقابرهم التي يضمها معبدهم، وتذُوب في تيارهم، ولا تفترق عنها بعد ذلك، يا لها من راحة وطمأنينة! يا له من خداع نقي للمجتمع! عندما تُدفن كازو هنا سيكتمل الأمان والطمأنينة حقًّا، ويكتمل الخداع. وإن لم يحدث ذلك فمَهما حقَّقَت كازو نجاحًا، ومَهما أصبحت غنية، ومهما نَثَرت الأموال هنا وهناك فلن تستطيع خداع المجتمع خداعًا حقيقيًّا. لقد بدأت في عبور هذا المجتمع بالخداع وفي النهاية تخدع الخلود ذاته. ستكون تلك هي باقة الورود التي تَقذِف بها كازو إلى ذلك المجتمع.

... أخيرًا أبعدَت كازو يديها الملتصقَتَين في الصلاة، ونظرت إلى لوحة الأسماء التي نُقشت على شاهد القبر، ثم سألت نوغوتشي عن أحدث اسم في القائمة:

«ساداكو نوغوتشي رحلَت في أغسطس من عام ١٩٤٦م.»

قال نوغوتشي بوجه صارم:

«إنها زوجتي السابقة. يُفترض أنك تعرفين اسمها.»

كان سؤال كازو عن ذلك الاسم فقط أمرًا غير طبيعي. ولكنها سألت سؤالًا أبعد في لا طبيعيته.

«حقًّا! زوجتك أيضًا دُفنت في تلك المقبرة! لقد نسيتُ ذلك.»

كان صوت كازو مرحًا بدرجة كبيرة، فلقد خرج منها الصوت كما هو بنفس النبرة الحادَّة القوية الممتلئة بالنشاط والحيوية التي تعطي بها توجيهاتها وإرشاداتها إلى عامِلات ستسوغوان؛ ولأن ذلك الصوت لا يُرى به أي قدر من الغيرة، فلم يجد نوغوتشي حيلة من الضحك ضحكة مريرة.

«من الذي جئتِ لزيارة قبره هنا؟ في الحقيقة إنك لا تعرفين أحدًا منهم على الإطلاق.»

قالت كازو بوجه باسم ليس به أي نوع من الكدر أو الكآبة:
«من المؤكَّد أنني جئتُ لزيارة أجدادك وأسلافك.»

وفي طريق العودة من المقابر عَرَّج الاثنان على المدينة للتبضُّع. كانت كازو طوال اليوم تبدو في سعادة، ومن وقت لآخر تبتهج مشاعرها فجأة مسببة لنوغوتشي الذهول.

منذ ذلك اليوم أُخذت كازو بمشاعر طمأنينة واسترخاء عميقة، وشيئًا فشيئًا بدأَت تهمل العمل في ستسوغوان. كان عدد الزبائن قليلًا في فترة الصيف. وأثناء ذلك شَعرَت فجأة كازو بجزع أنها تسير نحو الشيخوخة.

كان الزوجان يذهبان أحيانًا في رحلات لتجنُّب حرارة الصيف، ولكن كانت كازو في تلك الرحلات تبالِغ في مشاعرها. وهكذا كانت تبالغ في مشاعرها فتقع في وحدة شديدة. تريد كازو أن تشعل النيران في الحياة الهادئة التي يريدها نوغوتشي، ولكنها أيضًا تفكِّر أنها ربما تكون خاطئة.

نجحَت كازو في الحفاظ على ارتدائه قمصان بيضاء نظيفة مغسولة دائمًا، ولكنه رفض تفصيل ملابس غربية جديدة رفضًا قاطعًا. إن ارتدى نوغوتشي فجأة ملابس جديدة بعد زواجه مباشرة سيشار إليه بأصابع السخرية من المجتمَع الذي يعرف دخله الفقير. لم تفهم كازو ما هو الأمر السيئ في أن تشتري بفلوسها ملابس جديدة لزوجها، ولكن كان نوغوتشي يعطيها محاضرة متكرِّرة من وقت لآخَر في هذا الخصوص.

«أنت تعتقدين أن أي إنسان يَسعد إن أعطيتِه، لماذا لا تفهمين أن الطرف الآخر يشك في نواياكِ؟ إن وظيفتي وشخصيتي تحتم عليَّ أن أكون بسيط الملبس حائزًا ثقة الناس. يجب عليكِ التخلص من صفات مُحدِثي النعمة.»

كانت كازو تحترم صفات زوجها الشخصية، ولكنها لم تفهم الاختلاف بين ما تراه هي بأم أعينها من سياسة في ستسوغوان وبين السياسة التي يقولها هو، إن كان ما يقوله يتعلق بنفس السياسة. لقد غرس زبائن ستسوغوان من السياسيِّين المحافظِين في ذهن كازو مفهوم السياسِيِّ العظيم ببراعة. السياسي العظيم الذي يتظاهَر بالذهاب إلى المرحاض فيختفي لفترة، أو يُعرِّض جسمه للمدفأة في نقاش متأزِّم وكأنه مباراة شطرنج ياباني، أو يُظهر الابتسام وهو في شدة الغضب، أو يثور ثورة عارمة مع أنه غير غاضب، أو يصمت صمتًا طويلًا وهو يعبث بطرف كُم ردائه، ... أي إنه يفعل ما تفعله فتيات الغيشا. وثمة تَشابُه تامٍّ بين السياسة والعلاقات النسائية في المبالَغة في الغموض والسِّرِّية. إن السياسة التي يفكر فيها نوغوتشي ينقصها الإثارة والجاذبية بشدة.

لقد وقعت كازو في الحيرة بسهولة؛ لأنها حتى وإن أهملَت عملها في ستسوغوان، إلا أن طبيعتها لم تكن تتناسب مع البقاء في البيت تصنع الطعام وتنتظر عودة زوجها. ثم شعرت بابتعاد زبائن حزب المحافِظين عن المطعَم تدريجيًّا. وفي أحد المرات قيل لها وجهًا لوجه من أحد الزبائن ما يلي: «يجب أن يسارع زوجك بترك حزب الإصلاح والانضمام لحزب المحافِظين. وبهذا نحن وكبار رجال الحزب سنرحِّب به كثيرًا، وسيسهل لنا المجيء هنا. يبدو من السَّهل عليكِ إقناعه لو لديك أنت فقط تلك الرغبة، أليس كذلك؟»

كان ذلك الرأي يتعامل مع نوغوتشي بتهاوُن وتقليل من قيمته، وكانت كازو تستمع صامتة وهي تعض على شفتها. فعندما تفكر أنها هي السبب في معاملة وزير سابق هكذا كزوج صاحبة مَطعم، تغرق في التفكير أن غسل عار نوغوتشي يعني إبعاد الذُّل عن نفسها. وعندها قالت لذلك الزبون المهم بحسم: «أرجوك ألا تأتي إلى هنا مرة أخرى؛ لأنني لا أريد سماع مثل هذا الكلام.»

لم يسبق لكازو أن أخفقَت في العمل هكذا ولو قليلًا سواء بسبب الحب أو بسبب عزة النفس. ومع مرور الأيام كان من السهل جرح عِزة نفسها. ولم يكن السبب أن عِزة نفسها زادت فقط، ولكن كانت كازو تفكِّر أن السبب هو أنَّ عِزة نفسها تضاعفَت بمقدار عِزة نفس نوغوتشي.

في ليلة من ليالي الخريف الطويلة، عندما كانت كازو تقضي نهاية الأسبوع في بيت نوغوتشي كما هي العادة، قفزت فجأة ونادت نوغوتشي عند النافذة وقالت: «انظر، انظر! إنه طائر الكركي. طائر الكركي.»

ولكن أهملها نوغوتشي. ولكن لأن كازو عملت ضجة كبرى لم يجد حيلة في أن ينظر إلى النافذة بتثاقل. ولكنه لم ير شيئًا.

«أمر أحمق. هل يطير الكركي في مثل هذا المكان من مركز طوكيو؟»

– «أجل لقد كان حقًّا طائرَ كركي. كان على وشك الهبوط على سقف البيت المجاور ولكنه واصل طيرانه مبتعدًا.»

– «إن حالتكِ غير طبيعية.»

وهنا تعارَك الاثنان عراكًا لفظيًّا كئيبًا. وأفلتَت من كازو فرصة أن تبوح بالقول: «كنتُ أمزح» ولأن تلك كانت زلة كازو، فلقد كانت خاطئة في لعب تلك اللعبة الصبيانية بتلك العواطف الملتهبة والمتأزِّمة بإخلاص زائد عن الحد.

وعندها انتبهت كازو مؤخرًا إلى صفتها الشخصية المتعِبة وهي أنها لا تستطيع الحياة بدون أن تحافِظ على شغفها دائمًا. كان زوجها يرفض جميع التغيُّرات التي

حاولَت كازو أن تُحدِثها في حياته، وواصل نوغوتشي حياته كما هي بعناد. ولكن مع ذلك لم يتغير أَمْر أن كازو تحب زوجها. في ليالي السبت، يصبح زوجها على غير العادة كثير الكلام، كان قليل المزاح بلا تغيير، ولكنه يحكي لها عن الروايات الأجنبية، ويلقي عليها أحيانًا محاضرة عن الاشتراكية.

الفصل العاشر

ضيوف مُهمُّون

على أي حال كان من الواضح أن نوغوتشي يعتقد أن ذلك الزواج سكن، في حين أن كازو، كما ذكرتُ قبل ذلك من قَبلُ تعتقد أنها عثَرت على مقبرتها. ولكن البشر لا يستطيعون الحياة داخل مقبرة.

كانت كازو تتلقَّى كل يوم من أيام الأسبوع تقارير داخل ستسوغوان من السكرتير فتعرف تفاصيل الحياة اليومية لنوغوتشي، وكان يدهشها في كل مرة معرفتها أن تلك الحياة فقيرة بدرجة كبيرة في الإثارة والتشويق. فمع كبر سنه إلا أن نوغوتشي ما زال يجتهد في الدراسة وتحصيل العلم.

«أمس من الساعة الثالثة بعد الظهر وحتى موعد نومه ظل يقرأ ويدرس في غرفة المكتب. وتناول وجبة العشاء كذلك في غرفة المكتب.»

– «إن ذلك يؤدي إلى نقص الحركة مما يقوده إلى الإصابة بالأمراض. يوم السبت القادم سأحرص أنا على أن أقول له ذلك.»

كانت كازو لديها نظرة دونية شديدة تجاه الحياة الفكرية. كان ذلك يعني كسلًا خطيرًا يسهل الوقوع فيه الرجل العبقري. ومع وجود ذلك، مع قولها للسكرتير: «سأحرص أنا على أن أقول له ذلك» كانت كازو سعيدة بأن من المؤكَّد أن زوجها ليس من نوع الرجال الذي يستمع إلى نصائحها المخلِصة.

وقعت في ذلك الوقت حادثة بسيطة في مطعم ستسوغوان.

كانت الليلة السابقة ليلة ينيرها القمر، ولكن يبدو أن لصًّا كان مختبئًا خلف ظل غابة الحديقة ينتظر هدوء المكان بعد خلود الناس للنوم. كانت شجرة السنديان العملاقة في الجبل الخلفي مكانًا مناسبًا للاختفاء. كانت غرف الولائم في تلك الليلة في أوجها، فدخل متسللًا وقتَمَا كانت البوابة خالية من الناس، وظل ساكنًا لساعات طويلة ينتظر. ولقد

امتنع عن التدخين؛ لأن السجائر يرتفع منها الدخان ولكن وُجدت بقايا عِلك في مكانين أو ثلاثة. ومن ذلك الأمر تم التخمين أنه شاب صغير السن.

اختلس اللص النظر على غرفة كازو أولًا وبعد أن فتح النافذة بمقدار بوصتين أو ثلاث بوصات أعرض عن الدخول؛ ولذا لم يصل الأمر إلى أن تضطرب أنفاس المالكة النائمة. ورغم أن خزينة النقود كانت داخل الخزانة الموجودة هناك، فربما لم يكن يتخيل أن المرأة التي تنام على فراش يملأ الغرفة الصغيرة بأكملها هي مالكة المكان.

بعد ذلك تسلَّل اللص إلى الغرفة التي ينام بها خمس من العاملات، وداس على شيء طري بحذائه، فصدر صوت عالٍ فجأة ففرَّ اللص هاربًا دون أن يسرق شيئًا.

حدثت جلبة وضوضاء باستدعاء الشرطة في منتصف الليل، وظلَّت كازو مستيقِظة كما هي طوال الليل. وأثناء تمشِيَتها الصباحية المعتادة اكتشفت كازو العلكة السالفة الذكر عندما رأت ما يُشبه سِنَّة بيض بلون حي وزاهٍ في جذور شجرة السنديان الذي تسقط عليه أشعة شمس الصباح.

وقتها استحوذ على تفكير كازو بريبة توقُّف اللص عن الدخول إلى غرفتها بعد أن اختلس النظر عليها وهي نائمة. لقد كانت أثناء ذلك تغطُّ في النوم ولا تعلم شيئًا! وعند التفكير في ذلك فيما بَعد، تجد أنها تشعر بالطمأنينة وتشعر أيضًا بالرعب ثم مِسحة من السخط. فكَّرَت كازو للحظة وهي تشعر بدخول ريح الصباح الخريفي من فتحة الكيمونو تحت الإبط إلى أسفل ثديها، في احتمالية أن يكون اللص قد لمس جسدها وهي نائمة ثم أعرض عن ذلك. كلا، إن ذلك لا يُعقل حدوثه. ما من أي احتمال لقدرة اللص على فحص جسد كازو، فالغرفة كانت مظلِمة ولم تُفتَح النافذة إلا بمقدار بوصتين أو ثلاث بوصات فقط.

ولكن عندما تتنَّزه هكذا في الحديقة وحيدة وهواء الصباح الخريفي يهب عليها، تشعر كازو بأثر الذُّبول على جسدها نوعًا ما. كانت كازو تشتهر في الصيف بأنها حسَّاسة تجاه الحَر، فكانت عادتها في التغلُّب على الحَر أن تَعْرِض ليس فقط ثَدييَها بل وكذلك فَخِذيها مباشرة أمام هواء المروحة على مرأى من العاملات والأشخاص المقرَّبين، ولكن كان ذلك مَبعثُه ثِقتُها في بَشرَتها وجسدها. ويهاجِمها قَلَق عندما تفكِّر في كيف سيكون الحال في صيف العام القادم؟ وترى أن ترهُّل جسدها بدأ على العكس بعد زواجها.

ووَقتَها نظرَت كازو تحتها فجأة فرأت ما يشبه أسنانًا آدمية متناثِرة بين جذور الأشجار. قرفَصت كازو ونظرت إليها بتمعُّن. كانت بقايا مَضْغ علكات كُوِّرت بعناية.

ليس بين عامِلِي أو زبائن ستسوغوان من يمكن أن يمضغ عِلكًا، ولا يدخل أطفال الجيران الحديقة.

وعندها أدركت كازو قائلة: «إنه اللص» لم تشعر بالقذارة بقدر شعورها الواضح بالوقت الذي قَضاه هنا رجل يتخفَّى في وِحدة. بل لقد أحسَّت بنوع من أنواع اللطافة في تلك الوحدة. تخيَّلَت صَفَّ أسنان شابَّة ومتينة وفظَّة وغير متناسِقة هي التي مضغَت تلك العلكة. لا شك أن الشاب كان يمضغ الزمن، ويمضغ المجتمَع المطَّاطي البليد الذي لا يتقبَّل وُجوده، ويمضُغ القلق الذي سيحمله على عاتقه في المستقبل، تحت ضوء القمر الجميل الذي يتسرَّب من بين ظلال أوراق السنديان!

بفضل هذه الخيالات منطلِقة العنان، أصبح اللِّص الذي هرب دون أن يسرق شيئًا، صديقًا غير معروف لكازو. كان ذلك وجودًا لشاب يختبِئ تحت القمر، حتى وإن كان في منتهى القذارة إلا أن له نصف جناح.

«لِمَ لم يوقظني؟ إن كان في مأزق فيمكنني إعطاؤه ما يريد من مال. كان يكفي فقط أن ينطق بكلمة واحدة!»

لقد شعَرَت كازو أن ذلك اللِّص الشاب أكثر أعضاء المجتمع حميمية لها. كانت تلك المشاعر في الواقع جديدة وطازجة بالنسبة إلى السيدة زوجة يوكِن نوغوتشي.

... فكرت كازو في استدعاء الجنائني، ولكنها أعرضَت عن ذلك؛ لأنها عزَمَت على الصمت وعدم إبلاغ كائن من كان بأمر تلك العلكة التي يمكن أن تكون دليل إدانة. وبذلك اقتلعَت عشبة رطبة قريبة من جذور النبات، ولمستها بأصابعها ودفنت العلكة بحرص وحذَر بالغَين.

تأنَّت كازو في إعلام زوجِها بحادثة اللص؛ لأنها فضَّلت الاتصال به بعد أن يستيقظ من نومه. وبعد أن أخبرته بالأمر كله في إيجاز، قالت كازو له ما يلي: «كان رجال الشرطة في منتهى الدِّقَّة والاحترام. لو حدث في الماضي أن دخل لص المطعم، فمن المؤكَّد أن تعاملهم كان سيختلف عن ذلك. كل ذلك بفضلك أنت.»

كان ذلك انطباعًا نابعًا من رغبتها فيه أكثر من كونه انطباعًا صادقًا. وثَمَّة سؤال كبير، أيُّهما ستعامله الشرطة باحترام وتقدير، مالكة مطعم يرتاده كبار أعضاء حزب المحافظِين الحاكم أم زوجة مستشار حزب الإصلاح المعارض؟

كان صوت نوغوتشي الذي تلقَّى خبر حادثة اللص، هادئًا وطبيعيًّا جدًّا. كان موقف سفير يتلقَّى تقريرًا من سكرتير سفارة شاب بحدوث عطب بسيارة السفارة.

«السبب هو عدم الاهتمام بإغلاق الأبواب جيدًا.»

كانت تلك هي أول كلمة تسرَّبَت من بين شفتيه، وكانت تلك خيانة لكازو التي تأمَّلَت منه إظهار الفرح لسلامتها. يبدو أن نوغوتشي فكَّر أن حادثة اللص تلك أَمْر شخصي يخص الأسرة.

استدعَى ذلك السلوك الذي كان نوغوتشي يعتبره عادلًا بلا محاباة وتراه كازو برودًا، في قلب كازو نوعَين من ردود الفعل؛ الأول: كان آلام توبيخها لمجرَّد عدم الاهتمام بغلق الأبواب وهي التي خاضَت تجارب الحياة وأدارت مطعمًا شهيرًا اعتمادًا على نفسها فقط، والثاني: هو الخوف من أن يكون قد اكتشف ببرود هياجها الشاعري العجيب منذ ليلة أمس. ولكن على الفور ألقَت كازو باللوم على الهاتف الذي سبَّب ذلك الغضب. كان نوغوتشي رجلًا تصبح نبرة كلامه روتينية باردة أكثر وأكثر عندما يتحدث في الهاتف حتى في الحالات التي يكون فيها حنونًا لو قابَلتَه على الطبيعة.

«إن عدم تحدُّث الزوجين معًا إلا من خلال الهاتف أمر سيئ ... ولكن في الأصل أنا السبب في سير حياتنا على هذا المنوال.»

نظرت كازو إلى أظافرها وهي تتظاهَر بسماع حديث الطرف الآخر. ظهرَت بوضوح أَهلَّة بيضاء في جذور الأظافر وردية اللون التي دائمًا ما تبدو في صحة جيدة، ولكن ظهر خيط مثل الغيم الأفقي الأبيض في أظافر الوسطى والسبابة. «تلك علامة صناعة العديد من الكيمونو» ... أحسَّت كازو فجأة بعدم جدوى امتلاكها الكثير من الكيمونو بالفعل. كان ذلك اضطرابًا قلبيًّا مفاجئًا وكأن جسدها يزول ذائبًا في الحال.

عندما أطلقَت عينيها وهي تضع سماعة الهاتف على أذنها رأت أشعة شمس الصباح تدخل في الغرف التي تفتَّحَت نوافذها، والعاملات ينظِفْنَها بحيوية وحماس. وتحت شمس الصباح تبرز الفراغات التي بين حصير التاتامي بارقة. تتراقص مُنفضة الغبار، الريش مُنتَعِشة في تلك اللحظة فوق نقوش الكُوَّة الشفافة من الخشب الأبيض ... وتتألَّق خُصور العاملات الشابات السلسة والمتينة بارزة وسط أشعة شمس الصباح في حركات الوقوف والجلوس سواء في الغرف أو في الممرات.

احتَدَّ صوت نوغوتشي في الهاتف قليلًا وهو يقول: «كازو! هل تسمعين؟»

– «أجل.»

– «إن لدَيَّ أمرًا هامًّا. لقد جاءني اتصال منذ قليل. سيأتي اليوم ضيفان هامَّان ومن الضروري أن تكوني في استقبالهما.»

– «هل سيأتيان إلى هنا؟»

– «كلا، سيأتيان إلى البيت. أرجو أن تُجهِّزي طعامًا وتحضري أنت أيضًا.»

– «ولكن.»

كانت كازو على وشك أن تبلغه عددًا من أسماء الزبائن المهمِّين الذين قد حجزوا في تلك الليلة وأنها لا تستطيع تَرْك المطعم.

«ألا يجب أن تَعودي إلى البيت عندما أطلب منك ذلك؟»

– «ولكن من هما هذان الضيفان الهامان؟»

– «لا أستطيع ذِكر ذلك الآن في الهاتف.»

ثارت كازو ثورة غضب تجاه ذلك الإمعان في السِّرِّية.

«حقًّا! هل تقول إنك لا تستطيع ذِكْر أسماء الضيوف لزوجتك؟ إن كان الأمر كذلك فلا بأس.»

لم يستجب نوغوتشي لذلك، وقال بصوت هادئ جدًّا: «لا بأس. عُودي للبيت قبل الساعة الخامسة ومعك الطعام اللازم. وإن لم تفعلي ما أقوله فلن أغفر لك ذلك.»

وأغلق الهاتف بعد أن قال ذلك مباشرة.

ظلَّت كازو محبوسة لفترة في غرفتها الضيقة بسبب الغضب، ولكنها أدركَت أخيرًا أن هذه هي المرة الأولى التي يخلف فيها نوغوتشي التعهُّد بينهما على عدم عودتها للبيت إلا في عطلة نهاية الأسبوع. ولا بد أن هذين الضيفين في منتهى الأهمية بالنسبة إليه.

مدَّت كازو يدها إلى النافذة التي أخذت الشرطة البصمات من عليها في منتصف الليل، وجرَّبَت أن تفتحها بمقدار بوصتين أو ثلاث بوصات. سقطت زهور الأقحوان الصفراء الصغيرة التي تحت النافذة ودُهست ولا تعرف أَدهسها اللص أم الشرطة؟ إحدى الزهور دُفِنت في تربة الأرض اللينة وكأنها مُرصَّعة بها، وكان شَكْل الزهرة كما هو وكأنها تطريز دقيق بارع ولم تَتَّسِخ. وبرزَت بَتْلَات الزهرة الصفراء كل على حدة لأعلى وهي تُلوِّح جسدها قليلًا فوق الأرض.

ظهرت علامات النعاس الشديد على كازو فرقدت فوق حصير التاتامي تحت النافذة، ووجَّهَت عينيها اللتين امتزج بها الغضب والنعاس تجاه النافذة المفتوحة بمقدار بوصتين أو ثلاث بوصات. كانت سماء الصباح البعيدة تلمع في صفاء ووضوح. رسم بَلل العيون أمواجًا في السماء. لا حاجة لكيمونو ولو واحدًا. فكَّرَت كازو قائلة: إن ما أحتاجه الآن شيء آخَر. ونامَت وهي تفكِّر في ذلك.

وقت الغروب، عادت كازو كما هو متوقَّع إلى «بيتها». وأوصت عاملات المطعم أن يبلغوا رسالة إلى الزبائن المهمِّين الحاجِزين لذلك اليوم أنها عادت لبيتها بسبب ارتفاع درجة حرارتها، وجعلت العاملات اللائي عدن معها يحملن جبالًا من أطعمة ذلك اليوم.

كانت قائمة الطعام مكونة بداية من المقبِّلات؛ مثل: محار أحمر، جوز الجنكو بورق الصنوبر، جذور الزنبق كبيرة الأوراق المسلوق بالسكر، روبيان النمر الأحمر ملفوف بخيوط ذهبية، وكعكة الأرز المشوية بصوص الميسو، وحساء صُنع بالشلجم، وساشيمي من سمك قبيون على شكل خيوط رفيعة، وسمك مرجان أحمر شائك، وعش غراب الصنوبر، وربيان نهري، وبيض مقلي، وكستناء، وتشكيلة من المشويات؛ مثل: براعم الجنزبيل، ومسلوقات؛ مثل: نبات الأقحوان التاجي، وجذور البطاطا.

وعندما عادت كان مزاج نوغوتشي جيدًا على خلاف ما توقَّعَت وشرح لها تفصيل سبب عدم قدرته على إخبارها الأمر بالهاتف. قال لها نوغوتشي إن الضَّيْفَين هما أمين عام حزب الإصلاح، وأمين التنظيم، وهو يعرف على الأغلب ما سيطلبان منه، وهو طلب يجب عليه رفضه مَهما كان ومقابل رفضه يريد أن يقدم لهما وجبة عشاء فاخرة. من خلال حذر نوغوتشي العميق من أن يقول أمرًا على تلك الدرجة أثناء اتصال هاتفي لستسوغوان، عرفت كازو حساسية وضعها السياسي.

طرق الضَّيْفان باب منزل عائلة نوغوتشي مع انتهاء الغروب. كان وجهَا كيمورا أمين عام الحزب، وكوروساوا أمين التنظيم، معروفَين للجميع من خلال رسوم الكاريكاتور السياسي، وكانت كازو قد قابلَتهُما بالفعل في حفل الزفاف. يشبه كيمورا القسيس البروتستانتي في خموله ودماثة خلقه، ويشبه كوروساوا عُمال مناجم الفحم.

كان إلقاء سياسِيِي حزب الإصلاح تحية اعتيادية على كازو هكذا عند دخولهما البيت، مضحكًا لها بدرجة لا تستطيع تحمُّلها، وهي التي اعتادت على سياسيي حزب المحافظِين. كأنه كذب أو أمر خادع العيون. خاصة سلوك كيمورا الدمث المبتسِم كان عجيبا بالنسبة إلى كازو، يبدو حديثه وهيئته كأنه منظر شجرة عجوز هادئة عارية الأوراق تتناثر حولها أوراقها الساقطة بسبب رياح خفيفة تحت أشعة الشمس.

ألقى الضيفان على نوغوتشي التحية الواجبة تجاه من هو أقدم منهما في العمل السياسي. وكرَّرَا مرارًا رفض الجلوس في أفضل مقعد وأخيرًا قبل كيمورا أن يستند بظهره على عامود الزينة.

شعَرَت كازو أن بشرة الثلاثة رجال بما فيهم نوغوتشي تشترك في خاصية الافتقار إلى الرطوبة. وهي خاصية لبشرة رجال ابتعدوا عن امتلاك السلطة السياسية الفعلية

لفترة طويلة مثل بشرة الرجال الذين لم يلمسوا النساء منذ زمن بعيد. ففي التحية المؤدَّبة وفي الابتسامة الدمثة تَكمُن ظلال زُهد قد أُجبروا عليه غصبًا، وبدا أن حياة الزهد تلك قد تجذرت في سلوك كيمورا الشبيه بسلوك أستاذ جامعة عجوز وفي براءة كوروساوا المتصنِّعة.

مدح كيمورا الطعام بأدب وسلوك راقٍ، واعتقدت كازو أن ذلك المديح فظٌّ وليس من قلبه. أظهر نوغوتشي بلا تغيير حساسية في سلوكه، وأظهر على وجهه امتعاضًا من مدح طعام لم تصنعه زوجته. أما كوروساوا، فكان يأكل صامتًا.

«أنا لا أملك قوة مطلقًا. إنكما تتوهمان فقط أنني مرشَّح قوي. لقد نسيني الناس حقًّا.»

مع تتابُع كئوس الخمر ظهر سُكْر نوغوتشي، في تكراره المفاجئ لهذه الكلمات. وفي كل مرة يظهر على وجهي كيمورا وكوروساوا خيبة أمل في وقت واحد مثل الآلة.

كانت كازو كما قال لها نوغوتشي باقية معهم لخدمتهم وصَبِّ الشراب لهم، ولكنها أدركت أخيرًا أن رفض نوغوتشي الذي كان يكرره كل خمس دقائق هذا يقوله وفي وعيه وجود كازو. صُدمت كازو من بلادة حسها. فيُفترض أن كازو رأت بوضوح منذ لقائها الأول بنوغوتشي خَجله الصارم العتيق الطراز. لا ريب أن هذا الرجل ربما يعتقد أن إبداء طموحه السياسي لشخص ما أمام زوجته وكأنه تمامًا مثل إظهار شبق جنسي.

وعلى الفور تَركَت كازو مقعدها بشكل غير لافت للأنظار، وعادت إلى غرفتها ونادَت الخادمة لتلقي عليها التعليمات، وبعد مغادرة الخادمة، بدأَت في ترتيب الغرفة لعدم وجود شيء آخر تفعله. كانت كازو تحتفظ في درج صغير بتلك الغرفة بالزينة التي يتزين بها نوغوتشي. أزرار الأكمام المستورَدة القديمة كلٌّ منها في علبة خاصة بها، وتشغل ثلاثة أدراج كاملة.

ولتمضية الوقت نثرت كازو تلك الأزرار فوق المكتب لتتأملها. أزرار من الذهب الخالص مُلصَق بها نيشان لعائلة ملكية في دولة صغيرة، وأخرى مطعَّمة بالجواهر، وثالثة على شكل زهرة أُقحوان من الذهب الخالص تبدو أنها مُهداة من القصر الإمبراطوري، ورابعة نُحتت من العاج على شكل الإله شيفا، ... على الأغلب أنها جميعها هدايا ولكنها كانت تجمُّعًا نادرًا.

كانت تشبه مختارات من القواقع التُقِطَت من على شواطئ بحار متنوِّعة في الصيف وتمثِّل ذكريات البحار في الماضي، ولقد ذبل رسخ نوغوتشي التي يجب أن تُزيِّنه تلك

الأزرار وضعف، ونشأت عليه بُقع جلدية، إلا أن القواقع كانت مكنونًا بها انعكاس غروب الماضي إلى ما لا نهاية. ضربت كازو بطرف أصبعها مثل لعبة «البلي»، وسمعت صوتًا باردًا لارتطامها ببعضها البعض وفكَّرت: ألا يمكن استخدامها كقطع في لعبة الشطرنج اليابانية؟ تضع الأزرار التي عليها نيشان وحيد القرن للعائلة الملكية في الدولة الصغيرة بديلًا عن الملك وأزرار نيشان الأقحوان بديلًا عن الوزير، ولكنها فكَّرت أن ذلك إساءة تجاه الأقحوان، فما هو متوقَّع جعل الأقحوان ملكًا ... فكرت كازو «من المؤكَّد أن هذا الرجل سيقبل العرض» فكَّرت وهي تعتمد اعتمادًا كبيرًا على حاستها السياسية المباشرة. وعندها فارت داخلها ثورة مبهِجة. لا ريب أن الجدار المعرفي السميك الذي يتكون من المكتبة التي تفصل بينها وبين نوغوتشي، على وشك الانهيار قريبًا. ولا شك أنه سيأتي قريبًا اليوم الذي تبرهن فيه بنفسها على أن حياتهما معًا لم تَمُت بالفعل.

«من المؤكَّد أن هذا الرجل سيقبل العرض!»

تيقنت كازو على الفور من ذلك الأمر. سمعت صوت ضحكات نوغوتشي النادرة مختلطًا بصوت ضحكات الضيوف في الجانب الآخر من الممر. فتحَت كازو باب الغرفة خصوصًا، ونظرَت في ذلك الاتجاه. استمر الصوت الكئيب قليلًا، ذلك الصوت الذي يشبه السُّعال ذا الأمواج، في التسرب وسط الضوء المتساقِط من غرفة الضيوف.

غادر الضَّيفان بعد ساعة تقريبًا من ذلك الوقت. وفي لمسة بارعة منها استدعَت كازو سيارة ليموزين فاخرة لكي توصلهم. ودَّعهم نوغوتشي عند باب البيت، وذهبَت كازو في وداعهم حتى البوابة الخارجية. دخل الليل وتجمَّع هواء بارد وفي عمق الغيوم الكثيفة التي تذهب وتجيء في السماء بدَا القمر وكأنه «دبوس» رسم غُرزًا في الحائط.

بدا وجه كيمورا أمين عام الحزب التي رأَته كازو تحت ضوء البوابة المعتِم، صغيرًا وكأنه وجه فأر. ومع أن الوجه كله كان صغيرًا ومتجمِّدًا، كان اللحم الذي يحيط بالفم فقط غنيًّا بخاصية التمدُّد المَرِن، ووقت حديثه بصوته المنخفض النبرة، كان ذلك اللحم، يطوف حول الكلمات الخارجة منه مع شاربه بلا ضرورة.

قبضَت كازو على كَتِف بذلته ودفعَته نحو السور فجأة وهمسَت في أذنه قائلة:

«حتى وإنْ كنتُ أدير ذلك المطعم، فلسوف تثق فيما أقوله، أليس كذلك؟»

– «بالطبع يا سيدتي.»

– «وافق زوجي على الترشح في انتخابات حاكم طوكيو؟»

– «كيف عرفتِ! هذا أمر مدهش. لم نحصل على إجابة فورية، ولكنه وعد بالرد خلال يومين على الأكثر.»

عقدَت كازو ذراعيها أمام صدرها فيما يشبه طفلة صغيرة. ومن خلال تلك الحركة التي تشبه إعادة ربط صِرة قماش انفكَّت ربطَتُها مَرة أخرى بإحكام، حملَت الفكرة التي خطرَت على ذهنها حتى وصلَت بها إلى طور الخطة.

«أرجو أن تستمر في الإلحاح على زوجي. وفيما يتعلَّق بالمال، سيبدو ذلك وقاحة، ولكن دع أمره لي. ولن أسبب أي إزعاج لحزب الإصلاح مطلقًا.»

وفيما يتعلق بغلق الطرف الآخر فمَه عمَّا حاوَل أن يقوله، كانت كازو تملك طريقة حديث سريعة وذات فاعلية حقيقية.

«ولكن أرجو أن يكون ذلك الأمر سرًّا بيننا لا يعلمه زوجي. أرجو أن تجعله في غاية السِّرِّية؛ لأن ذلك هو الشرط في أن أتولى ذلك الأمر.»

بعد أن قالت كل ذلك في سرعة خارقة، تحدَّثت كازو فجأة بصوت عالٍ مرح يُسمع جيدًا في مدخل البيت، وألقَت تحية اعتيادية منمَّقة وأدخلَت الضيَّفَين السيارة قائلة:

«يا للعار! تضع الحقيبة الثقيلة على ركبتيك! أما من حامل حقائب في حزب الإصلاح؟»

وصل هذا اللوم الأخير إلى أذن نوغوتشي عند مدخل البيت، مما جعل كازو تُوبَّخ توبيخًا لا داعي له فيما بعد.

الفصل الحادي عشر

«الحياة الجديدة» الحقيقية

نشأت عادة جديدة في بيت نوغوتشي. يأتي رجل يُسمَّى سوئتشي يامازاكي كل يوم اثنين ويعطي محاضرة لمدة ساعتين مُركِّزًا على المشاكل السياسية التي تعاني منها إدارة محافظة طوكيو. وكذلك كان نوغوتشي وكأنه عاد تلميذًا في المرحلة المتوسِّطة يفتح الكراس ويُصغي بأذنيه بِجدِّية وهو يُسجِّل ذلك بعناية بقلم مونبلان الحبر الذي اشتراه من عشرين عامًا. كان يدرس بِجدِّية وحماس كل أسبوع، ويراجع ما قيل، ولا يفعل خلال الأسبوع غير ذلك.

كان سوئتشي يامازاكي مَوضِع إعجاب كوساكاري رئيس اللجنة المركزية للحزب، وهو الذي أرسله إلى بيت نوغوتشي. كان عبقريًّا في الحملات الانتخابية، وهو رجل لا يُفضِّل أن يتولَّى منصبًا في الحزب يجعله يظهر علانية، وكان أحد الشيوعيِّين القدامى الذين تحرَّرُوا من وَهْم الشيوعية، وهو الآن يدير ظَهْرَه لكل أنواع الجدل، وانتهى الآن إلى أن يكون إنسانًا واقعيًّا بوجه أحمر جسور أَلَعِي.

مع بداية زيارات يامازاكي، كانت كازو من المؤكَّد أن تغلق المطعم يوم الاثنين، بمعنى أنها تطيل الإقامة في بيتها يومًا آخر بعد عطلة نهاية الأسبوع. وبمجرَّد أن رأت كازو وجه يامازاكي، عرفَت فيه وجه رجل من ذلك النوع الذي تستطيع القسَم بصداقته صداقة طويلة بدون تدخُّل لجانب الحب بين الرجل والمرأة. كان من نفس النوع العاطفي المفعَم بالقوة المعنوية الذي عليه غينكي ناغاياما، ولأول مرة تجد كازو هذا النوع داخل حزب الإصلاح.

نشأَت اللمسة العاطفية الإنسانية التي يملكها يامازاكي من خيبة أمله في السياسة، ومن الصُّدف العجيبة أنها كانت عاطفية تشبه كثيرًا التفاؤلية التي يصعب علاجها لسياسيِّي حزب المحافظِين. ومن حدسها المباشر أدركَت كازو على الفور أن ذلك هو

المؤهَّل الذي لا يمكن للشخص الواقعي أن يتخلَّى عنها في المستقبل. وعلى الفور وثَّقَت كازو علاقتها الحميمة مع يامازاكي.

كان معرفة كازو لعزم زوجها على الترشح في الانتخابات من خلال مكالمة هاتفية جاءتها من غينكي ناغاياما.

قال لها غينكي ما يلي فجأة في الهاتف وهو يضحك:

«لقد قرَّر قرارًا غبيًّا. ألا ترين أن السيد زوجك قد أخذ قرارًا غبيًّا؟»

بحدس مباشر فهِمَت كازو على الفور أن ذلك يعني الترشيح لانتخابات حاكم العاصمة طوكيو، ولكنها جُرحت عندما عرفت أن صديقها السابق اللحوح وعدوَّهما السياسي الحالي قد عرف ذلك الخبر الذي لم تسمعه من زوجها بَعْد. وعلى الفور تظاهرَت كازو بالجهل، ولكنها تعمَّدَت أن تمثل ذلك الدور تمثيلًا رديئًا. مثلت كازو حتى السعادة والفخر والجهل بطريقة عبثية. وهكذا حوَّلت بمهارة سياسية غضبها تجاه زوجها الذي يفضل مجاملة الغرباء.

«ماذا تقصد بالقرار الحاسم؟ إن كُنتَ تقصد خيانة زوجي أرجوك أن تتجاهلها؛ لأنني أنوي أن أغمض عيني عنها لأقصى ما يمكنني من إغماض العين.»

قال لها غينكي الخبر فقط بدون أي نوع من الزينة أو البهرجة. ومثل ذلك الأمر كان بعيدًا عن غينكي المعتاد، ويوضح موقفه الجديد الذي سيكون عليه.

«على كل حال إنه قرار غبي. بهذا ستضيع حياة زوجك السياسية. وأنت! ما هذا الذي تفعلين؟ أرجو منك أن تنصحيه بشكل مبدئي كزوجة تضحي بحياتها من أجله. هل تسمعين؟ إن هذه هي نصيحتي لك كصديق لزمن طويل.»

وعند هذا الحد انتهَت المكالمة.

وفي ذلك الوقت جاء كوساكاري رئيس اللجنة المركزية لزيارة بيت نوغوتشي، وكرر الأمين العام للحزب زياراته للبيت. وحتى مع وجود كازو في ستسوغوان كانت قائمة زيارات بيت نوغوتشي اليومية تصل إلى أذنها بالتفصيل من السكرتير المقرب منها. وقت المجيء والمغادرة وطبيعة الهدف من الزيارة وحالة زوجها المزاجية أثناء الزيارة ... إلخ.

ظهر خبر ترشح يوكِن نوغوتشي في الصحف بعد ثلاثة أيام من مكالمة غينكي.

كان ذلك يدل على شخصية نوغوتشي بالضبط ففي الليلة التي ظهر فيها الخبر استدعى كازو من ستسوغوان وانفرد بها في غرفة المعيشة وأخبرها بالنبأ وكأنه يبوح لها بسر في غاية الأهمية لا يعلمه أحد. لقد قرر بنفسه أن زوجته لا تقرأ الصحف مُطلقًا. وما

من سبب لمثل ذلك النوع من اليقين الذي يملكه نوغوتشي، فمع أن كازو لا تكره الكلاب مثلًا إلا أنه لديه يقين أنها تَكره الكلاب، ومع أنها لا تحب فول الصويا المخمَّر إلا أنه لديه يقين من أنها تحبه. كانت تلك عادته في الوقت الطبيعي. وربما كان نوغوتشي قد خُدع بوهم اعتقاده الخاطئ في وقت ما فظن أن زوجته امرأة ليس لديها أي اهتمام بالسياسة مطلقًا.

اتَّخذَت كازو وضع أنها تسمع الخبر لأول مرة، وسمعت ذلك الإعلان الحربي، وعلى عكس نصيحة غينكي تمامًا، قالت ردًّا مستحسَنًا:

«بما أنك قَبلتَ العرض فليس أمامنا إلا بذل أقصى ما نستطيع عمله.»

ولكن منذ ذلك الصباح الذي جاءت فيه مكالمة غينكي، كانت كازو أسيرة أحلامها وخيالاتها. اشتعلت قوة النشاط في جسدها، واختفَت حياتها المعيشية التي تشبه الموت تمامًا ولم يَعُد لها أثَر، وفكَّرَت أن ذلك بداية الأيام التي تستمر فيها المعارك والأفعال العشوائية.

كان ذلك اليوم يومًا شتويًّا في منتهى الدفء، تأمَّلَت فيه كازو حي غينزا في وقت الغروب من نافذة الطابق الخامس. وقد خرجت لسماع حفل موسيقي فردي البيانو أقامته ابنة أحد رجال الأعمال من زبائن ستسوغوان الدائِمين في قاعة غينزا الموسيقية. وعندها كانت تلك المدينة التي انكشفَت جانب أَسطُحِها الخلفية ذات التعرجات، يمكن تأملها بحميمية وأُلفة غير معتادة دائمًا.

بدأت أضواء النيون هنا وهناك في البريق، وبدَا منظر الرافعة والهيكل الحديدي اللذين يمتدَّان بميل تجاه سماء الغروب ذات اللون المائي في موقع بناء عمارة بعيدة، مع وجود الكثير من المصابيح الصغيرة المنارة، كأنه منظر ليلي لميناء عجيب يطفو فوق الأرض. بدأ مِنطاد إعلانات أحمر كان يستريح بعد إنجازه مهمة النهار، بدأ يرتفع مرة أخرى من سطح المبنى القديم القريب وهو يهتز في سماء الغروب ويشد خلفه الراية المطوِيَّة المكوَّنة من النيون.

شاهدت كازو ظلال العديد من البشر الذين يتحرَّكون في الفراغ تحت الغسق. تصعد امرأتان ترتديان نفس المعطف الثقيل الأحمر سُلَّم الطوارئ في أحد مباني الشوارع الخلفية. وتخرج إحدى الأمهات التي تضع رضيعها خلف ظهرها إلى منصة نشر الغسيل خلف إحدى اللوحات الإعلانية لمحل تجاري لتجمَع القمصان البيضاء الباقية على الحبال. ويصعد ثلاثة طباخِين بقبعات بيضاء إلى سطح المبنى القذر ويشعلون لبعضهم البعض

نار سجائرهم. ويُرى للحظة سريعة قدم فتاة ترتدي فيها جوربًا أحمر تمر بعرض سجادة في عمق غرفة المكتب في وجود مقعد خالٍ مجاور للنافذة في الطابق الرابع لمبنى جديد يطل على الطريق الرئيسة. كانت الحياة اليومية لهؤلاء البشر هادئة هدوءًا مريبًا ... ثم يرتفع دخان رفيع أو ثخين من مداخن متنوعة عالية ومنخفِضة مباشرة إلى السماء التي انعدمت فيها الرياح تمامًا.

فكَّرت كازو وهي تسكر في أوهامها: «سيكون أمرًا رائعًا أن أخترق قلوب هؤلاء الناس واحدًا بعد آخَر من أجْل أن يختاروا اسم يوكِن نوغوتشي في الانتخابات. آه ... يا له من شعور جيد إن استطعت أن أقبِض بيدي من هذا المكان العالي على هؤلاء الناس قبضة متحكِّمة مثل قبضة النسر المتوحِّش! يجب عليَّ أن أنقش اسم يوكِن نوغوتشي نقشًا مؤكَّدًا في ركن قلب كل فرد منهم الذي يمتلئ برغباتهم الحسِّيَّة وقلقِهم على المال، وتفكيرهم فيما يريدون أكله، وتواعدهم لمشاهدة السينما ... إلخ! سأفعل أي شيء من أجل ذلك. ولن أبالي بالمجتمع ولا بالقوانين. فزبائن ستسوغوان العظماء كلهم حقَّقوا نجاحاتهم بدون مبالاة بمثل تلك الأشياء.»

انتفخ صدرها تحت حزام كيمونو ناغويا الصلد، وأصبحت عيناها مُغمضَتَين وكأنهما في سُكْر من تلك الأوهام، وتمدَّد جسد كازو الساخن في عتمة الليلة، وشعرت كأنه احتوى هذه المدينة العملاقة بأكملها.

بعد الزواج أُدخِل سرير مزدَوَج جديد في غرفة نوم بيت نوغوتشي، وهي غرفة قديمة بمساحة عشر حصيرات تاتامي. ثم بعد وضعِه فوق السجادة الفارسية العتيقة، وعند النوم على الظَّهر عليه، تشعر كازو أن السقف قريب قُربًا شديدًا وأن الحيطان والأبواب المحيطة تطبق على أنفاسها بغرابة.

يسبقها نوغوتشي للنوم كالمعتاد، فتضيء كازو المصباح المجاوِر للسرير مجددًا، وتظل تحدِّق بعينيها في شيء ما تنتظر قدوم النعاس دون أن تحاول قراءة كتاب أو مجلة. تظل على سبيل المثال تنظر بثبات في مقبضَي الباب اللَّذَين على شكل هلالين ومنقوش عليهما زخارف ذهبية دقيقة تشبه زخارف مقبض السيف. ومنقوش على كلا المقبضين زهرات أربع، وكان المقبض الذي أمام عينيها عليه نقش زهرة السحلبية. كانت زهرة السحلبية الذهبية المعدنية التي اسودت في وسط الظلام الخافِت، على النقيض تمامًا من عينَي كازو الصافية الذهن اللَّتَين لا تريدان النعاس.

ولأنها أطفأت منذ قليل مدفئة الغاز التي داخل الغرفة، بدأ الهواء الدافئ ينسحب مغادرًا الغرفة مثل جذر البحر. لم تستطع زوجته مطلقًا التعرُّف على الطريقة التي أخذ بها نوغوتشي قرار ترشيح نفسه في الانتخابات أثناء عطلة نهاية الأسبوع الهادئة كمثيلاتها دائمًا. فهو لم يتغيَّر فيه أي شيء عمَّا كان عليه قبل قبول طلب الترشح وأثناء التفكير في الأمر وبعد اتخاذه قرار الترشح. فلا شك أن حتى نوغوتشي نفسه فَرِح مع القرار، وعانى من التفكير ثم أعاد التفكير ثم رجع للتفكير من لنقطة البداية. ولكنه لم يُظهر أي لمحة من ذلك لزوجته، فلم يزد على نفس السعال القليل قبل النوم، ونفس طريقة المداعَبة المتردِّدة والاقتراب الغامض، ثم نفس اليأس والتوقف، وفي النهاية نفس طريقة النوم منكمشًا حول نفسه مثل الشرنقة. ثمة شعور أن فراش نوغوتشي يشبه رصيفًا تعصف فيه الرياح، ولكن رغم ذلك فهو سريع النعاس عن كازو.

وعند المقارَنة بذلك، فإن فِراش كازو المكون من النصف الآخر للسرير المزدَوَج، يبدو وكأنه مشتعل بالنيران. يتدفأ جسدها بالخيال قبل الرغبة الجنسية، وتشعر بانتعاش بارد عندما تمد يدها تجاه زهرة السحلبية المعدنية المظلِمة الباردة وتلمسها. تعطي الطَّيَّات الدقيقة لزهرة السحلبية المعدنية لأنامل كازو في الظلام الخافت شعورًا وكأنها تُمسِّد وجهًا صغيرًا صلدًا وصعب المراس بلا ملامح.

فكَّرت كازو:

«حقًّا! إن غدًا هو الاثنين. غدًا يجب بحقٍّ أن ينكمش يامازاكي وأبدأ أنا التحرك.»

تقابلت كازو مع يامازاكي سرًّا في مِيزانِين بنك «شيسيدو» في الساعة الثالثة من بعد ظهر الثلاثاء.

وفيما بعد كتب يامازاكي في يومياته أثناء الانتخابات عن هذا اللقاء ما يلي:

«... حتى ذلك الوقت، كنتُ قد زرتها في بيتها عدة مرات، وكنتُ أحمل ودًّا تجاه شخصية السيدة كازو الصريحة والمفعمة بالنشاط والحيوية. ولكن عندما تقابلنا خارج البيت وجهًا لوجه بمفردنا لأول مرة، بدت السيدة كازو وهي تصعد إلى مِيزانِين بنك «شيسيدو» سيدة تعاني من وحدة شديدة رغم طاقاتها الحيوية المعتادة دائمًا. وكان من العجيب، أن تعطي السيدة التي ينشغل رأسها بالكامل بأمر انتخابات زوجها ذلك الانطباع بالوحدة. وعندما بدأ الحديث (لم نتكلم في أي أمر خارج نطاق الانتخابات) كانت السيدة كازو تتحدث بطريقتها المعروفة ذات الحيوية والحماس وعلى الفور اكتسحتني تمامًا.»

ولأن كازو كانت قد سجلت في ورقة كل ما يجب عليها أن تسأله لياماز‌اكي، توالت أسئلتها عليه كالسِّهام. كان من المفترَض أن ثمة براحًا حتى موعد الانتخابات يتراوح بين ستة أشهر وعشرة أشهر، ولكن على حسب قرار حاكم طوكيو الحالي لا يمكن تحديد متى يستقيل. كانت كازو تنوي أن تقوم هي بالدعاية الانتخابية الممنوعة قانونًا حتى موعد الإعلان عن الانتخابات، على أن يكون ذلك بدون علم نوغوتشي. وقد أعدَّت كمية من المال، وإذا نقص المال كانت قد حسمت أمرها على أن تضع ستسوغوان رهنًا لقرض. وتحديدًا حملة الدعاية المسبقة التي تخترق بمهارة شبكة الحماية القانونية، إلى أي درجة لها فاعلية وتأثير؟ وغيرها من الأسئلة.

أعطاها ياماز‌اكي إرشاداته على تلك الأسئلة واحدًا بعد آخر.

«في البداية يجب طباعة بطاقة اسم. ويجب أن يكون اسم السيد زوجك بحجم كبير وواضح قدر الإمكان، أي الحجم الضخم إياه.»

«فهمتُ. سأطبع البطاقة. ستأتي معي في طريق عودتنا لنذهب إلى محل طباعة البطاقات، أليس كذلك؟»

قالت كازو ذلك وأنفاسها تتقطع.

قال ياماز‌اكي:

«انتخابات حاكم إلى أي مدًى ضخمة؟ على سبيل المثال يتم لصق بوستر على أعمدة الكهرباء في كل أنحاء طوكيو. ثمة في طوكيو ما بين المائة وخمسين ألفًا والمائة وستين ألف عمود، لنقل ثلاثمائة ألف بوستر، وثمن البوستر الواحد ثلاثة ينات، يكون المجموع تسعمائة ألف ين، ثمن للصق كل بوستر ين يصبح التكلفة مليون ومائتي ألف ين. بهذا فقط يمكن تغطية كامل مصاريف انتخابات صغيرة.»

كان من صفات ياماز‌اكي أنه في أي أمر، يعطي أرقامًا دقيقة ويقنع الناس بسهولة.

كانت كازو تتحدث بصوت عالٍ بكلمات مثل «دعاية ممنوعة»، و«خداع القانون» دون أن تعطي أي اعتبار لوجود أشخاص في الطاولة المواجهة؛ ولذا نظر إليها ياماز‌اكي في قلق. وعندما أحس ياماز‌اكي بالخطر أظهر شروطًا متبادَلة. فلأن الزوجة صمتت تمامًا عن إبلاغ نوغوتشي بأي شيء عن الحملة بداية من مشكلة التمويل، ولكن مقابل ذلك يجب أن تناقش ياماز‌اكي في أي فعل حتى ولو بدا بسيطًا وتافهًا. هكذا طلب منها ووافقت كازو على ذلك.

«لقد ارتاحت مشاعري بالحديث معك بصراحة مُطلَقة.»

قالت كازو ذلك وهي تطرق بوضوح على حزام الكيمونو، ثم أضافت:

«إن ما يجب قوله إن زوجي لا يعلم مطلقًا «قلب شعب» اليابان. فهو قد وُلد وتربى في أسرة مُرفَّهة يقرأ الكتب الغربية ويدرس في غرفة مكتبه. ولا يفهم حتى مشاعر خادمته. ألستم أنتم مَن تفهمون كل الأمور بعقولكم؟ إذا اعتبرنا ذلك، فأنا أستطيع بسهولة شديدة التطرُّق إلى قلوب جموع الشعب واقتحامها. ثم الإمساك بها بقوة. حتى أنا عندما ضاق بي الحال كنتُ أدور في الشوارع لأبيع مقليات من عجين البطاطا. حتى أنت يا يامازاكي لم يسبق لك هذا الفعل أليس كذلك؟»

ابتسم يامازاكي في صمت.

«النطاق الذي يصل إليه النقاش ضيق. من أجل الإمساك بقلوب خمسة ملايين ممن لهم حق التصويت نحتاج لسلاح العواطف، وأنتِ يا سيدتي تملكين ذلك بكل تأكيد. ونحن أيضًا قلوبنا متينة.»

– «يا سيد يامازاكي لا يجب أن تقول مجاملات مملة.»

قالت كازو ذلك بصوت مثير للغرائز وهي ترفع ردن الكيمونو، ثم أضافت بفم يتحدث بسرعة كبيرة:

«السياسة يجب أن تكون في المرتبة الثانية؛ إن الأكثر أهمية في الانتخابات المال والعواطف فقط؛ ولأنني امرأة بلا تعليم أنوي أن أصطدم بهذين السلاحَيْن فقط. بالإضافة إلى ذلك إن عواطفي حتى لو شاركت فيها الخمسة ملايين ناخب لن تنضب وسيتبقَّى منها الكثير.»

«أفهم جيدًا. إذن عليكِ يا سيدتي أن تتقدمي في طريقك بهذه المشاعر بكل عنفوان.»

كان من الجيد بالنسبة إلى كازو معرفة أن يامازاكي رجل ناضج يتسامح مع النساء وعلى وجهه علامات التسليم بالأمر الواقع.

قالت كازو وكأنها تُجهِز عليه تمامًا:

«استغلني إلى أقصى درجات الاستغلال فأنا امرأة ثمة فائدة من استغلالها.»

شرب يامازاكي قهوته وأكل كعكة الفواكه الكبيرة الحجم دون أن يبقي منها شيئًا. أعطى ذلك الرجل الضخم الذي يربط رابطة عنق بحسم وبوجه أحمر يأكل كعكة فواكه كبيرة الحجم الطمأنينة إلى كازو.

ثم بعد ذلك، بدأَت كازو تقول إنها تريد منه أن يعرف سيرتها الذاتية، فظلَّت تتحدث بمفردها مستغرِقة ما يقرب من ساعة تحكي طرائف من المعاناة العديدة التي لاقتها منذ

ميلادها. وكانت نتيجة ذلك جيدة؛ لأنها كانت السبب الذي جعل يامازاكي فيما بعد يميل إلى كِفَّتها هي.

يصل صدق كازو وصراحتها، إلى درجة أن تميل إلى الكشف عن مكنوناتها أمام رجل لا تحبه بصفة خاصة. إنها تجتهد في ذلك لكي تدمر أوهام الناس عنها، ولكن الناس من البداية لم يكن لديهم أية أوهام تجاه كازو. بل ثمة مذاق عادي للدفء تجاه جمال جسدها الممتلئ، الذي ليس به أقل القليل من الضعف، وأيًّا كانت الجواهر أو الملابس التي تتزين بها، كان يفوح منها رائحة الأرض السوداء التي تظهر بعد تركها قريتها التي وُلِدت بها. في الواقع هذا الانطباع الخصب لا يجعل المرء يراها مزعجة في حديثها بل على العكس يجعله يبدو محببًا.

كان يامازاكي يُحسِن الاستماع. كانت كازو عندما تتكلم إليه، تحمل شعورًا أن كلماتها لا تمر عَبْر وجه المتلقِّي مثل شبكة، بل يبدو وكأنها تترسب بيقين فوق ذلك الوجه سميك اللحم ذي الابتسامة التي لا تنقطع.

قالت له كازو:

«أرجو أن تتحدث معي في أي شيء بكل حرية وصراحة.»

أثناء فترة زواجها التي لم تَدُم طويلًا، كانت كازو متعطِّشة بالفعل إلى الصراحة بينها وبين الآخَرِين.

لم يعرف نوغوتشي أي شيء. فلم يكن يحاول بصفة خاصة أن يعرف بنفسه أي شيء إلا ما يصل إلى أذنيه وعينيه بشكل مباشر؛ ولذا بقي لا يعلم أي شيء. بفضل عادة الإقطاعِيِّين وكبار موظَّفِي الدولة تلك، لن تحتاج كازو إلى جهد كبير من أجل أن تحافظ على أسرار نشاطها تجاه نوغوتشي. علاوة على ذلك إنها كانت تقضي خمسة أيام من الأسبوع في ستسوغوان.

ولكن مع مرور تلك الأيام الخمس في الأسبوع لم تعد ملك ستسوغوان. كانت كازو تدور بالسيارة كثيرًا، وكانت أيضًا تُكثِر من لقاء يامازاكي. ولم يكن من النادر أن يفزع يامازاكي من نومه بسبب جرس هاتف يجيء من كازو في منتصف الليل تسأل عن أمر خطر عليها فجأة.

وإذا تحدثنا عن نوغوتشي، بدون تغيير، كان يستمع بجدية إلى محاضَرة من يامازاكي لمدة ساعتين مرة كل أسبوع، ولم يفعل أي شيء آخر بخلاف ذلك. قام يامازاكي بكل تلك

الأمور الخاصة بوضع السياسات والتمويل وتعيين موظَّفِي الحملة الانتخابية، وكذلك كان يامازاكي في موقف يستطيع فيه إعطاء النصيحة في كل شيء. لم يكن في نية نوغوتشي الممتلئ بروح احترام القانون، أن يبدأ الحملة الانتخابية حتى موعدها بعد الإعلان القانوني عن إجراء الانتخابات. كانت لقاءات كازو ويامازاكي السِّرِّية معروفة لدى قادة حزب الإصلاح. أصدر القادة أوامرهم إلى يامازاكي، وكانت سياستهم أن يَدَعوا كازو تفعل ما يَحلُو لها ما دامت لا تخرج عن الخط المرسوم. فلم يسبق لحزب الإصلاح حتى الآن، أن امتلك رفيقًا به كل قدرات تلك السيدة الكريمة بأموالها وحماسها. وظن نوغوتشي أن ما يبدو أنه تحركات ما قبل الحملة الانتخابية التي تصل إلى إذنيه أحيانًا، تتم كلها من خلال أموال الحزب. فلقد عاش نصف عمره يعيش من ميزانية الدولة، فإذا ذكرت الأموال العامة لا يطفو على خياله إلا ميزانية الدولة التي لا تنضب.

صُنعت بطاقة الاسم على الفور، ووزعتها كازو حتى على بائعي السجائر وعاملات المطاعم. في أحد الأيام كان يامازاكي يجلس في السيارة مع كازو فجعل السائق يوقف السيارة، وذهب برفقة كازو التي دخلت لشراء خبز من أحد أكبر المخابز العريقة؛ ولأنها اشترت أقراص خبز محشو بمعجون اللوبيا الحمراء بالسُّكَّر بما قيمته ثلاثة آلاف ين فلم تكن تقدر على حمله بمفردها. عندما تقدَّم يامازاكي لحمل تلك الأكياس بيديه الاثنتين اندهش كثيرًا عندما رأي كازو تقدم تلك البطاقة الكبيرة لمالكة المحل وهي تقول لها:

«أنا من تحمل اسمها هذه البطاقة. أرجو تعاونك.»

فقال لها عندما عادا إلى السيارة:

«أنا في غاية الاندهاش. سيدتي، أتعلمين أن زوجها عضو في مجلس بلدية العاصمة عن حزب المحافظين المنافس؟»

«أحقًّا ما تقول؟! لم أكن أعلم. ولكن ألا ترى أنها كانت طريقة فعالة لجعل المنافس يندهش ويخاف.»

«ما الذي ستفعلينه بهذه الكمية الكبيرة من الخبز؟»

– «دعنا نذهب بها إلى ملجأ أيتام حي كوتو.»

– «إن الأيتام ليس لهم حق التصويت.»

– «ولكن يحيط بهم الكثير من الراشدين العاطِفيِّين الذين لهم حق التصويت.»

صمت يامازاكي ورافقها إلى ملجأ الأيتام. واضطر إلى رؤية البطاقة العملاقة مجددًا.

أصبحت كازو تظهر في جميع المناسبات التي يَتجمَّع فيها عدد كبير من الناس داخل العاصمة، من الاحتفالات حتى مسابقات اختيار مَلكات الجمال. تتبرَّع وتوزِّع بطاقة الاسم وتغنِّي أيضًا إذا طُلب منها. وفي تجمعات ربَّات البيوت تذهب مرتدية مريول الطبخ المنزلي، وحصلت على شعبية هائلة بين الناس المنعدِمي الحساسية تجاه التكلُّف.

كانت كازو تقف موقف الانتقاد الشديد أن شعبية حزب الإصلاح غير متغلغلة إلا في طبقات المثقَّفِين. وعندما سمعت أن شعبية الحزب ضعيفة في حي كوتو الشعبي والقرى الريفية في منطقة سانتاما، شعرت أن هناك قلوبًا كثيرة تنبض في أركان محافظة طوكيو الواسعة لا يمكن التأثير عليها لو لم تكن كازو موجودة.

وكانت كثيرًا ما تقول ليامازاكي:

«ألا تحتاجون مساعدة جيدة في منطقة سانتاما؟»

وفي يوم من أيام أواخر الربيع حمل إليها يامازاكي بمعلومة هامة.

«لقد سمعت أنه وُضع حجر أساس نصب تذكاري للأسلاف العظام في منطقة أوميه. وسوف يقام مهرجان للفنون الشعبية احتفالًا بتلك الحديقة، ولكن معلم الرقص الشعبي من نفس بلدتك قال إنه يريد دعوتك للمهرجان.»

– «إنها فرصة لم نكن نحلم بها. سأذهب مرتدية مريول الطبخ.»

– «حسنًا، تُرى هل مريول الطبخ يناسب مهرجان فنون شعبية؟ سأبحث أنا هذا الأمر.»

كانت نية كازو أن تقف موقف الحساب الهادئ غير المنفعل تجاه تلك النشاطات المتعدِّدة، وطريقة توزيع المال، والأمور التي تبدو استثارة للعواطف، لم يكن ثمة سبيل آخر للفوز بالانتخابات إلا الاستعانة بالناس. ومع ظنها هذا، لم تكن تضع في حسابها التأثير العاطفي التلقائي الذي يعطيه حماسها في التضحية بنفسها للناس، وعندما نستمع إلى حديث الناس الذين ذاقوا هذا التأثير في الواقع، فبالرغم أنهم يضحكون من داخلهم، ولكن من جهة أخرى، نقابل نقد محتواه أن الظاهر فقط من نشاطها أنه لا يحمل حماسًا صادقًا ولا يظهر إلا حساباتها النفعية فقط، عندها تغضب هذه المرة بانفعال لما يشوب ذلك من «سوء فهم». وهذه النقطة حصريًّا، كانت الحالة النفسية لكازو في غاية التعقيد.

إنه أمر كازو نفسها لا يمكن لها أن تعرفه بأي حال، وسيلتها المنافقة البسيطة في محاولة استغلال جماهير الشعب على الدوام، كان سببًا في أن تحبها تلك الجماهير. وهو أمر يدعو للتعجب. كانت الحسابات التي تفكر فيها كازو هي نوع من أنواع الإخلاص،

وبصفة خاصة الإخلاص الجماهيري، مَهما كانت الدوافع، فإن التضحية بالنفس والحماس هي صفات تحبها الجماهير. ثم في الواقع لم يكن لدى كازو ثمة ثقة كبيرة بالنفس تجاه هدوئها وعدم انفعالها. كانت مؤامرتها المفتوحة الرحبة وطريقتها في محاوَلة خداع الناس بتعصب، وتكرار ذلك مرارًا دون خجل على العكس قد فكَّ عن الناس البسطاء إحساس الحذر. وكلَّما اندفعت في محاولة استغلال الجماهير، كلما أحبَّتها تلك الجماهير. في كل مكان تذهب إليه كازو، حتى لو سمعت نميمة عنها، ولكن يتبقى لها فيما بَعدُ شعبية كبيرة. وعندما ذهبت كازو إلى جمعية ربَّات بيوت حي كوتو مرتدية مريول المطبخ، كانت مشاعرها، أنها ترتدي مريول المطبخ من أجل ألا تلفِت عيون الناس وتذوب هيئتها في جموع النسوة. ولكن الناس عيونهم ترى الصحيح. فلقد كانت مريول المطبخ مناسبة تمامًا لكازو!

في وقت العصر من يوم صَحوٍ بدرجة ممتعة من أواخر الربيع، رافقَت كازو يامازاكي إلى مدينة أوميه على بُعد ساعتين بالسيارة.

في السيارة أخرجَت كازو كالعادة مظروف التبرع وقالت ليامازاكي:

«هل يناسب مبلغ مائة ألف ين تبرعًا للنصب التذكاري للشهداء؟»

– «ألا ترين أنه أكثر من اللازم.»

– «إنه ليس لمدينة أوميه فقط بل لكل أسر الشهداء في إقليم سانتاما، ربما كان أقل من اللازم إلا أنه لن يكون أكثر من اللازم مطلقًا.»

– «هي أموالك وأنت حرة فيها.»

– «مرة أخرى تقول هذا الكلام البارد. إن أموالي الآن أصبحَت بالفعل أموال الحزب.»

لم يكن أمام يامازاكي دائمًا إلا أن يخلع لها القبعة احترامًا لتلك المشاعر النزيهة والمخلِصة. ورغم ذلك ففي ذلك الوقت قال ما يلي بسخرية متطفلًا:

«من المؤكد أنك عندما تقفين أمام حجر أساس النصب التذكاري، ستنهمر منك الدموع الطبيعية أنهارًا، أليس كذلك؟»

– «بالتأكيد. دموع طبيعية. فلا يؤثر في قلوب البشر إلا الدموع الطبيعية.»

مع التقدم في السَّير على طريق أوميه السريع، تكثر المساحات الخضراء على جانبَي الطريق، ويُرى بصفة خاصة غابات أشجار الدردار الجميلة هنا وهناك. مدت أشجار الدردار أفرعها الرقيقة تجاه السماء الزرقاء كما يحلو لها، في بهرجة وكأن تلك الأفرع هي شِباك صيد تُلقي بها الغابات بكامل طاقتها في بحور السماوات.

استمتع قلب كازو بالخروج إلى رحلة بعيدة بعد غياب طويل، وكانت من وقت لآخر تعرض على يامازاكي أن يأكل من السندويتشات التي جلبتها معها، وأكلت منها هي أيضًا. وسبب عدم إحساسها بأي شعور بالوحدة من عدم وجود زوجها معها، أن هذا العمل هو من أجل زوجها ذاته بلا أي ريب، وعلى العكس عندما لا يكون معها تكون الرابطة الروحية أقوى مما هي عليه وهو معها، هكذا كانت كازو تُفكِّر، ولكن الرابطة الروحية كما هي في الفترة الأخيرة هي من أوهام كازو نفسها، وأصبحت كازو لا تتسامح إلا مع تفسيرها هي نفسها لتلك الرابطة.

إن مدينة أوميه مدينة هادئة عتيقة الطراز نجت من التدمير في الحرب. أوقفت كازو السيارة أمام مقر بلدية المدينة، وكان يامازاكي قد تَواصَل معهم من قبلها، أحاط بها محرِّرُو الصحف وهي تصعد إلى مكتب عمدة المدينة، فقابلَته، وسلَّمَته مبلغ التبرُّع للنُّصب التذكاري. ثم بعد ذلك تقرر أن يرافقها في السيارة نائب العمدة ومعلِّم الرقص الذي من نفس بلدة كازو، ليقوما بإرشادها حتى النصب التذكاري بحديقة ناغاياما. كانت الطريق إليها من خلال اختراق طرقات المدينة ثم عبور جسر بري صغير في اتجاه الشَّمال، ثم صعود طريق للسيارات بزاوية طفيفة قُطعت من سفح الجبل الخلفي للمدينة.

ارتفعت تنهُّدَات كازو كلما رأت جمال أوراق الأشجار اليانعة الرائعة الجمال بمحاذاة الطريق. لم تنسَ كازو الإفراط في مدح المناظر الطبيعية في أي مكان تذهب إليه؛ وذلك لأنها تعتقد أن ذلك هامٌّ من الناحية السياسية. ينبغي على عين السياسي أن ترى كل مناظر الطبيعة في دائرته الانتخابية جميلة، وكذلك يجب أن يكون السياسي هو من يتأمل الطبيعة بجمال. ويفترض أن يحصد من ذلك ثمارًا تمتلئ بالنضارة والافتنان.

وفي النهاية فَتن منظر الحديقة أعلى الجبل لُب كازو. بَكت قليلًا أمام حجر أساس النُّصب التذكاري، ثم ابتسمَت قليلًا لسيدات اتحاد الفنون الشعبية اللاتي تجمَّعن في دائرة حول المنصة المنصوبة في منتصف ساحة الحديقة، ولكن المنظر من السقيفة التي أُرشدت إليها فوق التلة، كان رائعًا لدرجة تنسيها كل هموم وانشغال الحياة اليومية.

كان منظرًا مفتوحًا على الجهة الجنوبية الشرقية، في الأطراف الشرقية للمدينة، نهر تاماغاوا الذي يرتدُّ عائدًا بتياره الوئيد وضفافه الواسعة، تظهر على الجهة الأخرى ظلال الغابات هنا وهناك، وقد أخفت أفرع أشجار الصنوبر الحمراء الكثيفة العدد، ذلك المنظر الطبيعي الهائل الحجم.

بَرزَت للعيان أوراق الأشجار اليانعة بلون كموني في الجبال الجنوبية التي على الجانب الآخر مباشرة تفصلها الوديان عن المدينة. ومع أن شمس الظهيرة كانت واضحة، إلا أن الضباب غطَّى سطح السماء فبدَت تلك الأوراق الناضرة وهي مغلَّفة بتلك الأشعة المبهَمة فاجرة ومثيرة وكأنها شعر امرأة مُشعَّث استيقظت لِتوِّها من النوم. وفي المدينة تحت العين مباشرة يمرق من وقت لآخر باص بلون مبهرج متسللًا من بين الإفريز.

«منظر جميل. يا له من منظر رائع!»

قال نائب العمدة:

«على الأرجح ما من حديقة في ضواحي طوكيو تفوق مناظرها جمال حديقة ناغاياما.»

ثم أبعد بالخريطة المطبقة في يده قليلًا القناديل التذكارية التي عُلِّقت متراصَّة من إفريز العريشة هذا وحتى تصل إلى أفرع أشجار الصنوبر بطول المكان، ثم أضاف:

«إن الذي يبدو هناك في الأفق ناحية الشرق هي مدينة تاتشيكاوا. إذا نظرتِ من هنا تبدو جميلة وهي بعيدة.»

حوَّلَت كازو نظَرَها في ذلك الاتجاه. نهر تاماغاوا الذي أظهر ضفافه أحيانًا من بين الفينة والفينة اختفى في نهاية الشرق، وعلى خط الأفق، تبرق مدينة بيضاء مثل جبال الملح. ومن هناك الذي يبدو كقطع شظايا بيضاء ترتفع عاليًا في السماء هي طائرة وبَعد ارتفاعها تنخفض متوازية مع الأرض لتقطع ظل الهضبة الجنوبية؛ ولأن المنظر هناك في شدة البياض ظَنَّت كازو أنها منطقة مقابر.

لا تعطي قاعدة تاتشيكاوا العسكرية التي تُرى من هنا، أي شعور بطيف المدينة الإنسانية، فقط يُظن أنها تجمُّع عملاق لمعادن باردة تلتصق بخط الأفق. ثم بعد ذلك ثمة غيوم متنوِّعة في السماء الرحبة. وكلما علَت الغيوم الأقرب للأفق مركَّزة وصلدة، صارت حوافُّها مبهَمة، وتبدو وكأنها دخان لا شكل له ولا هيئة. ثَمَّة قطيع من الغيوم، وفي المكان المتوسط بينهما يظهر الجزء العلوي مظلَّلًا بالأشعة الحافَّة المضطربة، ويظهر الجزء السفلي ظلالًا محددة تُشبه المنحوتات. تبدو تلك الغيوم فقط، على العكس، وقد فقدَت الإحساس بالواقع وبدَت وكأنها أوهام غيوم تنعكس ببراعة في السماء.

وهكذا أنتجَت أشعة لحظة من ظهيرة نهاية الربيع، بمهارة منظرًا مؤكَّدًا بدقة مُرِيبة لا يمكن أن تراه العين مَرَّة أخرى. لم يَتحلحل منظر خط الأفق هذا وكأنه مُوثَق بوثاق حتى عندما أظلمت فجأة غابة أشجار الأرْز القريبة التي حجبتها الغيوم.

... من خلال تلك المناظر بالطبع لم تتلقَّ كازو أي انطباع إنساني. بل شعرَت بشيء غير مادي وغير عضوي جميل عملاق يواجهها. إنها طبيعة تختلف تمام الاختلاف عن حديقة ستسوغوان، ولم تكن لوحة دقيقة وجميلة وتنتمي للبشر يمكن أن تحتويها يد الإنسان. ورغم ذلك كان من المفترض أن النظر إلى تلك المناظر من عَلٍ عمل سياسي. إن عمل السياسي هو النظر من أعلى وتلخيص الأمر والسيطرة عليه.

لم يكن قلب كازو يتناسب مع التحليلات، ولكن على عكس الحلم السياسي الذي أَودعَته جسدها المكتنز الذي يفيض بالشغف والدموع، سَخِر الجمال الذي أسكنه ذلك المنظر في عيون كازو في لحظة، سخرية شديدة وكأنه يُلمح إلى عدم مناسبتها للعمل السياسي.

وقتها خَرَق أذن كازو صدى الطبلة خَلْفَها وصوت المسَجِّل الصارخ بصوت الغناء، ثم الكورس بأصوات الناس المتعدِّدة للفولكلور الشعبي الياباني ليوقظها من الحلم. ثم انعكست في عينيها لأول مرة ألوان بهرجة قناديل الظهيرة التي عُلِّقت في كل مكان. التفتَت أوجه تلك القناديل حول أغصان شجر القيقب المتراصَّة التي قد زينها الكثير من الزهور الرقيقة بلون عنابي في أطراف الأوراق اليانعة اللينة.

فجأة جذبت كازو يد يامازاكي ثم قالت وهي تدخل:

«حسنًا هيا بنا ندخل من هنا. هيا ندخل ونرقص معًا.»

قال نائب العمدة:

«هذا أمر مدهش! يا سيدتي!»

لم تَعُد عين كازو ترى المنظر. أرشدها مدرِّب الرقصات فتسلَّلَت ودخلَت من بين جماعة الرقصات الشعبية. فتيات الحي وربَّات البيوت اللائي شكَّلن المحور الرئيس لنقابات الفن الشعبي رَقَصن وغَنَّين أغنية «ميتاكيسوما» وهُنَّ يَلبَسن جميعهن المعطف النصفي الموحَّد. وتعلَّمت يدَا وقدمَا كازو طريقة الرقص تلقائيًّا من هؤلاء النسوة.

قالت كازو ذلك وهي تضرب بيدها كتف بذلة يامازاكي الذي كانت حركات يديه وقدميه مخطئة من البداية للنهاية في جميع الاتجاهات:

«أنت مريع حقًّا. سأقفُ أمامك فتعلَّم مني.»

قال مدرِّب الرقصات وهو يرقص:

«أنتِ عبقرية يا سيدتي، لا حاجة لكِ بأي تعليم مني.»

وقف نائب العمدة خارج حلقة الرقص، يشاهد الأمر في ذهول.

وفي النهاية كان الاثنان الجدد اللَّذان لا يرتديان المعطف النصفي ويبدوان من المدينة مَحطَّ اهتمام الراقصِين. كانت كازو قد سَكِرت بالفعل. نسيت كازو على الفور نفسها واستطاعت الانغماس تمامًا في الرقص وقد ذابت داخل تلك الأشياء الإنسانية، عندما تلامسَت مع أجساد أولئك النسوة اللائي يرقُصن وشمَّت رائحة ذلك العرَق الذي يرشح منهن تحت أشعة الشمس. لم تشعر هنا بأي حاجز بينها وبين هؤلاء الغرباء في تلك الأرض التي تجيئها للمرة الأولى، وعلى المنصة العالية تتوالى ضربات الطبلة العنيفة، وصوت صرخات أغاني المسجل، بهذا فقط توحَّد جسد كازو مع الراقصِين في ذلك المكان، العرق الذي رشح في لمح البصر على خدودها، لم يَعُد عَرَقها وحدها.

بعدما انتهت إحدى الأغنيات ذهبت كازو إلى نائب العمدة مسرعةً وقالت له:

«إنني في غاية السعادة، لدرجة أنني سأُغنِّي أغنية سادو أوكسا. هناك ميكروفون على المنصة أليس كذلك؟»

تجمَّعَت وجوه ربَّات البيوت الريفيات بكثرة حول كازو. الأغلبية منهن تخطَّين منتصف العمر، ووجوههن توحي براحة امتلاك القليل من المال، ولكن العَرَق قد جعل مساحيق تجميل الاحتفال تنهار، فظهرت البشرة التي تشبه الجلود التي لفحتها أشعة الشمس أثناء عملهن في بداية عمرهن. العيون الصغيرة التي ملأها الفضول، والابتسامات الودودة من الأسنان الذهبية، شعر القفا الذي تَجعَّد، كانت كازو تملك ثقة مُطلَقة في نفسها تجاه تلك الوجوه.

اندس نائب العمدة من بين زحام الناس، ورافق كازو في الصعود إلى المسرح، كان السُّلم شديد الانحدار ولكن كانت مثل هذه الكمية من الخطورة تسبب لكازو السعادة.

نادى نائب العمدة على الناس من خلال الميكروفون قائلًا:

«أيها السيدات والسادة، تَزورُنا اليوم السيدة زوجة السياسي الشهير يوكن نوغوتشي من حزب الإصلاح التي جاءت خصوصًا من طوكيو لمشاهدة احتفال الفن الشعبي. ويسعدنا أن تغني لنا أغنية سادو أوكسا.»

تقدمت كازو لتقف أمام الميكروفون وقامت بتحية الجمهور.

«أنا زوجة يوكِن نوغوتشي. لقد سعدتُ كثيرًا أثناء ما كنت أشاهدكم تستمتعون، ورغبت في الغناء لكم وإن كان صوتي ليس جيدًا. هيا جميعًا ارقصوا على غنائي.»

صَفَّقَت كازو بيدها لتعلم عازف الطبلة الشاب إيقاع الأغنية، وعندما شاهد الجمهور في الأسفل ذلك ارتفع صياحهم، ولكن عندما بدأت الغناء عاد الهدوء وبدءُوا في الرقص كأنهم في حالة استرخاء.

«آها
إلى سادو، حتى العشب والشجر يتمايلون تجاه سادو،
يحلو السكن في سادو، ويحلو العيش،
عيوني تلمع بالدموع عندما أتذكر الماضي،
والقمر الغائم في ليل مروج الحب.»

ظلَّت كازو حتى غروب الشمس، تنزل من فوق المنصة لترقص، ثم تصعد للمنصة لتغني. وصعد عدد من أعضاء نقابة الفنون الشعبية المنصة مع كازو لتعليمها أغنية أوتاما المحلية التي كانت تغنيها للمرة الأولى في حياتها.

مع غروب الشمس أُشعلت في وقت واحد كل القناديل المعلَّقَة على أفرع الأشجار في جميع أنحاء الحديقة. طُلب من كازو غناء سادو أوكسا للمرة الثالثة، فصعدت للمنصة بمفردها مرة أخرى. ومع إضاءة القناديل، بدت الجبال السوداء المحيطة أكثر قربًا. بعد انتهائها من أغنية أوكسا للمرة الثالثة، انطلق تصفيق حارٌّ يَندُر حدوثه في مثل هذه الاحتفالات لِيتردَّد صداه في سفح الجبال المحيطة. صعد يامازاكي إلى المنصة في عجلة وهمس في أذن كازو بما يلي:

«إنه نجاح ساحق. إن أعضاء القسم النسائي من نقابة الفنون الشعبية يقولون إنهن لم يدعنك تذهبين الليلة. لقد نلتِ إقليم سانتاما أخيرًا.»

– «حقًّا!»

قالت كازو ذلك وهي تمسح عرقها بمنديلها ناظرة إلى الجبل البعيد.

«من المؤكَّد أن الإرهاق نال منكِ.»

– «لا، ليس إلى هذه الدرجة.»

أثناء غنائها كان سفح الجبل البعيد هو الذي يشد انتباهها. فقد كان به نقطة نيران تظهر ثم تختفي في جسد الجبل الأسود الذي يبدو على مَقرُبة أكثر من الحقيقة. إنها رفيعة على وصفها بلهب، ومن وقت لآخر يهب هباب رماد عاليًا، من إحدى طيَّات الجبل الذي لم يكن يظهر به أي بيوت سكنية عندما نظرت إليه في الظهيرة، تلك النيران المبهرجة، تنير المنطقة حولها قليلًا ثم تنطفئ مرة أخرى. عند النظر بانتباه، رأت دخانًا يصعد من هناك في اتجاه مائل، ويصنع طبقات من الدخان حتى يصل إلى قمة الجبل.

«ما هذه النيران؟»

سألَت كازو عازف الطبلة الذي كان قد خلع رداءه الأعلى وأخذ يسمح عرقه.

«تقصدين تلك، ترى ما هذه النيران؟»

توجَّه العازف بالسؤال لشاب آخر.

«تلك؟ إنها مدخنة محرقة الجثث التابعة لبلدية المدينة.»

هكذا أجاب ذلك الشاب الذي يحمل وجهًا وقحًا بلحم عريض بلا مبالاة. تذكرت كازو بشيء من مشاعر الحلاوة زوجها نوغوتشي، وكذلك مقبرة عائلة نوغوتشي.

الفصل الثاني عشر

صدام

تناقصت مع الأيام أعداد زبائن ستسوغوان. أولًا غينكي ناغاياما لم يَعُدْ يأتي. وفي آخر مرة جاء فيها تناثرت شرارات اللَّهب بينه وبين كازو التي ظهرت في القاعة.

قال غينكي ذلك بابتسامة ساخرة:

«يبدو أنك تفعلين ما يحلو لك.»

– «عن أي شيء تتحدث؟»

– «ولكن احذري فالناس يقولون إن العدوَّ يلبدُ في معبد هونوجي.»

– «ما زلتَ تتحدث بالألغاز أكثر وأكثر.»

– «لا أتحدث عن حبك زوجك، بل أقول لا يجب أن يصل الأمر بك إلى ذلك الحد.»

– «حقًّا؟ لقد كنتُ أعتقد أن المرأة إن وقعت في الحب فمن السهل عليها قتل إنسان.»

– «لا مانع من قتل إنسان. ولكن ثمة ما هو أسوء من ذلك. لقد بعتِ معرفتنا للأعداء.»

– «متى بعتُ أنا أسرارك؟»

– «لم أقل أسرارًا. قلتُ خبرتنا وحكمتنا. إن ما تفعلينه يُعلم حزب الإصلاح الناشئ حكمة شريرة. تلك الحكمة التي كنا نحن فقط من يمتلكها.»

– «إن ما علَّمْتَني إياه من حكمة ليس بتلك الأهمية.»

– «حسنًا، من الواضح أنه لم يفلح معك أية محاولة لإيقافك بما عُرف لك من صفات شخصية. افعلي ما تريدين فعله. ولكن مخالفة حزب الإصلاح لقانون الانتخابات لا يمكن غَض الطرف عنها. خذي حذرك لذلك. لقد انخفضت الأخطار التي انهالت علينا حتى الآن بفضل عدم وجود مال لديهم.»

سكت غينكي وقد تَغيَّر لون وجهه. وقد فكَّر أن الوقوف من مقعده على الفور ومغادرة المكان سيكون تصرفًا طفوليًّا، ولكنه غادر أبكر من المعتاد بعد أن أجرى سلسلة من الأحاديث الفاحشة مع الضيوف. وعندما كانت كازو تُودِّعه في الممر عند رحيله، لَفَّ غينكي ذراعه حول كتف كازو وضرب ضربتين خفيفتين على ثديها. كان استخدام إيحاءات جنسية كئيبة مثل هذه حاسمًا في إبعاد قلب كازو عن غينكي.

عندما استُدعي يامازاكي في اليوم التالي وذهب إلى ستسوغوان، كانت كازو تتلقى تدليكا في غرفتها الخاصة وهي ترتدي ملابس داخلية خفيفة فقط وكانت بلون وردي فاتن، مما أدهش يامازاكي. ولكن موقف كازو الإباحي ذلك الذي يمكن أن يُخطئ حسب الشخص على أنه إغواء كان يامازاكي يعرف منذ وقت طويل أنه يدلُّ على استرخاء كازو أمام الرجل الذي لا تُكِن له حبًّا عاطفيًّا. وعندما كان الفخذ يُدلَّك أيضًا اختل طرف الرداء الوردي فظهر جزء من فخذها الأبيض الناصع. كان ذلك الفخذ سلسًا وينبع من عمقه بريق ولا يبدو مطلقًا أنه فخذ امرأة في منتصف الخمسينات من عمرها. كانت كازو تُظهر ذلك الفخذ هناك بلا أية مبالاة.

«ماذا تريدين؟ أرجو منك الإسراع قبل أن أخطئ الفهم.»

– «لا أريد شيئًا. ولكنني استدعيتك لكي تطمئن.»

أنهضت كازو جسدها بلطافة وهدوء وكأنها فوق مركب صغير يهتز.

«أرجو منكَ أن تطمئن. فأنا مهما فعلتُ لن يُقبَض علي.»

– «تُرى لِمَ؟ إن رئيس اللجنة المركزية نفسه قلقٌ من ذلك أشد القلق.»

– «لقد قمت بعملية تهديد. وبذلك أصبح الأمر لا يسبب قلقًا.»

عدَلت كازو من جسدها وولَّت ظهرها تجاه يامازاكي دون أن تنتظر رده، ثم أضافت القول والمدلك يدلك لها ذراعها:

«وبعد ذلك لقد قَبِلتُ عمل الوليمة الخاصة بنقابة العمال، التي طلبتها مني منذ فترة. ولكن يجب أن يكون السعر الذي أقوله أنا.»

– «سأكون شاكرًا لك ذلك، ولكنني مَهما قلنا من عائلة فقيرة.»

– «ولكن إن كان السعر ٣٠٠ ين فهو معقول، أليس كذلك؟»

– «٣٠٠ ين؟»

لقد اندهش يامازاكي لرخص السعر الشديد.

«أَجَل ٣٠٠ ين؛ فَهُم من السادة الذين سأكون من الآن تحت رعايتهم وعنايتهم، فأنا أريد أن أدعوهم مجانًا، ولكن إن فعلتُ ذلك فأضع عبئًا على مشاعرهم، بالطبع سأُقدِّم لهم أفضل أنواع الطعام والشراب.»

ولقد حصلت كازو من حوار ذلك اليوم على ثمار غير متوقَّعة. فالحديث الذي تحدث به يامازاكي معتقدًا أن كازو تعرفه منذ وقت طويل، كانت كازو تسمعه لأول مرة. وهي أن نوغوتشي قبل نهاية الحرب بأشهر قليلة، رَفع إلى جلالة الإمبراطور اقتراحًا لإحلال السلام، سعدت كازو كثيرًا بذلك، ووبَّخَت يامازاكي قائلة له لِمَ سكَتَّ كل هذا الوقت.

اقترحَت كازو أن يُكتب ذلك على الفور في كُتيِّب الدعاية. ولكن فعل ذلك الأمر بدون علم نوغوتشي جعل يامازاكي يتردَّد، ومن المؤكَّد أنه لو تحدَّث إلى نوغوتشي فسيعترض من البداية. وبدَا أن شجاعة كازو في أَخْذ القرارات الجريئة دون علم نوغوتشي لا تعرف لها حدودًا. قالت كازو ما يلي بمنتهى البساطة:

«من المؤكَّد أنه ليس هناك حاجة لمناقشة الأمر مع زوجي. فما من مادة مفيدة لتلك الدرجة. واستخدامها في الأول وفي الآخر من أَجْل زوجي، أليس في جعل هذه المادة السيدة نائمة هو من قبيل الإهمال وعدم الفطنة؟»

وفي نهاية الأمر خضع يامازاكي لها، وفوق ذلك وكفكرة مريبة لن تجعلها تنام الليل على أي حال، جعلته كازو يوافق على طباعة نصف مليون نسخة من تقويم عليه صورة نوغوتشي. كان سعر النسخة الواحدة من التقويم أربعة يِنَّات تقريبًا، ويجب أن يكون التصميم جديدًا ومبتكَرًا. وتُوزَّع على النقابات العمَّالية المختلفة، وتُوزَّع يدًا بيد على نقابات المعلِّمين، ويصل الأمر على الأرجح أن تُعلَّق على جدران بيوت التلاميذ ... تحدَّثَت كازو عن تخيلاتها تلك بالتفصيل وكما هي العادة نَسِيَت مرور الوقت ... على الأرجح سيعلق التقويم على ألواح جدران الورش الصناعية الصغيرة وجوانب ماكينات الخياطة وغُرف مذاكرة الأطفال. وعلى الأرجح سيظهر اسم نوغوتشي حتى في الحوار الأسرِي على مائدة العشاء. «ما اسم هذا الرجل؟» «اسمه كِن نوغوتشي، ألا تعرفه؟» يجب أن تكون صورة نوغوتشي مبتسِمة دائمًا. يا لقلة صوره المبتسمة! يجب أن تُظهر صورته ابتسامة راقية لرجل في بداية الشيخوخة يحمي العديد من موائد الفقراء. يجب أن يستقبل بوجهه البخار الساخن المتصاعِد من تلك الموائد. يجب أن تنبعث ابتسامة نوغوتشي متسلِّلة إلى كل الأماكن الممكنة. على مقربة من قفص الطيور، وبجانب التلفزيون، تحت ساعة الحائط القديمة، وفوق السبورة السوداء الصغيرة التي كُتب عليها متطلَّبات المطبخ من خضروات

وأسماك إلخ مباشرة، وبجوار خزانة الملابس التي تنام القطة فوقها. ثم يجب أن يمزج الناس في وقت ما هيبة شعره الفضي وابتسامته مع ذلك العم الذي يحن إليه الجميع الذي كلما جاء في الماضي أعطاهم الحلوى ومسح على رءوسهم. تُوقع تلك الابتسامة ذاكرة الناس في فوضى وحيرة، ويُبعث للحياة من جديد شبح إحساس العدالة الماضوي الممتلئ تمامًا بالعواطف، اسم السفينة القديم التي دخلَت الميناء، يصبح هو اسمها في المستقبَل كذلك عندما تغادر الميناء، يصبح اسم نوغوتشي اسم المستقبَل الذي يحطم الحائط الفقير الباهت.

أضافت كازو: «حتى وإن نهضَت القطة مستيقظة تتمطَّى ستحك ظَهْرَها في وجه تقويم نوغوتشي. وعندما تملُّ القطط منه، ينظر كبار السن إلى ابتسامته تلك. وليس هناك وقت تبدو فيه تعبيرات ذلك الإنسان كابتسامة تسامح يُحن إليها في مثل ذلك الوقت.»

وعند وقت عودة يامازاكي همست مضيفة:

«لا ضرورة للقلق من ناحية المال. فلقد جمعت خمسة وعشرين مليون ين بعد أن رهنت ستسوغوان.»

أعطت كلمة يامازاكي التي قال فيها: إن حزب الإصلاح ونقابة العمال لهم خبرة بالانتخابات حتى ثلاثة ملايين صوت فيما سبق ولكن عندما يتعاملون مع خمسة ملايين صوت، ما من خطة لهم للقتال ويحتارون أشد الحيرة؛ ثقة مؤكَّدة لكازو، وأصبحت تفكِّر أن الانتخابات هي الوظيفة التي وهبَتها لها السماء. فهي لعبة تستخدم القوة الروحية كلها جاعِلَة الفراغ طَرفًا لها لتلك الدرجة، وهي سلوك مقامرة بلا انقطاع متوجهًا إلى شيء لا يقين فيه في أي مكان. وأحسَّت أنها مَهما انفعلَت واستثارت مشاعرها فلن تكفيها الإثارة، وأنها مَهما هدأَت وبردَت مشاعرها فلن يكفي البرود، ولم يكن هناك معيار لأي منهما. كانت كازو تَتجنَّب شيئًا واحدًا هو الخوف من فكرة: «أليس في ذلك إفراط؟» وكان يامازاكي في هذا الشأن يثير الخجل والتبرُّم، فأكثر أعضاء حزب الإصلاح خبرة في الانتخابات في غفلة من الزمن أصبح ينبهر من طريقة كازو المبالغة في أي شيء.

عادت كازو إلى ستسوغوان في غروب يوم مُظلِم استمرت الأمطار تهطل فيه طوال اليوم، فرأت أقرب العاملات إليها ثقة وقد شحب لون وجهها.

«إن سيدي بالداخل.»

– «أين؟»

– «ينتظرك يا سيدتي في غرفتك.»

– «ولِمَ جعلتِه يصل إلى تلك الغرفة؟»

– «لقد حضر فجأة منذ قليل ودخل من نفسه مسرعًا إلى الغرفة.»

تسمرت كازو دون وعي منها في مكانها دون حركة. إنها المرة الأولى التي يأتي فيها زوجها إلى ستسوغوان دون إعلان مسبق، ولكن الأمر الذي جعلها تصاب بالرعب هو أن الغرفة المجاورة لغرفتها تتراكم فيها جبال من التقويمات والكتيبات التي انتهت طباعتها.

تَسارَع نبض قلب كازو بعنف وظلت واقفة دون حتى أن تخلع معطف المطر المبلل. تحت إضاءة مصباح مدخل المطعم من الداخل، أحسَّت كازو أن ملامح وجهها مرعبة. فقد ظل الخادم العجوز الذي حمل لها المظلة يحملق في وجهها ونسي أن يطوي المظلة.

فكَّرَت كازو في داخلها في كافة الأكاذيب المتاحة. إن الهروب من الموقف بالقول المرح هي موهبة حبَتها بها السماء، ومَهما واجهت مواقف صعبة، رغم أن كازو التي تستطيع على الفور ترقيص جسدها، فمثل طائر السنونو الذي يطير مخترقًا الباب خلف الإفريز الضيق، ولكنها اعتقدت أن عدم قول أي شيء هو الطريقة المثلى للهروب من هذا الموقف بالذات. فليس هناك أي شك في نيتها الحسنة بشكل جذري، ومع أنه ليس هناك بشكل جذري أي إحساس بتأنيب الضمير، كان نوغوتشي أكثر الأشياء رعبًا بالنسبة إلى كازو.

بدأت كازو أخيرًا تخلَع معطف المطر، ونظرت للخلف تجاه الأمطار التي تنساب هاطلة على الأرض المكشوفة التي بين البوابة الخلفية والمدخل الداخلي. تضرب الأمطار زهرة الرمان الحمراء. لقد فتحت الزهرة في وقت مبكر جدًّا بسبب دفء الطقس هذا العام. خارج الباب الذي أوشكت الأمطار على التوقف يشتعل ذلك اللون فقط بعنف، عندما رأت كازو ذلك هدأت مشاعرها إلى حد ما.

وضعَت كازو ركبتيها على الأرض بجوار باب غرفتها وقالت:

«لقد عدتُ الآن.»

كان نوغوتشي واقفًا كما هو بالزي الياباني التقليدي وقال وهو يركل بقدمه طرف قدم كازو الموضوعة ركبتاها على الأرض:

«سنعود للبيت حالًا. هيا.»

وبدأ السير في الممر متقدِّمًا إياها. فجأة تذكَّرت كازو التي رأت التقويم والكتيب المطوي على اليمين من المنظر الخلفي لظهر نوغوتشي الذي يعبر الجسد النصفي من الممر متقدمًا إياها، تذكَّرت منظر ظهره في أول لقاء بينهما، فأحسَّت بمشاعر حادة معقَّدة ومختلطة بين الحزن والحب، وفكَّرت أن كل ما فعلت بإرادتها هو قدرها التعيس، وسارت خلفه باكية.

ووقت خروجها من البوابة كذلك، لم يُظهر الخدم الذين اعتادوا على الدموع على وجوههم أية شكوك، وأطبق نوغوتشي فمه في عناد. حتى حي شينا ظلَّت كازو تبكي ولم ينبس نوغوتشي بحرف.

وبعد العودة للبيت، اصطحب نوغوتشي كازو إلى غرفة المكتب صامتًا، وأغلق عليهما الباب بالقفل من الداخل. بدا أن غضبه مشتعل، ارتفع الغضب مثل صخرة شديدة الانحدار، ولم تكن هناك وسيلة لتسلقها.

«هل تعرفين لِمَ ذهبتُ إلى ستسوغوان؟»

هزت كازو رأسها وهي تبكي كما هي. طريقة هز رأسها تلك، كان بها غنج خفيف رغم أنها كانت تعتقد بعدم ملائمة ذلك للموقف. وعندها فجأة شدَّت فكيها. وسقطت كازو على السجادة منهمرة في البكاء.

قال نوغوتشي بنبرة صوت متحفِّزة: «هل تعرفين؟ لقد جاء اليوم اتصال هاتفي من المطبعة إلى البيت، وأنا الذي رددتُ عليه. يطلب دفع ثمن التقويم؛ لأن الحساب لم يُدفع بعد، وقال: زوجتك هي التي طلبَت، وفي نهاية بحثي على الأمر علمتُ أنه كله من تخطيطك. وعندما ذهبتُ إلى ستسوغوان، رأيته ممتلئًا بالتقويم. ما هذا؟ انطقي ماذا يعني ذلك؟ أيتها الوقحة!»

قال نوغوتشي هذا ثم لطم وجه كازو بالكتيب عدة مرات. لقد تشاجرَت كازو مع زوجها مرات عديدة، ولكنها لم تتعرض لمثل هذا من قبل. وعندما نظرَت إلى أعلى وهي تُضرب، كانت أنفاس نوغوتشي تلهث، ولكن لم يكن وجهه مشوهًا من الغضب. لقد جعل هذه الجنون الهادئ جسد كازو يرتعش من الرعب.

«لقد لطختِ وجه زوجك في الوحل. وهو أمر يليق بك فعله. لقد لوثتِ تاريخي الناصع بمنتهى المهارة. خسئتِ! يا للعار! هل أنتِ سعيدة بجعل زوجك أضحوكة المجتمع؟»

وهذه المرة أخذ يدوس على جسد كازو القابع فوق الأرض دون أن يهتم أين يدوس، كان وزنه الخفيف ذلك عديم القوة تمامًا، ترتدُّ قدمُه تلك من مرونة جسد كازو الوفير الذي أخذ يدور فوق الأرض وهي ترفع صوتها بالصراخ. وعندما هدأ نوغوتشي على المقعد خلف مكتبه، أخذ يتأمل منظر كازو النائمة وهي تصرخ باكية.

كان توبيخ نوغوتشي تقليديًّا من عهد قديم مصاحبًا للقول ويجسد إحساس العدالة القديم جدًّا. كان غضبه يحمل شكلًا مهيبًا، وكانت كازو في داخلها تعشق غضب الرجل العتيق الطراز بهذا الشكل. كانت كازو على وشك فقدان الوعي من الألم والسعادة، ولكنها

فكَّرت بتأنٍّ بعقلها الذي على وشك أن يفقد وعيه أن نوغوتشي رجل يصبح على الفور أعمى وأصم بعد أن يغضب غضبته ويُحرِّم ما يجب تحريمه. وأثناء تكرار تلك الفكرة، أصبحت كازو مرة أخرى متسامحة تجاه نفسها أكثر من تسامحها تجاه نوغوتشي ذاته.

ومع ذلك كان صوت كازو مثل الوحوش، ترجو الغفران وهي تصرخ، وتولول بكل ما هو متاح لها من كلمات الاعتذار. تهدأ بعد أن تفقد وعيها، ثم تَترجَّى الغفران مرة أخرى بصوت أعلى مما سبق. استمر تعذيب نوغوتشي لها طويلًا؛ ولأن كازو كانت بلا شك استخدمت كمية كبيرة من الأموال في الفترة السابقة، قال لها إنها لن تخرج قبل أن تعترف بكل شيء. قالت كازو ما يلي بما يشبه الهذيان:

«أموال ادخرتها بنفسي ... استخدمتُها من أَجْلِك ... كلها من أَجْلِك أنت ...»

سمع نوغوتشي ذلك ببرود وسكينة. ثم أظهر وضعية عدم الرغبة في سماع أية أعذار، ثم أخرج من رف المكتبة كتابًا غربيًا وقرأه موليًا وجهه بعيدًا عن كازو.

تتابعت فترة طويلة من الصمت. ضوء مصباح المكتب فقط مد من دائرته، بخلاف صوت الأمطار وصوت تقليب نوغوتشي صفحات الكتاب الغربي من وقت لآخر، لا يُسمع إلا صوت أنفاس كازو المضطربة. كان هناك ليل غرفة المكتب الهادئة، وما من شيء إلا امرأة في بداية شيبتها ترقد على الأرض بجسدها الغني وأطراف ثيابها المضطربة. عرفت كازو بصعوبة من إضاءة مصباح المكتب الباهتة أن فخذها ظاهر من طرف الثوب، وأنها تتعرج مع أنفاسها اللاهثة. عرفت كازو بيقين أي مكان من جسدها قد تعرَّى من خلال أنه أصبح متخدِّرًا بسبب إصابته بالبرودة تدريجيًّا. تعتقد أن تتعرض للرفض كافة، الأجزاء البيضاء المبهمة من فخذها، بهذا التخدر وتلك البرودة التي تحبها بنفسها تلك الفائدة التي ليس بها أي شك. شَعرت كازو من خلال ذلك التخدُّر، وكأن رفض نوغوتشي لها قد اقتحم جسدها كله من الداخل.

أصلحَت كازو أخيرًا أطراف الثياب المضطربة، واعتدلَت في جلستها، ثم لمسَت السجَّادة برأسها، وأعلنَت أنها سَتعتَرِف بكل شيء. وقالت كل شيء بالكامل من أول وضعها ستسوغوان رهنًا.

«لا حيلة فيما انتهى من أمر، ولكن عليكِ من يوم غد الإقامة الدائمة هنا وإغلاق ستسوغوان. أتسمعين؟ ولا تخرجين خطوة واحدة خارج هذا البيت.»

– «هل أغلق ستسوغوان؟»

– «أجل. وإن لم تسمعي ما أقول، فليس أمامنا إلا الطلاق.»

كانت تلك الكلمة أكثر رعبًا من أية ضربات. فُتح ثقب مظلم عملاق أمام عينيها. «إن طُلقت ... لن يزور قبري أحد» ... عندما تفكر كازو في ذلك تصبح مشاعرها قادرة على دفع أي ثمن.

الفصل الثالث عشر

عقبة في طريق الحب

نتيجة ذلك الشجار، توصَّلَت كازو إلى خلاصة أنها ليس أمامها إلا بيع ستسوغوان. ستسوغوان الذي من السهل استخدامه كمادة للدعاية المضادَّة بأن يكون مصدرًا للشائعات، والأهم من ذلك أنه لم يكن في ذهن نوغوتشي إلا مَعقل الأفعال غير المرغوب فيها من زوجته. لقد غضب نوغوتشي من وضع كازو ستسوغوان رهنًا دون علمه، واستخدَمَت تلك الأموال في أنشطة الدعاية قبل الانتخابات، إن كان الأمر كذلك وهذه المرة أصبح نوغوتشي يفكر في أنه يجب قطع دابر الشرور، بعرض ستسوغوان للبيع، وتوجيه تلك الأموال للدعاية الانتخابية توجيهًا قانونيًّا. فلقد عرف نوغوتشي لأول مرة أن الحزب بتلك الحالة من الفقر في الأموال.

أوكلَت كازو مُهمة بيع ستسوغوان إلى نوغوتشي. كان ارتباط كازو العاطفي بستسوغوان عنيفًا، ولم تستطع الكلمات التعبير عن حزنها لفراقه، ولكنها في النهاية اختارت مقبرة عائلة نوغوتشي ذات العفَن الأخضر بديلًا عن حديقة ستسوغوان الغنَّاء.

أصبحت فوضى ذلك البيع تعطي حجة عظيمة لكازو التي حُبست في بيت نوغوتشي لمرة لكي تعود إلى ستسوغوان مرة أخرى. وعندما عادت إلى ستسوغوان، لم تُهتمَّ كازو مطلقًا بترتيب المطعم، ولم تُخبر الحقيقة للعمال الذي قلقوا بشأن استمرار غَلِقه طويلًا، بل كانت تدعو يامازاكي كل يوم، وتتناقش معه في التخطيط ولا يهدأ لها بال بسبب عدم وجود أفكار جيدة تخطر على ذهنها، فتأمر على الفور بتجهيز السيارة للخروج. وهكذا ومع كل ذلك التوبيخ الذي نالته، فباستثناء غلق ستسوغوان، عادت حياة كازو اليومية لما كانت عليه تمامًا.

طلب نوغوتشي من محامٍ مُقرَّب إليه بيع ستسوغوان، فعثر فورًا على مشترٍ مأمول هو غينزو فوجيكاوا مالك مجموعة شركات فوجيكاوا، وتفاوَض محامي المجموعة مع

محامي نوغوتشي، واعتقد الجميع أن التفاوض يسير إلى نهايته، ولكن لم يقترب الطرف الآخر من مبلغ البيع الذي يصل إلى مائة مليون وتوقف عند خط الثمانين مليونًا فقط.

في أحد الأيام كانت كازو في ستسوغوان، فأخبرَتها العاملة أن غينكي ناغاياما على الهاتف. كانت نية كازو قطع علاقتها تمامًا مع غينكي فلم ترغب في الرد على الهاتف، ولكن وقتها كان يامازاكي بجوارها فشجَّعها على الرد قائلًا إنه من الأفضل الرد.

ومع أن كازو كانت قد وعدت يامازاكي بإطاعة كل تعليماته بالحرف إلا أنها لم يرُقها تدخله في هذا الموقف. وبعد أن دُفعت إلى الرد مباشرة تراجعت بضعة سنتيمترات فوق حصير التاتامي. المرونة الكامنة داخل الجسد السمين مثل مرونة فهد، جعلت عينَي يامازاكي تنبهران، ولكنها ظلَّت عنيدة الرأس، وتوجهت نحو الحديقة المبتلَّة في موسم المطر. كانت الحديقة رطبة ومخضرة.

«لِمَ أنت غاضبة؟ إنني فكَّرتُ أن الأفضل عمل ذلك فشجَّعتُك عليه فقط. هذا كل ما في الأمر.»

ظلَّت كازو صامتة، وتذكَّرت شفتَي غينكي السميكة بلونها البني المحروق. ثم بدت لها وكأنها تراكم أوحال نصف عمرها. ذلك الرجل التي تنضح قوة السلطة من جسده السمين، يشبه الذاكرة التي لا تريد المرأة تذكُّرَها، بل وتعامُل غينكي معها كأنها أخته الصغرى بدون أي تشاور معها، كان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بكبريائها الجريح في الماضي. مَهما وبَّخها نوغوتشي كانت كازو تحتفظ بنفسها في مكان آخر، ولكن عندما يضحك غينكي ساخرًا مرة، تشعر أنه يكشف عن أعمق أعماقها من الداخل، ... لقد كانت كازو تَكرَه طريقة إحساسها التي أحسَّت أن مكالمة غينكي الهاتفية في ذلك التوقيت هي إنقاذ لها.

نهضَت كازو واقفة، وخرجت من تلك الغرفة بهدوء. وجعلَت الخادمة تنقل الهاتف إلى غرفتها، وقالت: ألو، وهي تخفي سماعة الهاتف بجسمها. تحوَّل صوت السكرتيرة أخيرًا إلى صوت غينكي نفسه.

«ما الذي حدث؟ هل ما زلتِ غاضبة مني بلا تغيير؟ مَهما لاقيتُ من التوبيخ، فأنا أنوي أن أظلَّ إلى الأبد صديقك الوفي الحميم. أجل، أجل لقد سمعتُ أنك ستُغلِقين المطعم. ولكن على الأقل ستقدمين لي وجبة الأوتشازوكيه، أليس كذلك؟ فالعلاقة بيننا حميمة.»

– «إن صنعتُ استثناءً واحدًا فلن يكون ذلك إغلاقًا للمطعم.»

– «حقًّا! هل ستتوقَّفين عن الطبخ، وتفتتحِين ماخورًا من أجل الطبقة العاملة؟»

– «أجَل، أجَل؛ لأن الزبائن صغار السن ذوي الأجساد الفتِيَّة أفضل بكثير.»
– «أمر عجيب! يفترض أن عمر السيد زوجك قريب من عمري.»
– «أرجو أن تتوقف عن السخرية. وبدلًا من ذلك أَخبِرني ماذا تريد؟»
– «أبدًا، ألا نتناول معًا وجبة الغداء من وقت لآخر؟»

رفضَت كازو ذلك بصراحة قائلة إن وضْعَها الحالي لا يسمح لها بذلك مطلقًا. فقال غينكي: إن كان الأمر كذلك فلا مَفرَّ من الحديث عبر الهاتف، وقال لها ببساطة أمرًا في غاية الأهمية.

«إنني منزعج جدًّا من عناد نوغوتشي الصلب. لقد أبلغتُ نوغوتشي من خلال صديق (أنت تعرفينه جيدًا) أنه إن اختار نائب الحاكم من حزب المحافظِين، بهذا الشرط سينسحب المنافِس من الانتخابات (ألا ترين أنه عَرض لا يحلم به أحد؟) ولكن السيد نوغوتشي، كما هو دائمًا لا يستمع لذلك. إن هذا حديث جيد جدًّا، وإن قَبِل ذلك الشرط فقط، سيكون فوزه لا شك فيه؛ ولذا أرجو منكِ أنت أيضًا أن تحثيه على القبول ... وإن رفض ذلك العرض دعيني أحذرك سيصبح من الصعب بيع ستسوغوان. إنني أقول ذلك وفي نِيَّتي صالحك أنت.»

بعد أن سمعَت كازو كل ذلك أنهَت المكالمة على الفور. وعلى عكس حالها عندما أتت، كانت خطواتها التي تسير بها في الممر مُتعجِّلة سريعة. وبمجرد سماع صوت الأقدام تلك فقط، عرف يامازاكي أن كازو غاضبة.

بعد أن أغلقت كازو الباب خلفها، صرخت غاضبة وهي واقفة:

«أنت إنسان فظيع يا سيد يامازاكي! لِمَ لا تخبرني أن ذلك العرض الهامَّ قد عُرض على زوجي؟»

عندما تغضب كازو يقف حاجباها الرفيعان بالمقلوب، ويُغلَق فمُها على شكل مائل، ويبدو الحزام الذي تَلُفُّه منخفضًا قليلًا هو ورباط الحزام في هيبة مثل لوح صلد. ولم تربط رباط الحزام كما هو معتاد مائلًا، ولكن لأنها تربطه من الأمام تمامًا مثل الأرياف؛ ولذا فهي في تلك اللحظة تعطي ذلك الانطباع.

قال يامازاكي:

«حسنًا، حسنًا، أرجو أن تجلسي.»

شرح يامازاكي الأمر بصبر وتكرار في أذن كازو التي جلست بالجنب وأشاحت بوجهها بعناد مثل طفل صغير. قال لها: إن إدخال تلك المعلومات إلى أذنها لا يزيدها إلا حيرة، وأن النقطة الجوهرية في الأمر هي أن تتفرغ كازو لأنشطتها الخاصَّة بها. وأن

نوغوتشي لن يستجيب لمثل تلك الكلمات المعسولة من حزب المحافِظين، وإن حدث أن استجاب فسيكون لنصيحتنا نحن فاعلية أكثر من زوجته. وأن ما أسعد يامازاكي بشِدَّة من ذلك الاتصال الهاتفي هو أنه يُظهر أن أنشطة كازو قبل الدعاية الانتخابية قد أحدثَت آثارها وفي طريقها لأن تُهدِّد الخصم، وأن الخصم رغم أنه رشح فعلًا منافسًا اسمه غِن توبيتا، ولكن كان ذلك الاختيار بعد حيرة وعناء، وأن تلك المكالَمَة كشفَت بوضوح عدم امتلاك حزب المحافِظين الثقة في ذلك المرشَّح. وأنه في الواقع عدمُ استقالة حاكم طوكيو الحالي مع ضرورة استقالته، سببُه عدمُ تأييد رئيس الوزارة للاستقالة بسبب صعوبة اختيار مرشَّح حزب المحافِظين. وهنا من المؤسِف عدم استخدام نوغوتشي لمثل هذا العرض سياسيًّا، ولكن الأَوْلَوِيَّة هي عدم حيرة كازو، فلقد اتضح بالفعل أن نشاطها حتى الآن قد أتى بثماره …

شرح يامازاكي كل ذلك بعناية ومُثابَرة.

تألَّق وجه كازو فجأة مثل الحديقة التي سُلِّطَت عليها أشعة الشمس. وتأثر يامازاكي بجمالها الأخَّاذ وهو يتغيَّر فجأة. ويبدو أن ابتسامة ذلك الوجه طازجة وكأنها ابتسامة جديدة وُلِدت لِتوِّها الآن ولا يتَبَقَّى أي أثر ولو قليل للمشاعر التي كانت موجودة قبلها مباشرة.

«أوه حسنًا لنحتفل بهذا. لنشرب الليلة معًا نخب الاحتفال.»

وقفت كازو وفتحت الباب الفاصل واسعًا وقفَزَت بفرح إلى الغرفة الكبرى المجاورة. في أبعد مكان تقف لوحة جميلة للباب الفاصل رسمها الفنان كاغيه تاتيباياشي مقلدًا الفنان كورين لزهور السوسن البنفسجية متتالية على جسر فِضِّي مُعلَّق ومتعرج من الخيزران الرفيع؛ ولأن كازو فتحت كذلك باب الغرفة الواسعة المواجِهة للحديقة على مصراعيه، استطاعت عينا يامازاكي أن ترى ركن النبات الأخضر المستَمِر طُولًا في الحديقة من الحافة المبتلَّة لتلك الغرفة الصغيرة.

زاد جمال ستسوغوان الذي أُغلِق داخل منظر الغروب المبكِّر وسط الأمطار، عن ستسوغوان الصاخب بالزبائن. وكانت تلك الغرفة الواسعة كذلك مُعتِمة قليلًا، وتغرق في البرودة، وعلى العكس يمكن تأمُّل الأثاث والأبواب الفاصِلَة ذات الرسومات الفائقة الجمال. وعلى الرغم من أن المنظر الخلفي أصبح تقريبًا لوحة ظِلٍّ إلا أن كازو رأت في ذلك المبنى الضخم المهجور قوة النشاط الغابرة تتجمَّع في جسد واحد.

كانت كازو وهي تقف على طرف حافة الحديقة تتأمَّلها مثل ببغاء يقف فوق غصن الوقوف في قفصه، يمسك طرف جورب قدَمِها الأبيض فقط بحلق الباب في وضع خطر. مجرد أنها تفعل ذلك فقط، بدون سبب واضح.

تُحمِلق في أطراف قدميها تلك. وتقبع مُقلِّصة جسدها بصلادة بوضوح وبياض بين عتمة تلك الغرفة وحافَّة الباب الخارجي المبهمة، مثل حيوان صغير حادِّ الذكاء. تفتح ما بين أصابع قدمها. يبرز بياض جورب القدم مُظهِرًا تجاعيد تلمع. ثم من ذلك الوضع القَلِق غير المستقر، يدور التوتُّر المعتمِد على أطراف الأنامل فقط وينتشر خلال جميع أنحاء الجسد، وعلى ما يبدو يفور داخل الجسم شعور بالأزمة ممتع نوعًا ما. إن تحلَّل التوتُّر فالجسد كما هو، يُدفَن تمامًا ويختفي داخل النباتات الخضراء الرطبة بالأمطار فوق الحديقة المبلَّلة والأحجار المفروشة.

جاء يامازاكي إلى الغرفة الواسعة ورأى منظر كازو الخلفي وهو يهتز للأمام وللخلف في عدم استقرار مريب.

«ماذا حدث يا سيدتي؟»

ثم اقترب منها مندهشًا.

التفتَت كازو ناحيته وضحكَت مُظهِرة أسنانها البيضاء ثم قالت:

«لا تَقلقْ. فلستُ في عمر أُصاب فيه بجلطة دماغية. إنني فقط ألهو بهذا الشكل ... حسنًا لنذهب إلى الشراب.»

اصطحبَت كازو يامازاكي ودارَت معه على البارات والملاهي الليلية يشربان، وكان على يامازاكي أن يراقبها وهي تُوزِّع بطاقة الاسم العملاقة إياها حتى على النادلات والجرسونات بطرف عينه من وقت لآخر وهو غارق في السُّكر.

رفض نوغوتشي بصرامة عرض التَّسوية الذي عرضه حزب المحافظِين من خلال عدة طرق سرِّية مختلفة. ثم بعد أيام من ذلك جاء رد مفاجئ من محامي مجموعة فوجيكاوا بعدم قدرتهم على شراء ستسوغوان. وعندما سأل محامي نوغوتشي عن ملابَسات الأمر، قيل له إنه بسبب وجود ضغط من ساييكي رئيس الوزراء عليهم. لقد اتَّصَل ساييكي رئيس الوزراء فجأة بغِنزو فوجيكاوا وقال له:

«حَذارِ من شراء ستسوغوان الآن. قبل انتخابات هامة، إن فعلتَ مثل هذا الأمر، فهو إعطاء العدو الحراب التي يقاتلنا بها.»

استشاط نوغوتشي غضبًا عندما سمع ذلك. ولكن يامازاكي الذي لا يغضب مطلقًا قال: إن تلك فرصة جيدة لتبادُل القتال، وحثَّ نوغوتشي على ترتيب فرصة للقاء ساييكي رئيس الوزراء وجهًا لوجه. زار نوغوتشي رئيس الوزراء ساييكي الذي يَصغُره في العمر في مَقر إقامته، وبطريقة كلامه الرديئة البخيلة إياها، صبَّ جام غضبه على طريقة تدخُّل رئيس الوزراء الحقيرة حتى في تخلُّصه من ثروته الشخصية. ابتسم رئيس الوزراء ولجأ إلى حيلة دنيئة بأن ظلَّ ينكر ذلك تمامًا.

«ومع ذلك فهذه الحكاية مُفرِطة في دراماتيكيتها ولا يمكن تصديقها. هل يُعقل أن يتصل رئيس الوزراء بنفسه هاتفيًّا هكذا مثل سمسار العقارات؟ أريدك أن تفكر في الأمر بالمنطق. ألا تعتقد أن فوجيكاوا استخدم اسمي فقط لكي يجد سببًا مقنعًا لرفضه؟»

ولأن رئيس الوزراء عامَل نوغوتشي معامَلة كبار السن فعلًا حتى لقد حاول مساعدته على الجلوس والقيام من المقعد فقد لمس ذلك السلوك المتأدِّب هذه المرة كبرياء الدبلوماسي المخضرَم. ومع أن المؤامرة السريعة حقًّا هذه المرة يجب الإمساك بها مثل ملمس الحرير إلا أن ساييكي كان إنسانًا مثل الحرير. يا لك من إنسان صغير حقير. هكذا فكر نوغوتشي ... هوَّنت كازو من حالة نوغوتشي الذي عاد للبيت متعكِّر المزاج دون أن تقول شيئًا. لقد فُقد أي أمل في بيع ستسوغوان. ولقد تعبَت كازو كثيرًا من أجل إخفاء فرحتها تلك. وفكَّرت كازو أنها يجب أن تعوض خيانة المشاعر بعفَّة سياسية أكثر وأكثر.

الفصل الرابع عشر

الانتخابات أخيرًا

استقال حاكم المحافظة من منصبه في أواخر شهر يوليو، وأُعلن في الحال عن إجراء الانتخابات. وسُمح بإجراء الحملة الانتخابية الرسمية لمدة خمسة عشر يومًا منذ ذلك الوقت وحتى العاشر من أغسطس موعد التصويت. كان صيف ذلك العام شديد القيظ. اجتهدَت كازو مرة أخرى في أخذ قرضٍ ثانٍ بضمان ستسوغوان، فجمَعَت ثلاثين مليون ين. ثم افتُتح مكتب الحملة الانتخابية في الطابق الثاني لبناية «س» في حي يوراكوتشو.

وفي صباح يوم الإعلان الانتخابي الذي انتظراه طويلًا، تشاجر نوغوتشي وكازو مرة أخرى لدى مغادرَته البيت لإلقاء الخطاب الأول له في الحملة؛ فقد اقتنَت كازو من قبل قماشًا راقيًا ماركة جون كوبر وعانَت من أجل أن تجعل زَوجَها يسمح لِلحائِك أن يأخذ مقاساته. ولكن كَرِه نوغوتشي ارتداء تلك البذلة. وكان ينوي إلقاء أولى خُطبِه أمام الجماهير مرتديًا بذلة من الكتان إنجليزية الصنع اصفرَّ لونها بسبب مرور الزمن.

«سأخوض الانتخابات بصفتي الإنسان المسمَّى يوكِن نوغوتشي، وليس بصفتي مرتديًا ملابس راقية، أنا لن أرتدي هذا الشيء.»

بدَا لها أن تحت ذلك القرار الطفولي رعب ضيق الأفق بشكل مريع. ولكن مَن في مستمعيه سيُخمِّن عندما يرى البذلة الجديدة للرجل العجوز أن زوجته هي من أجبرَته عليها؟ حتى يامازاكي قال لها: «إنه يعاندكِ فقط يا سيدتي، لا تقلقي بشأنه، فقط اجعلي الحائك يصنع البذلة بنفس مقاسات البذلة القديمة.»

لم يكن من صفات كازو الاعتماد كثيرًا على مساعدة السماء وقت الحاجة، ولكن في ذلك الصباح استيقظَت في الرابعة صباحًا وأشعلت شمعة أمام المذبح البوذي. لقد قرَّرت أن تكسب زوجة نوغوتشي السابقة إلى صفها وتجعلها تتعاوَن من أَجْل إنجاح نوغوتشي.

تسلل من الحديقة بعوضٌ يبدو أنه ضَلَّ طريقه في ظلام الفجر وحامَ حول كفَّي كازو الملتصقَتَين أمامها.

تحدَّث قلب كازو إلى زوجة نوغوتشي الراحلة بنبرة صوت خالية من الإيمان:

«حسنًا، لنضع نحن النساء أيدينا معًا، لنتعاون من أجل إنجاح رجلنا بأي طريقة.»

بكت كازو قليلًا عندما أَحسَّت أن صداقة رائعة لم تعرفها في حياتها قَطُّ بين امرأتين على وشك أن تتحقق أمام أعينها سريعًا.

«أنتِ امرأة صالحة. امرأة صالحة حقًّا. أنا على يقين أنكِ لو كنتِ على قيد الحياة لأصبحنا صديقتين بالتأكيد!»

لسَع البعوض جسد كازو الغنِي هنا وهناك بكثرة. وتحمَّلَت آلام اللَّسع؛ لأنها اعتقدت أن ذلك يساعد بشكل ما في انتصار نوغوتشي. وهكذا ظلَّت كازو لفترة طويلة تتحدَّث مع الراحلة ساداكو نوغوتشي.

وأثناء ذلك سقط في الحديقة مع شروق الشمس أول شعاع عنيف ليوم صيفي. وبسبب كثرة الأشجار في الحديقة، كانت أوراقها تُخفي أشعة الشمس المتسلِّلة، فتبدو وكأنها مقطوعات ورقية طُبعت فوق الظلال في منتصف الحديقة. التفتَت كازو للخلف إلى انعكاس بياض صخور الحديقة فوق كتفيها، فأحسَّت كأن شمس الصباح تلك طائر كركي هبط من السماء، وأحسَّت كأن ذلك الشكل يمثِّل أجنحة الكركي المفرودة. ولم يكن ما قالته لنوغوتشي في إحدى المرات مازحة إن طائر الكركي يطير فوق الحديقة كذبًا. ولكنها قرَّرَت ألا تخبر نوغوتشي بذلك الأمر خوفًا من توبيخه، وهي تَعُد ذلك بشارة طيبة.

أخيرًا استيقظ نوغوتشي، وتناولَا وجبة الإفطار بلا كلام دون تغيير كما اعتادَا دائمًا.

أخيرًا تكلَّمَت كازو وقالت:

«ألا تتناول بيضًا نيئًا؟»

رفض نوغوتشي رفضًا قاطعًا بقوله:

«ليس هذا يوم رياضة بالمدرسة الابتدائية.»

كان لدى نوغوتشي غرور عظيم يتمثَّل في عدم تأثُّره العاطفي، وعلى الأرجح أنه تعلَّمه من الإنجليز، ولكنه كان يختلف عنهم بانعدام مهارة الضحكات الباردة وروح الفكاهة التي تدعم ذلك الموقف.

يتعمد نوغوتشي أن يبدو غاضبًا من أجل أن يُظهِر للجميع أنه محتفِظ بهدوئه النفسي.

جاء يامازاكي، ثم جاء بعده أعضاء الحملة الانتخابية. أخرَجَت كازو طِبقًا للخطة المُعَدَّة سلفًا، البذلة الصيفية الجديدة ووردة بيضاء من داخل صندوق الملابس أمام يامازاكي.

ألقى نوغوتشي نظرة سريعة على صندوق الملابس ثم قال:

«ما هذا؟ لن أرتدي مثل هذه الملابس.»

بكَت كازو مع أنها قد عزمَت على عدم الانفعال، وقالت له إنها تريد أن يتفهَّم مقصدها، مما جعل نوغوتشي يزداد عنادًا ولكن تَدخَّل يامازاكي سريعًا بينهما وهدَّأ الموقف. وأخيرًا مرَّر نوغوتشي ذراعيه في كمي البذلة الجديدة على كُرْه منه، ولكنه رفَض بعناد وضع الوردة في عُرْوَة البذلة.

جاء وقت مغادرة البيت، وودَّعه الجميع حتى البوابة، وعندها تأثَّرت كازو تجاه قميص نوغوتشي الناصع البياض وبذلته الجديدة، فمدَّت يديها تلقائيًّا لتعدل الياقة التي لم تكن بحاجة لأن تعدلها، فما كان من نوغوتشي ذي الحساسية الزائدة إلا أن قبض على يد كازو اليمنى بصرامة وهو يحرص على ألا ينتبه له أحد. كانت حركة بدرجة يُفسِّرها حتى الشخص القوي الملاحظة على أنها تعبير عن مشاعر حب مُتحفِّظة. ثم قال نوغوتشي بصوت خفيض:

«كُفِّي عن تلك الأفعال الصبيانية، فإنها لا تليق!»

وخطَفَت قبضة نوغوتشي الشيء الذي كان يختفي جيدًا في راحة يد كازو اليمني، بعد صراع خاطف بين أصابعهما، بسبب أصابعه الحادة القاسية. وكان ذلك الشيء أحجارًا من أَجْل طقس طق الشرار لجلب الحظِّ السعيد. لم تستطع كازو كبح جماح رغبتها في أن يغادر زوجها البيت أمام الجميع مودعًا بشرارة طق الأحجار، مع عِلمها التام بكراهية زوجها لذلك؛ لذا أَخفَت في يدها الأحجار. ولكن خَمَّن نوغوتشي أنها تُخفي الأحجار في يدها.

وبعد أن ركب نوغوتشي السيارة أعطى الأحجار إلى يامازاكي بصمت. أُخذ يامازاكي على حين غرة ولكنه على الفور استنتج الأمر. وسبَّب تدحرج الأحجار في جيبه إزعاجًا له طوال ذلك اليوم الحافل بالعمل.

ذهب نوغوتشي إلى مقر المحافظة وقدم أوراق ترشحه، وتسلم وشاح دعاية مكتوبًا عليه اسمه، ثم ذهب مباشرة إلى مكان إلقاء خطبة على الجماهير أمام بوابة «ياييس» لمحطة

طوكيو المركزية للقطارات. انعكست أشعة شمس الساعة التاسعة صباحًا الصيفية على الأقمصة البيضاء للجماهير التي تجمَّعَت في الساحة. حمل الكثير منهم مِرْوحة يدوية فوق رأسه. نزل نوغوتشي من السيارة، واستقبلَه بتبجيل كبار مسئولي نقابة العمال والمؤسَّسات المؤيِّدة له المنتظِرون قدومه بالقُرْب من سيارة الدعاية الانتخابية المخصَّصة لإلقاء الخطبة. صعد نوغوتشي فوق مُؤخِّرة سيارة الدعاية، وألقى تحية بملامح جافة:

«أنا يوكِن نوغوتشي، مرشح حزب الإصلاح لانتخابات حاكم طوكيو.»

ثم أثناء ترديده لأمثلة عديدة للسياسات المثالية التي يُؤمن بها بنبرة صوت رتيبة لا لون لها ولا طعم، تَعطَّل مكبِّر الصوت فجأة. استمر نوغوتشي في إلقاء خطابه دون أن ينتبه إلى تعطُّل مكبِّر الصوت، وفي تلك اللحظة، بدأ في الركن المقابِل من الساحة خطاب المرشَّح المنافِس غِن توبيتا، وأطلَق مكبِّر صوته العالي الجودة صوتًا واضحًا، فسيطر الصوت الذي ينتقد نوغوتشي وحزب الإصلاح على آذان الصفوف الأمامية من مَستمِعي نوغوتشي أنفسهم؛ ولأن إصلاح مكبِّر الصوت على الفور بدَا مستحيلًا، فقد تقرر العودة مؤقتًا إلى مَقرِّ الحملة الانتخابية، ثم الذهاب بعد ذلك للدعاية الانتخابية في حي كوتو. ويجب القول إنها كانت بداية غير موفَّقة مُطلقًا.

خابت آمال مؤيِّدي نوغوتشي من الشباب لخطابه الأول هذا، ووصل إلى سمع يامازاكي الموجود في مَقرِّ الحملة الانتخابية الحوار التالي:

«ألا يستطيع الرجل العجوز أن يتحدث بنبرة بها قليل من الحيوية؟»

– «إن الإلغاء الفوري لسباقات الخيول والدرَّاجات أمر جيد وصحيح، ولكن الدعوة له في أول خطاب عمل غير جيد.»

على الجانب الآخَر كانت خُطب كازو تجسيدًا للحيوية تُثير عاصفة من الإعجاب والتصفيق في كل مكان تذهب إليه لدى الجماهير التي جاءت لتستمتع. وأخيرًا ألقت كازو خطبة طويلة عريضة على مدى ثلاثين دقيقة في الساحة التي أمام محطة شيبويا، تحت شمس الغروب القاسية، وهي تضع تحت قدميها دلوًا ممتلئًا عن آخره بالثلج وتمسح وجهها من وقت لآخر بمنديل ملفوف داخله قطع الثلج؛ ولأنها كانت تتحدث بطبقة صوت عالية وقد ألصقت مُكبِّر الصوت بفمها أكثر من اللازم، فلم يُسمع صوتُها جيدًا، ولكن استمتَعَت الجماهير بتلك الحالة من الحماس وكأنها بائع متجوِّل يُبدِع في عَرْض بضاعته. ذكرَت كازو حادثة خطابه لجلالة الإمبراطور فقالت ما يلي:

«أتحدث بصفتي زوجة يوكِن نوغوتشي، أتحدث إليكم بصفتي زوجة له، ولكن نوغوتشي صمَت عن أمر ذلك الخطاب ولم يخبر حتى أنا زوجته به، إلى هذا الحد هو رجل

لا يَتفاخَر بإنجازاته، عندما علمتُ بتلك الحقيقة بلغَت دهشتي أقصاها. فالجميع ومن ضمنهم أنا مع اعتذاري لكم نقضي هذه الأيام الآن في دعة وأمان، ولكن هذا الأمر بفضل نوغوتشي بقدرٍ ما، عندما علمت ذلك دُهشتُ للغاية، إن نوغوتشي دائمًا داعية سلام ...»

ظل الشباب في شيبويا يقاطعونها بالقول:

«لا تتبجَّحي بذلك! لا تتفاخري!»

وكانت كازو ترُد في كل مرة على المقاطِعين بالقول:

«أجل أنا أتفاخر بذلك، اسمحوا لي أن أتفاخر به. أنا زوجة نوغوتشي أضمن لكم أنكم إن انتخبتم نوغوتشي فلن تَندموا بأي حال.»

فتثير عاصفة من التشجيع والتصفيق. ظلَّت كازو تدور وتلف حول نفس المواضيع في أحاديث لا يُعرف متى تنتهي ولم تستجِب لتنبيهات المعنِيِّين بضرورة الانتهاء، فانتزع مُنظِّم شابٌّ أصابته الحيرة مكبِّر الصوت من أمام كازو. كشف وجه كازو الذي أزالت الثلوج مساحيقه، عن بشرتها الطبيعية الصحية البيضاء المميِّزة لمواليد بلاد الثلوج الباردة. ولكن في تلك اللحظة احمر الوجه كله، فانكشفَت أمام الجماهير تلك التعبيرات الغاضبة العنيفة التي كانت حتى ذلك الحين لا يَعتاد عليها إلا عاملات ستسوغوان ويامازاكي. صرَخت كازو وهي تدهس أرضية سيارة الدعاية الانتخابية مُحدِثة جلبة طاغية قائلة:

«ماذا كنتَ تنوي بأخْذ مكبر الصوت؟ هل تنوي قتل نوغوتشي؟»

اندهش المنظِّم الشاب، وأعاد مكبِّر الصوت على الفور، واستمرَّت كازو مرة أخرى في الحديث لمدة عشر دقائق أخرى.

كانت لحظة ثورة غضب كازو، بالنسبة إلى الجماهير لحظة لا مثيل لها للمشاهدة. عندما تغيَّر ذلك الوجه أمام هذا الجمع الغفير من الناس وظهر واضحًا وقد احمر بشمس الغروب وتألَّق تحت قطرات الثلج، بُهِتَت الجماهير للحظات وسادَ الصمت. لقد أحسُّوا وكأنهم رأوا جسدها عاريًا.

ولكن اقتصرت خطبة كازو المطوَّلة على اليوم الأول فقط. فقد انزعجت قيادات الحملة الانتخابية وطالبَت كازو من خلال يامازاكي، أن تصبح الخطبة بعدها عبارة عن ورقة واحدة فقط تحتوي على ٤٠٠ حرف، ولا تستغرق من الوقت إلا دقيقة واحدة. وكذلك أيضًا وُضعت قيود على اندفاع مشاعرها وعواطفها الشخصية التي تتدفق كما يحلو لها. بسبب الخوف من أن يؤدِّي ترك ذلك الشلال يتدفق بسهولة إلى انهيار الإصلاح السياسي لطوكيو، بل وانهيار الديموقراطية ذاتها.

زار كوساكاري رئيس اللجنة المركزية، وكيمورا الأمين العام، وكوروساوا المدير التنفيذي أنحاء العاصمة لإلقاء خُطب التأييد طبقًا لجدول الزيارات الذي وضعته قيادة الحملة الانتخابية، أي يامازاكي بنفسه. ومشى نوغوتشي يُلقي الخطبة تلو الخطبة، فيدور في صباح كل يوم يُلقيها في الأماكن الهامة من العاصمة، وبعد الظهر في مكان ثابت وليلًا في مناظَرات مع المتنافِسين وأماكن الترفيه. وطلب التأييد حتى من عمال اليومية وزعماء صيَّادِي الأسماك. ودائمًا ما تسير سيارة جواسيس للمنافِسين تختبئ عن الأنظار خلف سيارة الدعاية الانتخابية الخاصة بنوغوتشي التي تجوب أنحاء العاصمة هكذا، ومن جهة أخرى كانت سيارة تجسُّس حزب الإصلاح أيضًا تسير خلف سيارة غِن توبيتا.

وتنطلق كازو بسيارة الدعاية الانتخابية طوال اليوم إلى الأماكن التي غاب عنها زوجها ومعها الدلو الذي وضعت فيه كميات كبيرة من قطع الثلج.

وفي صباح اليوم الثالث من الحملة الانتخابية، صعَدت كازو لإلقاء خطبتها لمدة دقيقة بعد عدد من المؤيِّدِين في منتصف مُنحدَر كاغورازاكا، وعندها ملأ الرعب قلب كازو لرؤيتها وجه رجل في بداية الشيخوخة وسط ثلاثين أو أربعين فردًا من جموع المستمعِين.

كانت شمس الصيف تنير سطح طريق المنحدر بوضوح. كانت أغلب الوجوه التي تنظر عاليًا تجاه من يخطب من المؤيِّدِين فوق سيارة الدعاية، لمسنِّين وربَّات بيوت عائدات من التبضُّع وأطفال وطلاب، بينما كان الموظَّفون قليلِين. ومع أن سيارة الدعاية الانتخابية تقف في الظل إلا أن الجماهير فاضت حتى أشعة الشمس، فوضع بعضهم منديلًا على وجهه ليحميه من الشمس. كان حزب الإصلاح يجد في كل مكان يذهب إليه مُستمعِين بوجوه صبوحة وبريئة. وكان انعكاس قمصان الصيف النظيفة البيضاء يعمق من ذلك الإحساس أكثر وأكثر. ففي أغلب الأحيان كانت تجتمع تحت سيارة الدعاية الانتخابية الأذرع والصدور التي لفحتها أشعة الشمس وتبدو عامةً صحية طبيعية من العمل في الخارج، وصفوف الأسنان البيضاء الضاحكة تحت قُبَّعة القش، والزغب اللامع في خدود التلميذات التي بلا مساحيق تجميل. تعشق كازو مثل هذه الجماهير.

ولكن كان الرجل إياه يقف في وسط تلك الجماهير مرتديًا قميصًا فضفاضًا قذرًا مفتوح الياقة، ويلمع في صدره مَشبكان لأقلام حبر، ويحمل عند صدره هذا بيديه الاثنتين حقيبة قديمة مُطوِيَّة، ويمسك بسيجارة بين أصابعه التي تحمل الحقيبة، كاشفًا رأسه القصير الشعر الذي اختلط به الشيب عاريًا بلا قبعة تحت أشعة الشمس، ويمتلئ وجهه بتجاعيد كثيرة بسبب شدة أشعة الشمس فبدا كأنه يضحك. لم تعرفه كازو في التوِّ والحال

بسبب تغييره لشعر رأسه جاعلًا منه رأسًا حليقًا بطول خمسة مليمترات. كان وجهه عاديًّا ولكنه كبر في السن وذبل فجعله هذا يبدو مُقزِّزًا مثل وجه رجل وسيم انحدر به الحال.

وعندما قالت نفس جملتها التي تبدأ بها حديثها دائمًا: «إنني زوجة يوكِن نوغوتشي» أحست كازو أن ذلك الرجل نظر إليها عاليًا وهو يبتسم بسخرية.

وبعد أن أنهت كازو خطبتها على مدار دقيقة، وحيَّت الطلاب المؤيِّدين على استماعهم في هدوء، بدأَت الجموع تتفرَّق، وأخذَت سيارة الدعاية وضع الاستعداد للتحرُّك إلى المكان التالي، رأت كازو ذلك الرجل السالف الذكر يدق بيده على هيكل السيارة الجانبي.

كان الرجل يصيح وعلى وجهه ابتسامة ساخرة قائلًا:

«سيدتي! سيدتي!»

وأسنانه الصفراء التي صبغها النيكوتين بارزة.

نزلت كازو مسرعة من السيارة واقتربت من الرجل، وقلبها يخفق خفقانًا غير طبيعي تحت منشفة العرق التي تضعها فوق صدر الكيمونو. قالت كازو بصوتٍ عالٍ متعمدة:

«لم نلتقِ من زمن، إنها صدفة عجيبة حقًّا. ولكن لقد رأيتني في موقف لا أُحسد عليه.»

ومع أنها تحفظ اسم الرجل — توتسوكا — ولكنها بذكائها لم تنطق به. ومن أجل ألا يكتشف قلقها، حدَّقت عينيها وكأنها لا تستطيع تحمل شدة أشعة الشمس. فرأَت قطارًا يمر فوق النفق تحت خط السكك الحديدية أسفل المنحدر. وكانت الشمس تُذيب الغيوم القليلة في السماء وتجعلها مبهمة وغامضة.

سألته كازو بصوت منخفض:

«ماذا تريد؟»

قال الرجل:

– «هناك أمر أريد الحديث معك بشأنه.»

نادَت كازو على من فوق السيارة بصوت مرح قائلة:

«لقد قابلت شخصًا أعرفه، وسوف أتحدث معه قليلًا، أرجو منكم أخذ راحة قصيرة.»

ثم دخلَت كازو إلى محل بيع المثلجات، على الجنب المقابل من الطريق وهي تحث توتسوكا على مرافقتها. كانت ستائر الشيش الزجاجية الخضراء والبيضاء على باب المحل فقط هي الزاهية أما داخل المحل فقد كان مظلمًا بشدة وتصطف به مقاعد قديمة. وبمجرَّد أن دخلت المحل قالت للعامل بصوت عالٍ:

«اذهب بعشرين من الثلج مع حبوب الفاصولياء الحمراء بالسُّكَّر إلى سيارة الدعاية. على الفور. ثم إلينا باثنين. لا مانع أن تُؤخِّرَنا نحن، ولكن اذهب بما تصنعه إليهم فورًا.»

جلس الاثنان على مائدة معتِمَة أسفل التقويم المعلَّق على الحائط. كانت المائدة متروكة كما هي مبللة بما سكبه الزبائن الذين كانوا يجلسون عليها قبلهما. تخيَّلت كازو أمرًا مستحيلًا وهو صورة التقويم الذي فوق رأسها هي صورة نوغوتشي فرفعَت عينيها لتنظر إليها. فلم تجد إلا صورة ملونة لممثلة سينمائية ترتدي رداء سباحة أصفر وعوامة منقطة.

«ماذا تريد؟»

كرَّرت كازو سؤالها مرة أخرى مدفوعة برغبتها في تعجُّل الإحساس بالطمأنينة.

«لا داعي للاستعجال. كانت خطبة رائعة، أنتِ تبدعين تحت حرارة الشمس الحارقة. أنا منذ زمن بعيد وأنا متأكِّد من أنك ستصبحين امرأة عظيمة.»

قالت كازو ذلك بنبرة عنيفة للرجل الذي تقابله بعد غياب ثلاثين عامًا:

«أسرِع بقول ما تريد، المال؟»

كانت عيناها فقط تبرقان بلا كسل ولا كلل تراقبان كل حركة من حركات توتسوكا. وكان صرير طحن الثلج يستمر بلا انقطاع في عمق المحل.

«كلا البتة! إنني فقط في الآونة الأخيرة أشتغل بتأليف الكتب ...»

قال توتسوكا ذلك وهو يزحف بأصابع يده الطويلة على الحقيبة المطوية، وفتحها بعد أن ظل يعبث في عجلة على جلد مقدمتها. كانت الحقيبة مكدسة بأوراق مثنية. أدخل توتسوكا وجهه في الحقيبة، وظل يبحث داخلها عن شيء مستغرقًا وقتًا طويلًا بلا داعي. أنارت أشعة الشمس التي انعكست على بلاط أرضية مدخل المحل الرموش الطويلة طولًا عجيبًا لتوتسوكا منكس الرأس. فتذكرت كازو أن ذلك الرجل كان يفخر في شبابه برموشه الطويلة تلك. وهي الآن تلمع في لون رمادي، وتقبع فوق العيون المحاطة بالتجاعيد في منظر شاعري لم يتغير.

«ها هو، انظري!»

أخرج توتسوكا كُتيبًا رفيعًا ووضعه بعشوائية فوق الطاولة. وعندما نظرت كازو إليه رأت أنه كُتب عليه:

«سيرة حياة زوجة يوكِن نوغوتشي
تأليف صياد عابث.»

تصفَّحَت كازو الكُتيِّب بيد ترتعش بشدة. عُنونَ كل فصل بعنوان مثير وظهر توتسوكا نفسه باسمه الحقيقي في الجزء الذي يتكلَّم عن الفترة التي عاشت فيها كازو معه في بيت واحد بعد وصولها إلى طوكيو ببضع سنوات، مع وصف نفسه بأنه رجل

وسيم ساذج، وأن كازو امرأة في غاية الشبق. ولكنه كتب مثلًا: «لو قابلت كازو طريقين أحدهما الحب والآخر الطموح تختار طريق الطموح بكل تأكيد وتتخلَّى عن الحب». ثم وصف الكُتَيِّب مسيرة حياتها بعد ذلك وهو يخترق غرف النوم واحدة بعد أخرى، وكأن كازو بائعة هوى داسَت على العديد من الرجال لكي تصل إلى المرتبة الاجتماعية التي وصلَتها الآن. ثم تصفَّحَت كازو الفصل الأخير سريعًا وقرأته فعرفت كازو الهدف من كتابة الكُتَيِّب. فذُكر أن نوغوتشي طيب القلب مثل الملائكة وأن كازو امرأة شريرة خدَعَته لكي تنال لقب زوجة حاكم العاصمة.

همست كازو بدون أن تدمع عيناها قائلة:

«يا له من كذب صريح!»

– «حسنًا. أنا وأنت فقط من يعرف أهذا كذب أم صدق.»

أحست كازو بتشابه بين طريقة كلام توتسوكا وهو يُظهر أسنانه القذرة مرة أخرى، وبين طريقة ابتزاز ممثِّلي المسرح الحديث العتيقة مما أعطاها انطباعًا بإمكانية التقليل منها. وعندها تمكَّنَت كازو أخيرًا من إيجاد مُتَّسع لرؤية وجه الرجل. وعندما نظرت إليه بإمعان خفض توتسوكا رموشه. وعرفت كازو وقتها أن ذلك الرجل أيضًا يتملكه الخوف.

جيء بالمثلجات.

قالت كازو له بصوت متعجرف:

«تفضل.»

غطَّى الرجل جبل الثلج بيده ودفعه بالملعقة وقرب وجهه لكيلا يسكب منه شيئًا وهو يأكل. وقد امتلأت أظافره التي طالت بوسخ أسود.

سألته كازو وكأنها تطعنه:

«بكم تنوي بيعه؟»

– «إيه؟»

رفع توتسوكا وجهه من بين الثلج في عجلة، ولكن بدت عيناه هاتان بريئتين وكأنهما لجرو. ثم بعد ذلك أخرج قطعة من الورق وأخذ يحسب بشكل مبالغ فيه. وقال ما معناه ثلاثة آلاف نسخة بسعر ثلاثمائة ين لكل نسخة، المجموع تسعمائة ألف ين، وبإضافة النثريات فهو يريد مليون ين.

«حسنًا. تعال إلى البيت في الساعة العاشرة من صباح الغد. وإن نقصت نسخة واحدة عن الثلاثة آلاف نسخة لن أُسلِّمَك المال. على كل حال إن أحضرت الثلاثة آلاف نسخة سأسلمك المال في الحال مقابل النسخ.»

في صباح اليوم التالي، أرسلَت كازو أحدهم لسحب المال من البنك، وانتظرت هي توتسوكا، ثم سلَّمَته له حسب الاتفاق، وقرَّرَت أن تحرق الثلاثة آلاف نسخة من الكتيب حينما تستقر الأمور، فألقَت بها في الخزانة بعد أن أحكمت تغليفها بصرامة. في صباح ذلك اليوم أخذت كازو راحة من إلقاء الخطب في الحملة الانتخابية بحجة سوء حالتها الصحية، وكتمت الأمر تمامًا حتى تجاه يامازاكي.

ولكن بعد عدة أيام، ورغم كافة الوعود، وُزع ذلك الكتيب المريب مجانًا على الأشخاص ذوي الحيثية داخل العاصمة بلا استثناء. وقُدرت النسخ الموزعة بمئات الآلاف.

قال يامازاكي:

«لقد بدأ أخيرًا الهجوم بالقنابل العشوائية.»

وعندما أعطى كازو نسخة من ذلك الكتيب، تغير لون وجهها بمجرد رؤية الغلاف فقط، فعرف أنها تعلم عن الأمر من قبل. فأخبرته كازو بما حدث بكل صدق.

«خسارة فادحة. إن المليون ين مبلغ ثمين الآن. لماذا لم تطلبي منِّي النصيحة؟ من المعروف أن مثل هذا الشخص سيفعل ما فعله سواء حصل منك على المال أم لا. وبالتأكيد حزب المحافظين هو من وراء هذا الأمر.»

على الفور برز وجه غينكي ناغاياما على ذهن كازو ولكنها سكتت ولم تتكلم. ثم تابع يامازاكي حديثه:

«الأمر المقلِق أن ذلك الكتيب المريب وُزِّع بأعداد كبيرة على سيدات المجتمع في الأحياء الراقية من طوكيو. إن الهدف الواضح من طريقة كتابته تلك هي مناشدة الأخلاق المتحيِّزة للبرجوازية الصغيرة. وبهذا هناك قلق من أصوات الأحياء الراقية ... ولكن لن يسبب ذلك الأمر قلقًا كبيرًا في النتيجة النهائية.»

كان موقف نوغوتشي تجاه ذلك الكُتَيِّب المريب عظيمًا حقًّا. بالطبع قرأ نوغوتشي محتوى الكُتَيِّب ولكنه لم يُلَمِّح لها بكلمة عنه. وأَحسَّت كازو التي كانت غارقة في حالة نفسية سيئة ومجروحة جرحًا شديدًا أن رجولة زوجها من خلال صَمتِه هذا عبارة عن طوق نجاة عملاق صامت يطفو بها في بحر مظلم.

لم يكن لدى يامازاكي مُتَّسَع من الوقت لكي يقابل نوغوتشي أو كازو. ومثلما يُخطئ الممثِّل على خشبة المسرح فينسى تعليمات المخرِج كان هذا ما يحدث بالضبط مع نوغوتشي على أرض الواقع؛ حيث ينسى أثناء اهتياجه بسهولة ما علَّمَه له يامازاكي على مدى وقت

طويل. فمع أنه علَّمه ألا يغضب مطلَقًا تجاه صيحات الاستهجان، كان نوغوتشي كثيرًا ما يفقد اتِّزَانه وهدوءه. في منطقة كيتشيوجي ظَلَّ حوالي عشرون فردًا من المعارِضِين والمؤيِّدِين يطلقون الاعتراضات، وأخيرًا فقد نوغوتشي صبره تجاه صيحات الاستهجان اللَّحُوحة فرد عليهم قائلًا: «أنتم أيها الشباب لا تفهمون» فصاحوا فيه غاضِبِين بكلمة «عجوز بائس». ووتر أعصاب المقرَّبِين من نوغوتشي ارتكاب مرشَّح حزب الإصلاح هذا أخطاء قاتلة في أقواله عندما يتحمَّس في إلقاء الخُطب، بل إنه لا يدرك ذلك بنفسه. فقد قال نوغوتشي بوضوح ثلاث مرات على الأقل «إنه دستور الإمبراطورية الحالي». ومن العجيب أن الجمهور نفسه ليس فقط لم ينتبه على الأغلب لمثل هذا الخطأ، بل كانت تلك الخُطب الجافَّة التي بلا معنى التي يلقيها نوغوتشي تحظى بسمعة جيدة بين كبار السن الملتزِمِين. وعندما سمع يامازاكي مثل هذه الأخبار، عرف أن اليابانيين لم يفقدِوا صفتهم المميزة التي تثق بالشخص الذي ليس لديه لباقة في الحديث.

كانت تقع أحداث متنوِّعة كبيرة وصغيرة بمعدَّل حادثة كل دقيقة تقريبًا في جميع الدوائر الانتخابية. وقد بُحَّ صوت يامازاكي من إعطاء تعليماته وأوامره بالهاتف تجاه كل منها على حدة.

«ثمة دلائل على حدوث عمليات بيع أصوات في دائرة «أ» الانتخابية بحي سوغينامي. ويبدو أن هناك كميات مهولة من الأموال تُضخ.»

– «يجب على شعبة مراقبة بيع الأصوات الحصول على أدلة وإبلاغ الشرطة.»

– «لقد نُزعت كل بوسترات نوغوتشي في حي بونكيو ولصق فوقها بوسترات توبيتا.»

– «حسنًا. ألصقوا فوقها مرة أخرى. سأرسل لكم بوسترات جديدة في الحال.»

– «لقد لُصقت بوسترات دعاية مريبة في ليلة واحدة من مدينة «أ» إلى مدينة «ب» في الدائرة الانتخابية لسانتاما. فهناك حوالي ثلاثة آلاف بوستر، عليها صورة لشيطانة دميمة الوجه ويبدو أنهم يقصدون السيدة زوجة نوغوتشي.»

«أبلغوا الشرطة فورًا.»

كان يامازاكي ليس لديه أية ثقة في شُرطة حكومة حزب المحافظِين، ولكن لم يسبق أن ذهب شباب الحزب يوميًّا إلى أقسام الشرطة بهذه السعادة. كانت الشرطة في موقِف شُكر تجاه من يأتي إليها لإبلاغها بمخالفات انتخابية، وبدا أن أعضاء حزب الإصلاح قد صاروا زبائن دائِمِين لدى الشرطة.

أصبحت الغرْغَرة بمحلول حمض البوريك من عادة نوغوتشي في الصباح قبل مغادرة البيت وفي الليل قبل النوم، من أجل إراحة الحنجرة التي تسوء حالتها بمرور الأيام.

وفي الليل يدخل الحمَّام ويسترخي في حوض الماء الساخن ويستدعي مُدلِّكًا لعضلات جسمه. ويسترخي الجسد أخيرًا بالتدليك. ثم يجلس نوغوتشي على السرير ويضع منشفة فوق صدر المنامة ويتغرغر بالإبريق النحاسي التي تعطيه له كازو.

كان ذلك من الطقوس التي تبعث على الكآبة ولا تشبه ضجيج النهار، ولكن كانت كازو التي تعطيه الإبريق تشعر بسعادة أن ذلك اليوم قد انتهى أخيرًا.

كان نوغوتشي يكره الناموسية الغربية الطراز التي تلتصق بالسرير مباشرة، وبديلًا عنها يدلي ناموسية في كامل الغرفة مصنوعة من قماش الكتان الأبيض، ولكن ما من ريح تهز طرف تلك الناموسية. ويُترك الباب الزجاجي الذي يُطلُّ على الحديقة مفتوحًا على مصراعيه طوال الوقت. ويعم نور المصباح الكهربائي الذي بجوار الوسادة في كامل الناموسية مبرزًا تجاعيد الكتان الأبيض المخيفة، ويجعل المرء يشعر كأنه داخل معبد شديد البياض. ترفع كازو الإبريق النحاسي عاليًا جدًّا وهي تستند بركبة المنامة فوق حصير التاتامي.

أثناء صوت غرغرة نوغوتشي الطويل، كانت أحيانًا تستمع إلى صوت حشرة زيز ليلية تَطِنُّ بعد اصطدامها بأغصان شجرة في الحديقة، كان يُسْمَع كصوت إبرة حادًّا يتردد في ظلام الليل، ولكنه في النهاية يُمتص بشكل مؤكَّد داخل سكون الليل. إن تلك المنطقة هادئة حقًّا في الليل. في بعض الأحيان يُسمع من بعيد صوت وقوف سيارة ثم صوت سكران، ولكن يزول الصوت سريعًا مع زمجرة عجلات السيارة التي تسرع بالرحيل.

كانت كازو تعشق وَضْعَها وهي تفعل ذلك. فمع كونها مُرهَقة إرهاقًا لا يَقلُّ عن إرهاق زوجها، إلا أنها تنسى إرهاقها عندما تُفكِّر أنها بوضعها هذا تبدو وكأنها راهبة عذراء وهَبَت نفسها في محراب معبد شنتو. كان وضعها ذلك هو بحق التضحية بالنفس التي يمكن أن تضحيها علانية، ولا تُمانِع أن يتناثر الرَّذاذ على وجهها أثناء غرغرة زوجها.

لم تكن كازو تسمح لأحد أن يُدلِّك لها عضلات كتفها المتكلِّس بشدة أمام زوجها. ولحسن الحظ أن صوتها أحباله الصوتية قوية، ومَهما أكثرَت من الخُطب أمام الناخبِين لا يُبحُّ صوتها ولا يذبل.

عندما نظرت لأعلى رأت نوغوتشي يمسك الكوب بيد المنامة اليمنى، ويضع اليد اليسرى خلفه داخل الغطاء، ويغرغر بعناية وهو يلوي جسده التواء كبيرًا. وأحيانًا ما

يميل عنقه يمينًا ويسارًا، ليدحرج الماء داخل فمه بالكامل. تُنير الإضاءة تجاعيد حنجرته النحيفة تلك التي تبدو وكأنها تلوثت بالسخام. يرتفع الصوت بعنفوان ثم يرتاح من المعاناة ويُكرِّر ذلك أكثر من مرة.

وبلغت النشوة مبلغها من كازو تجاه تلك المعاناة. وأحسَّت أثناء تأمُّلها وكأنها تتَّحِد هي أيضًا مع لا منطقية جهود زوجها المُسِن المُضْنِية. وأحسَّت أن صوت غرغرة زوجها الذي يُرغِي ويزبد هو بحق الدليل المؤكد على أن زوجها حي يعيش أمام عينيها، وأنها كذلك حية تعيش بدون أن تشعر في تلك المعيشة بملل ولا بخمول.

وأخيرًا انتهت الغرغرة الثالثة، وقرب نوغوتشي فمه الذي يحتوي على الماء من الإبريق. وأفرغه هناك بصوت مَهيب، وثقل قليل الإبريق النحاسي الذي فوق يدي كازو. تنهد نوغوتشي. وكان وجهه أثناء التنهيد قد احمر قليلًا.

وعندها قال نوغوتشي لكازو ما لم يقله من قبل أثناء تلك العادة اليومية التي أصبحت خمس مرات في اليوم. فقد قال ما يلي وهو يمد يده بالكوب الذي في يده:

«ما رأيك؟ ألا تجربين أنت أيضًا الغرغرة؟»

شكَّت كازو في أذنها. إن كازو لا تؤلمها حنجرتها ما لم تقم بنشاط رياضي، وبالتالي لا حاجة لها للغرغرة. لا جدال أن عرض زوجها لها بالغرغرة، هو اعتراف صامت منه بالجهد البدني اليومي الذي تبذله كازو أكثر من مجرد المراعاة والاهتمام بها.

عندما فكَّرت بهذا التفكير أحسَّت كازو فجأة بسعادة تضرب قلبها، وحملقت طويلًا في عيني زوجها الذي لا يضحك مُطلَقًا، وأخذَت من يده تلك الكوب باحترام بالغ.

أجمعَت الجرائد والمجلات والراديو والتلفزيون في الأسبوع الأول على تقدُّم نوغوتشي. ولكن بعد دخول الأسبوع الثاني بدأ الانهيار من المنطقة الراقية في طوكيو. من المفترَض أن المنطقة الراقية من طوكيو هي الموطن الأصلي لأنصار حزب الإصلاح. بالطبع كان الكُتَيِّب المريب له تأثير كبير ولكن منذ البداية كانت خطة حزب الإصلاح تميل إلى إهمال تلك المنطقة بسبب الاطمئنان لها.

فكَّرَت كازو بسبب طبيعتها التي تمتاز بالجلد والصلابة أنه لم يَفُت الوقت بعد؛ ولذا أوقفَت سيارة الدعاية الانتخابية هنا وهناك في المناطق السكنية للأحياء الراقية. لقد خَلَت بيوت الأغنياء من سكانها الذين ذهبوا إلى المصايف؛ ولذا استهدفت كازو مناطق حي سيتاغايا وتلك المحاذِية لخط قطار طويوكو التي يكثر فيها الموظفون؛ لأنها لم تكن القاعدة الأساسية لحزب الإصلاح.

وقفَت سيارة الدعاية عند مَدخل حديقة عامة صغيرة تحت ظلال أشجار كثيفة. ويصل إليهم بلا انقطاع صيحات الأطفال وأصوات اللعب بالمياه من خلال مسبح للأطفال داخل الحديقة. وعلى الفور تجمَّع الناس في أرض فضاء بين مدخل الحديقة ومزلقان خط السكك الحديدية انتظارا لخطبة كازو. ولكن بخلاف المناطق الشعبية والقرى الريفية، فشباب خدمة التوصيل للمنازل الذين أَوقَفوا درَّاجاتهم واستنَدوا على الأرض بقدم واحدة، يستمعون كانت وجوههم تمتلئ بسخرية غير بريئة نوعًا ما. ليس هذا فقط، بل كان الناس يتناقلون الشائعات بينهم وهم ينظرون إلى كازو من حين لآخر.

وعندما أوشك وقت بداية خطبتها، قالت للمنظِّمين حولها بعد أن احتار تفكيرها:

«ماذا أنا فاعلة! إن الجميع يتَنقَّلون الشائعات حولي.»

كان أحد المنظِّمين متوسِّطي العمر يعلم أن كازو في حالة رعب مُتوَهَّمة بسبب الكُتَيِّب المريب، فقال لها ما يلي بلا تعمد:

«ماذا تقولين؟ أنت مخطئة. ألقِ خطبتك بلا تردُّد. إن حضور هذا العدد دليل نجاح.»

تقدَّمَت كازو وانحنت برأسها أمام الميكروفون كالعادة.

«إنني زوجة يوكِن نوغوتشي مرشَّح حزب الإصلاح لمنصب حاكم طوكيو.»

وقتها وصل إلى أذن كازو بالتأكيد صوت ضحك اثنين أو ثلاثة من المستمِعين. تحدثت كازو بانهماك بوجه متجمِّد. ولكن اليوم لم يقل أحد من المنظِّمين لها شيئًا حتى بعد انقضاء الوقت المحدَّد. كلما زادت كازو من حديثها تناثرت كلماتها فوق رءوس المستمعِين بلا فائدة كالرمال.

تولَّد ذلك الانطباع لدى كازو بسبب الرعب؛ ولذلك ومع إلقائها الخطبة بحماس شديد، كان جزء من ذهنها يَتخيَّل مَنظرها المنعكِس في عيون الجماهير. إنها الصورة التي رسمها ذلك الكُتَيِّب القبيح كما هي، فتاة ريفية فقيرة تستخدم جسدها لكي ترتقي اجتماعيًّا. وظنَّت كازو أن أحد الكهول ينظر عاليًا على طرف ردائها.

«أُف! أين هي الاشتراكية؟ ألا يقولون إن تلك المرأة تُوقع في حبائلها الرجال باستخدام وسائل لا تعرف الخجل ولا الحياء؟ لا شك أن داخل جسدها شيء بارد يجعله لا ينسى الطموح مَهما اشتعل. تُرى أين ذلك الجزء البارد داخلها؟ هل هي مؤخرتها الباردة؟»

كانت عيون عدد من الطالبات الموجَّهة عاليًا تجاه كازو، كأنَّها تتأمل وحشًا مخيفًا.

اشتعَلَت خدود كازو من الخجل وهي تخطب، وتوهَّمَت أنها تسمع كلمات مثل: غرفة نوم، علاقات سرية، مُداعَبة جنسية، إغواء أُنثوي، تَحدٍّ، فجور ... بدت لها تلك

الجواهر المتعفِّنة التي تتناثر هنا وهناك داخل ذلك الكُتَيِّب، تَلمَع على أفواه المحتشِدين. كانت الكلمات التي تخرج من فم كازو مثل «إصلاح هيئة البريد»، و«التعامل الإيجابي مع مشكلة البطالة»، تسقط على سطح الأرض مثل سِرب نمل مُجنَّح فَقَد أجنحته. بينما تُرى كلمات الناس الملونة بلون مثل اللحم الحي على أطراف شفاه الناس، كقطرات حمراء تعكس أشعة الشمس دفعة واحدة. كان الجميع يمضغون لحم جسد كازو وينظرون إليها عاليًا بعيون ناعسة راضية؛ المُسنِّين الذين يَتنزَّهون مُتَّكِئين على عصيانهم، والسيدات اللائي يتظاهَرْن بالفضيلة، والفتيات الشابَّات اللائي يرتدين ملابس البحر عاريات الأكتاف، وشباب خدمة التوصيل للمنازل.

كان الطقس شديد الحرارة حتى في الظل. ولكن كازو استمرت في التحدُّث تاركة العرق البارد يبلل كل أنحاء جسمها بدون مسح وجهها بالمنديل المحتوي على الثلج. وتحس أن عيون الناس تخلع الكيمونو عنها قطعة بعد قطعة وتنظر إلى جسدها العاري. تتسلط العيون على عنقها، ثم تَبتلِع الصدر، وتصل حتى البطن. وظنَّت كازو أن مخالب لا تُرى نُقعت في عرقها لتنزع بشرتها بالكامل عنها.

قادت تلك المعاناة التي لا تستحقها قَلْب كازو التي تقف فوق سيارة الدعاية وحيدة، تدريجيًّا إلى نشوة سُكْر مثل شهيدة. تدق أجراس المزلقان الذي أمام عينيها وتسقط الألواح الخشبية العرضية بالأبيض والأسود تحت سماء زرقاء براقة، ثم مَرَّت من أمام عينيها عدد من عربات قطار الضواحي مع هدير مهتز. كوَّنت وجوه البشر من كل النوافذ سلسلة لا نهائية من العيون التي تُحملِق فيها باهتمام بالغ. وأخيرًا رفعت كازو أنظارها لأعلى إلى السماء الزرقاء وكأنها امرأة تُعدَم حرقًا. ترتفع إلى كبد السماء في هيبة غيوم معقدة غامقة متراكمة فوق أسطح بيوت ضواحي طوكيو المنخفضة.

انتهت الخطبة. حملت سيارة الدعاية كازو إلى المكان التالي شبه فاقدة الوعي.

وتصادف في ذلك الوقت أن بدأت انتخابات أعضاء المجالس البلدية للأحياء. وبالتزامن مع ذلك امتلك حزب المحافظين ثلاثة آلاف مكبر صوت، لا تتوقف ثلاثة آلاف مكبر صوت عن الهجوم على نوغوتشي في كل ركن من أركان طوكيو. في حين كان أقصى عدد من المرشحين يمكن لحزب الإصلاح تقديمه؛ أربعمائة شخص. أي أربعمائة مكبِّر صوت على الأكثر.

وبالإضافة إلى ذلك تدفَّقَت على حزب المحافظِين كميات ضخمة من الأموال. تدفقت الأموال كأنها طوفان يفيض بعد أن يدمر السدود.

وعلى جانِب آخَر أوشكت أموال كازو على النفاد. وفشَلَت محاولات الحزب في إيجاد التمويل المناسب في اللحظات الأخيرة. وفي يوم الثامن من أغسطس عرَفَت كازو أن كل شيء ينهار محدثًا أصوات مهولة. فلم تكن هناك جريدة واحدة تتنبأ بفوز نوغوتشي.

وكان يوم التاسع من أغسطس اليوم السابق على التصويت، يومًا كئيبًا وكأن موسم المطر قد عاد مرة أخرى، استمرَّت الأمطار في الهطول طوال اليوم وكانت الرطوبة عالية جدًّا. وكانت آخر وسيلة لدى يامازاكي هي عمل قائمة بأسماء وأرقام خمسين ألف شخص من دفتر دليل الهاتف المرتَّب حسب المهنة، وقرر إرسال برقية باسم كوساكاري رئيس اللجنة المركزية للحزب محتواها:

«نوغوتشي في خطر! الرجاء الدعم والمساندة.»

وفي صباح التاسع من أغسطس حملها إلى نقابة مُوظَّفِي البريد. وطلب منهم التفرغ لإرسال تلك البرقيات وعدم الالتفات إلى البرقيات الأخرى المجمَّعة. واستجاب رئيس لجنة نقابة موظَّفِي البريد لذلك برحابة صدر.

ولكن في عصر يوم التاسع من أغسطس، حزب المحافظين الذي شم تلك الأخبار سريعًا حاول مقاومة ذلك بإرسال برقيات مُضادَّة، ولكن رفض مكتب البريد المركزي ذلك الطلب. وعلى الفور حَرَّك مُؤيِّدُو توبيتا وزير البريد على الفور، وبهذا الشَّكْل صدر أمر إداري من الجهة التنفيذية على أرض الواقع، وفي نفس تلك الليلة أرسل حزب المحافظِين ضِعف عدد برقيات حزب الإصلاح أي مائة ألف برقية.

في الساعة الرابعة من العصر جاءت مكالمة هاتفية ليامازاكي الذي كان في بيت نوغوتشي على الدوام. كان بيت نوغوتشي يزدحم بالصحفيين ومراسِلي الإذاعة والتلفزيون، اخترق يامازاكي أمواج تلك الجموع ووصل إلى مكان الهاتف. كان صوت مكتب الحملة الانتخابية في غاية الاهتياج والإثارة.

«مصيبة كبرى. لقد جاءت مكالمات هاتفية للمكتب في وقت واحد من ستة أحياء هي فوكاكاوا وشيبويا وشينجوكو وسوغينامي وكيتشيوجي، أن الأحياء الست تلك يُوزع فيها منشورات لا حصر لها. منشورات بعنوان «يوكِن نوغوتشي فقد الوعي» ومنشورات أخرى بعنوان «يوكِن نوغوتشي يحتضر». بائعو الأعداد الخاصة من الصحف يَدقُّون الأجراس، ويجوبون الأحياء سيرًا على الأقدام يوزعونها مجانًا.»

أخبر يامازاكي مراسِلي الصحف ووسائل الإعلام محتوى تلك المكالمة التي لا يمكن تَقبُّلها. صرخت كازو التي سمعت تلك الحكاية من خلف المراسِلين، صراخًا عاليًا وهرَعَت

إلى غرفتها. تبعها يامازاكي مسرِعًا. انهارت كازو في منتصَف الغرفة وهي تبكي. كانت الغرفة معتمة قليلًا بسبب سقوط الأمطار، وكان منظرًا كئيبًا لا يمكن وصفه بالكلمات.

رَبَّت يامازاكي على ظهرها لمواساتها. وعندها لوت كازو جسدها فجأة، وبتعبيرات وجه تقطَّعَت إلى أشلاء من الدموع والغضب أمسكت بطرف بدلة يامازاكي وأخذت تهزها:

«أرجوك أمسك بالمجرم الذي فعل ذلك. اقبض عليه فورًا. يا له من عمل قذر! لا أصدق أنهم يستخدمون تلك الوسيلة القذرة في النهاية بهذا الشكل ... بهذا إن هُزمنا في الانتخابات ليس أمامي إلا الموت. لقد فقدتُ كل ما أملك. إن هُزمنا في الانتخابات ... سيكون ذلك المجرم قد قتلني. هيا، أسرع! اذهب الآن واقبض عليه ... هيا.»

وأثناء تكرارها لكلمة هيا عدة مرات، فقد صوتها قوته تدريجيًّا، وانبطحت كازو على الأرض وأصبَحَت لا تستطيع النطق. اعتمد يامازاكي على الخادمة المقرَّبة لكي ترعى كازو، وشق طريقه في الممر الذي يضج بضوضاء الناس، وعاد إلى مكان الهاتف.

وفي التاسعة مساء هدأ كل شيء تمامًا. وسجل التلفزيون والراديو مع نوغوتشي وكازو التسجيلات المتوقَّع عرضُها في اليوم التالي. فهم يسجلون انطباع المحافِظ وزوجته في حالة الفوز في الليلة السابقة قبل ظهور النتيجة تحسبًا للأمور.

كان هناك شعور بعدم واقعية مُرعِب لذلك التسجيل المريب الذي يشبه عرضًا فنيًّا لتقليد الشخصيات الشهيرة. كان نوغوتشي يجيب على الأسئلة بإيجاز شديد، وتحدَّث عن طموحه بنبرة صريحة ليس بها متعة أو إثارة، ولكن كان جفاف كلماته التي بلا معنى، لم يسبق أن سمع لها من أحد بهذا القبول.

«أين زوجة سعادة المحافظ؟»

عندما سأل المذيع هذا السؤال، ظهرت كازو لحسن الحظ، فجأة في غرفة الاستقبال. كانت في حالة هادئة بوجه بشوش قد وضعَت عليه مساحيق خفيفة واستبدلت بملابسها ملابس عظيمة مُعدَّة لاستقبال الضيوف؛ أي إنها كانت بلا عيوب.

بعد أن ودَّعت رجال الصحافة والإعلام جميعًا، قالت كازو ليامازاكي من خلفه ما يلي وكانت تلك هي أول مرة يستمع فيها يامازاكي لنبرة ضعف من كازو:

«تُرى أمسموح لي قول ذلك يا سيد يامازاكي؟ إنني أشعر بعد كل هذا أننا سنُهزم ...»

استدار يامازاكي للخلف ولكنه لم يجد ما يَردُّ به عليها. ولكن بدون انتظار الرد، في الممر المظلِم المشبع بحرارة رطبة في ليلة صيف ممطرة، لمع وجه كازو فجأة وكأنه يعكس إضاءة داخلية فيه، ثم قالت ما يلي بصوت شبه حالم:

«ولكن الأمر على ما يرام، أليس كذلك؟ من المؤكَّد أننا سنفوز.»

الفصل الخامس عشر

يوم الوعد

انعكست أمطار اليوم السابق، ليكون العاشر من أغسطس يومًا صحوًا بلا أي أثر للمطر ويكون يومًا رائعًا للتصويت. استيقظَت كازو مبكرًا ووضعَت زهورًا في النافذة البارزة لغرفة الاستقبال. فقد صفَّت في قاعدة ماء امتلأت بماء منعش، خمس من زهرات اللوتس المختلفة الحجم على طراز أداتشي التي تعلَّمَتها في الماضي البعيد. جعَلَها هذا العمل البسيط تعرق عرقًا كثيرًا.

بعد انتهائها من إعداد الزهور، سكن قلب كازو في هدوء من خلال هدوء وسلام الماء الرائق. تُبرِز تلك الزهور الصَّلْدَة مثل المنحوتات، لون الشفق فوق الماء، وانعكس لون ظهر البَتلَات القرمزي اللامع الجميل على سطح الماء دامجًا هناك ظله الجميل. شعرت كازو أثناء تأمُّلها للزهور التي أعدَّتها بنفسها بإمعان، كأنها تتنبأ بشيء ما. فكرت كازو أثناء إعداد تلك الزهور التي حققت طرازًا مثاليًا: ألا يمكن أن تحتوي على إشارات لقدرها؟

لقد استنفدت كازو كل ثروتها وكل قواها. وعملت بأقصى ما تصل إليه طاقة البشر، وتحملت ما لا طاقة لبشر به من مذلة وإرهاق. ويعلم الجميع أن كازو أحسنت النضال. لم يسبق لها منذ ميلادها أن استخدمَت كازو روحها الحماسية حتى النهاية بهذه الدرجة من الاستمرارية وهذه الدرجة من الفاعلية. ولم يكن يدعم قلبها كل يوم بإصرار إلا يقين لاعقلي بأنها تستطيع بكل تأكيد تحقيق ما تعزم على تحقيقه في قلبها. يطفو مثل هذا اليقين في الهواء في الأيام العادية. ولكنه في الأشهر القليلة الماضية كان قد تمركز وثبت في الأرض، وأصحبت كازو لا تقدر على الحياة بدونه.

... نظرت كازو إلى زهور اللوتس بحذر وريبة.

فبدا لها الماء وكأنه يرمز للجماهير التي بلا عدد وهي على وشك التوجه إلى صناديق الاقتراع في كل حي من أحياء طوكيو. وكان اللوتس بزهره المتفتح هو نوغوتشي نفسه.

يغمر الماء الزهور في أعماقه، وتحيط فقاقيع الماء بالدبابيس داخلها واحدًا واحدًا. وبدا أن مطمح ذلك الماء التوجُّه إلى اللوتس وأن وجوده هو فقط لكي يعكس ظل اللوتس.

وفي ذلك الوقت انعكس ظل طائر على النافذة المفتوحة دائمًا، ورُكلت ورقة من غصن عليل من أغصان ممتدة حتى حافَّة النافذة، فسقَطَت في المنتصف تمامًا من قاعدة الماء. بعد أن انزلقت في الهواء وكأنها زلاجة جليد. لم يتأثَّر الماء أو يضطرب على الأغلب، ولكن ورقة الشجر التي عادت متقلِّصة بلون الياقوت طَفَت بوضوح فوق سطح الماء. وبدت قبيحة المنظر مثل حشرة تكوم جسدُها حول نفسه.

إن لم تكن كازو تحاول قراءة الطالع المشئوم، لكانتِ التقطت تلك الورقة العليلة ببساطة، ولكن أن تحوم الغيوم حول قلب كازو بسبب ورقة الشجر تلك، جعلها تندم أشد الندم على حيرة مشاعرها التي قادتها إلى قراءة طالع عديم الجدوى.

أسقطت كازو جسمها فوق المقعد، وجعَلَت مِرْوَحة اليد ألعوبة في يدها وظلَّت على ذلك الحال لفترة من الزمن. يقبع جهاز التلفزيون أمام ناظريها. من المفترَض أن ينقل ذلك الصندوق البِنِّي الذي شَحب لونه تطورات الاقتراع تباعًا، ولكنه ما زال في تلك اللحظات خاويًا لا يعكس شيئًا، بل يستقبل بميل أشعة شمس الصباح.

بعد أن دخلت كازو لأَخْذ حمام الصباح بعد زوجها نوغوتشي، وضعت مساحيق الوجه بعناية بالغة، وبدلت بملابسها رداء النصر الذي صُنع لها خصوصًا لذلك اليوم. وبلا أية مبالاة لأفعال الناس، بل الأحرى القول أحيانًا بتعمُّد عدم إظهار أية مبالاة للناس تعمُّدًا زائدًا عن الحد بعد تلك الشهور والأيام من الحركة والنشاط، كان رداء النصر يشد من عضد كازو. صُنع الكيمونو من حرير شاشي بلون فضي وصُبغ عليه منظر اصطياد طائر غاق بلون أسود لامع، ومَشاعل تشع لهيبًا بلون قرمزي غامق. ولفت الكيمونو بحزام من ديباج حريري مطرز بتصميم عُمل بخيوط فضية لقمر في وقت المحاق يتوسَّط غيومًا رفيعة على خلفية بلون أرزق فاتح ويُغلق الحزام بقفل من الألماس.

كان من المنتظَر أن يجعل ذلك المنظر المبهرج مزاج نوغوتشي زوجها سيئًا، ولكن أرادت كازو بأي شكل الذهاب إلى لجنة التصويت بالزينة التي ترضاها نفسها. وعلى أي حال بعد انتهاء المعركة الانتخابية الطويلة التي غطَّتها فيها الأتربة والعَرق، وفي اليوم الذي لم يتأكد فيه أي شيء بعد، كان من الضروري لكازو أن تُعبِّر عن تقديرها لجسدها تقديرًا كافيًا بإطلاق العنان لما يريده قَلبُها.

وعندما ذهبت إلى حجرة المعيشة لكي تساعد زوجها في إنهاء استعداداته للخروج، ملأ منظر نوغوتشي الذي كان واقفًا هناك قَلْب كازو بالسعادة. كان قد انتهى بالفعل من تغيير ملابسه، وكان يرتدي البذلة إياها التي ارتداها لأول مرة يوم تسجيل نفسه مرشَّحًا لمنصب حاكم طوكيو واختار بنفسه من بين البذلات الثلاث التي أعدَّتها له كازو وحرصت على كَيِّها جيدًا.

وكما هي عادته لم يُظهر لها نوغوتشي أي نوع من الابتسام، ولكن مشاعره تلك وعدم اعتراضه على ملابس كازو ولو بكلمة، لمس مشاعر كازو بعمق. جلَسَا متجاوِرَين في صمت مُطبِق داخل السيارة التي توجهوا بها إلى مَقر التصويت، تأمَّلَت كازو مناظر المحلات التي انعكست عليها أشعة الشمس في الصباح المتبَقِّي به سخونة حَرِّ الصيف. ذلك التأثر الذي شعرت به لهذه الدرجة جعلتها تشعر أن تتقبل أي شيء حتى الهزيمة.

... كانت تلك اللحظة على الأرجح، هي التي تَواصَل فيها قَلْب هذين الزوجين اللذَين يحمل كل منهما شخصية قوية تجاه الآخر لأعلى درجات التواصل، ولكن شعور كازو بالسعادة وهي تنصب عليها فلاشات آلات تصوير الجرائد وأخبار السينما داخل مقر التصويت في المدرسة الابتدائية حتى وضعها لصوتها في الصندوق بعد زوجها ظلَّت محتفظة بصفائها دون نقطة غيم واحدة.

تَقرَّر فتح الصناديق في اليوم التالي. ونشرت الطبعات الصباحية من الجرائد توقُّعات وُزِّعت بعدالة تامة، فأحد المحلِّلِين توقَّع فوز توبيتا، والثاني توقع فوز نوغوتشي، أما الثالث فلم يقل أيهما سيفوز بل قال إنه من المتوقَّع على كل الأحوال أن يُحسم الأمر من خلال الحكم بالفيديو؛ حيث سيكون الفارق بين الاثنين ضئيلًا بأن تكون أنف أحدِهما في المقدمة. كانت مشاعر كازو منذ الصباح في حالة هياج يقترب من الجنون. كان التوقع المؤكَّد بالفوز جعَل قلبها مهتاجًا، وفي نفس الوقت كانت الخسارة تعني لها انهيار العالَم.

بدأ فَتْح الصناديق في الساعة الثامنة من الصباح، وفي الساعة الحادية عشرة أُذيع أول خبر عاجل. جلس الزوجان في غرفة المعيشة أمام التلفزيون. كان أول تقرير يحتوي على أصوات منطقة سانتاما، والدوائر النائية من أحياء العاصمة.

لم تستطع كازو السيطرة على خفَقَان قَلبِها، وهمَس فمُها بكلمات تشبه الهذيان.

«إنها سانتاما! إنها سانتاما!»

برز أمام أعين كازو أحد القناديل الورقية في ليلة المهرجان الشعبي. وكذلك سواد الجبل الذي بدا أنه يقترب من المنطقة مع اشتعال القنديل. ثم التصفيق الحار الذي تردَّد صداه في بطن الجبل. وبشرة ربَّات البيوت الريفية التي لفحتها أشعة الشمس، وعيونهن الممتلئة بما يشبه الفضول، والابتسامات الوَدودة التي تبرز فوق أسنانهن الذهبية ... غرَزَت كازو أظافر أصابعها في مسند المقعد، وبسبب التوتر أصبح كل جزء من جسدها يسخن فجأة ويبرد فجأة كما يَعنُّ له، وأخيرًا لم تَعُدْ تحتمل الصمت فقالت:

«أن تكون سانتاما هي الأولى في الفرز، لا بد وأن هذا فأل حسن؛ لأن فَوْزَنا مؤكَّد.»

لم يجبها نوغوتشي بشيء.

ظهر على شاشة التلفزيون لوحة الخبر العاجل، وتردَّد صدى المذيع الذي قرأ اللوحة.

«يوكِن نوغوتشي ٨٠٢٢٥٧ صوتًا
غِن توبيا ٢٧٧٠٨١ صوتًا.»

شحَب وجه كازو وانسحبَت منه الدماء، ولكن أصبحَت وكأن إرادتها المجنونة التي تملي عليها ألا تفقد الأمل قد صفَّحَت صدرها بصفيحة فولاذية.

عند الساعة الثانية من ظهيرة ذلك اليوم تأكَّد فوز غِن توبيتا. تخطَّت الأصوات التي حصل عليها توبيتا المليون وستمائة ألف صوت، متفوقًا بما يقارب مائتي ألف صوت. وفاز حزب المحافظِين في أوساكا كذلك. وأعلن المذيع قائلًا: «نجحَت قوى المحافظِين في الحفاظ على استراتيجيتها بامتلاك حُكم المدينتين الكبيرتين.»

ارتابت كازو من قدرَتِها على بقائها هادئة تجاه تلك النتيجة الظالمة. إنه فوز بالمكائد والأموال. فمنذ اليوم الذي بدأت فيه أموالهم تنفد، قبل الانتخابات بأيام، تدفَّقَت الأموال في جانب حزب المحافظِين بدرجة مرعِبة مثل الفيضان بعد انهيار السد. تدفَّق المال بكميات مَهولة في أرجاء المدينة جاعلًا من الفاسدِين وشديدِي الفقر عبيدًا له. تألَّق المال وقتها مثل الشمس المتسرِّبة من بين الغيوم. شمس شريرة ومشئومة. وفي لَمْح البصر جعَلَت النباتات التي تمتد أوراقها المسمومة تنمو، وتمتد الأعشاب المتسلِّقة في كل مكان، باسطة مجساتها المنفرة هنا وهناك في المدينة باتجاه سماء الصيف الزرقاء.

استمَعَت كازو دون أن تذرف دمعة واحدة، إلى اقتراح زوجها بالذهاب لمقر حزب الإصلاح.

في ذلك اليوم لم يستطع سوئتشي يامازاكي لقاءهما؛ لأنه عندما وصل إلى مقر الحزب كانا قد غادرَا بالفعل.

تغلغَل الإحساس الواقعي الذي يسبب الخدر بتلك الهزيمة تدريجيًّا في نفس يامازاكي أثناء ما كان منشغلًا في ترتيب أوضاع لجنة الحملة الانتخابية بعد نهاية الانتخابات. وفي الأصل لم تكن خسارة الانتخابات أمرًا غير متوقَّع بالكامل. على الأقل لقد توقَّع هو ذلك داخل قلبه بوضوح قبل التصويت بيوم. ولكن هناك دائمًا فرصة الحظ السعيد بنسبة بسيطة. وأحيانًا تزحزح الأصوات العائمة في المدن الكبيرة التي لم تأخذ قرارها قبل التصويت النتيجة لاتجاهات غير متوقَّعة تمامًا. لقد تَصارَع مرات عديدة مع مشاعر الاعتماد على ذلك الحظ السعيد ومشاعر اليأس من النتيجة كخبير ومحترِف، ولكن يغطي قلبه الآن ضباب مُوحِش ومُنفِّر.

ولكن يامازاكي تعوَّد منذ شبابه على أن تتذَوَّق قوى الإصلاح في اليابان طعم زوال الوهم، بل يمكن القول إن رِهانه دائمًا على زوال الوهم، كان يعني في الماضي استمرار رهانه على شبابه بلا انقطاع. يملك هذا الخبير الذي لا يُقهر المُحنَّك حقًّا في الصراع الانتخابي أحد أنواع الشغف المازوشي. وفي النهاية لم تُصِبه الدهشة لوجود الفساد في الانتخابات أو الفوز بقوة المال. فمن الطبيعي رؤية أحجار صغيرة أو روث الجياد على الطريق.

كحقيقة واقعة، ربما من الأصح القول إن يامازاكي بسبب برود قلبه الحقيقي، كان يعشق تلك المحرقة التي تُسمى الانتخابات والتي يُلقى إليها بالنفيس الغالي، والوضيع التافه كوقود في مساواة كاملة. لقد كان يعشق المشاعر العنيفة من فرح وغَضب ومتعة وحزن المرتبطة بمصالح المتجمِّعِين حول السياسة. يعشق قوة الاندفاع غير المتوقَّعة تلك التي تقود الناس إلى المبالَغة في العواطف المتأجِّجَة بغَضِّ النظر عن قبولها أو نَفيِها. يعشق تلك الحرارة التي تتميَّز بها السياسة، ذلك اللهيب المشتعل الحقيقي للانتخابات، مَهما كانت هناك حيل وألاعيب في الخفاء.

يعشق امتلاء قلبه الفارغ بمثل تلك الأشياء، وإملاء خواء قلبه بمشاعر الإثارة لعدد كبير من الناس من ذوي نفس التوجه، ثم في النهاية إصباغ مشاعره بنفس اللون.

ولذا إن تحدَّثنا بجفاء فقد كان هناك شيء من التعمُّد نوعًا ما في تحرُّك قلب يامازاكي الذي أُحِيط بضباب ثقيل بعد أن وقعت الهزيمة. كان ذلك الرجل المستمتع بزوال الوهم يعشق قليلًا مشاعر ومنظر البطولة والمأساة عند الهزيمة.

كان يامازاكي في ذلك المساء يفكِّر داخل التاكسي المتَّجِه إلى بيت نوغوتشي في حي شيينا، في الدور الذي يجب عليه لعبه منذ هذه اللحظة، دور الإنسان عميق الشعور. هذا هو العمل الوحيد الباقي له لكي يفعله، ولم يكن في يده حيلة أخرى.

منذ دخوله من البوابة، أحس يامازاكي بكل حواسِّه بزخم المنزِل تعيس الحظ. اصطفَّت سيارات الجرائد في طابور طويل أمام المنزل، وكثُرَت حركة الداخِلِين والخارِجِين، ولكن علامات إخفاء الناس لاندفاع مشاعرهم بحرِّيَّة جعَلَته يُقارنها بملامح المُعزِّين في الجنائز. يشعر الجميع عند عودتهم وبعد أن يخرجوا من البوابة ويمشوا مسافة قصيرة أن حملًا ثقيلًا انزاح عن أكتافهم، ويطلقون الضحكات كأنهم بُعثوا من الموت للحياة مرة أخرى.

فاض طوفان الناس حتى ممرات المنزل. أخذ يامازاكي نظرة على قاعة الاستقبال فألقى بتحية سريعة بعينيه إلى نوغوتشي الجالس على مقعده في عمق القاعة، محاطًا بحشد من مراسِلي الصحف. وصل إليه من الممر صوت انتحاب يعلو تدريجيًّا. استدار للخلف فرأى كازو تبكي وهي تتبادل الأحضان بوجه مطأطئ مع ممثِّلي الجمعيات النسائية المؤيِّدة لزوجها.

ثم نادى أحدهم على كازو فأسرعت بمسح دموعها وذهبت إلى قاعة الاستقبال، ثم تعود وتذرف دموعها، فيدعوها آخر. لم تعد علبة مساحيق الوجه الصغيرة تكفي لإصلاح الوجه. أخذها يامازاكي وذهب بها إلى غرفة مكتب زوجها، ثم قال لها: «يجب عليكِ يا سيدتي أن تستريحي من الآن.»

جلست كازو فوق سجادة الغرفة مُنهارة. واستندَت بإحدى يديها على الأرض ومسحت باليد الأخرى على عنقها ببطء. ظل وجهها كما هو ينظر عاليًا إليه بدون حركة واستمرَّت الدموع تتدفق بلا مشاعر من العين المفتوحة باتساعها كما تتدفق المياه من شقوق مزهرية.

بعد الساعة العاشرة مساء غادر كل من له علاقة بالصحافة دون أن يتبَقَّى أحد، فتَنزَّلَت وحدة حقيقية على البيت. وعندما قابَل بوضوح تلك الوحدة القاسية وجهًا لوجه، أدرك يامازاكي للمرة الأولى حقيقة أن تلك الوحدة بالذات ما كان يخشاه هو وعائلة نوغوتشي معًا ويكرهها بشدة وتألُّم.

أعطى البخور الطارد للبعوض للجو ملامح مراسم ليلة العزاء. أحاط بنوغوتشي وزوجته عدد قليل جدًّا من المقرَّبِين فقط، وتناوَلوا معًا بيرة مع طعام بسيط شبه صامِتِين.

ثم رحلوا واحدًا بعد آخر، وكان كل منهم حريصًا على ألا يلفت الانتباه لمغادرته. واستبقى الزوجان آخِرَهم يامازاكي عندما حاوَل الذهاب. كان الوقت قد جاوز الحادية عشرة مساء.

انعزل الزوجان بمَعِيَّة يامازاكي في غرفة كازو ذات الحصيرات الثمانية من التاتامي. قال نوغوتشي وهو لا يوجِّه حديثه لا إلى يامازاكي وبالطبع ولا حتى إلى كازو زوجته:

«لقد أتعَبتُكم معي ... حسنًا سأستبدل بالذلة زي الكيمونو الياباني.»

وعندما كاد نوغوتشي أن يصفق بيديه كما هي عادته، مَنعَته كازو، وأخرجت من صندوق الملابس الذي بلا غطاء ملابس كانت قد أعدَّتَها سلفًا، وساعدته على تغيير ملابسه سريعًا.

قال نوغوتشي ما يلي وهو يأخذ من يد زوجته حزام الخصر:

«أنت خاصَّة تعبتِ كثيرًا. يجب أن تستريحي.»

كان نوغوتشي يبكي مولِّيًا ظهره لها، وكانت تلك هي أول مرة يرى يامازاكي فيها دموعه. وضع يامازاكي يديه فوق التاتامي وانحنى بعمق وقال:

«لا يمكنني التحجُّج بأي سبب لتقصيري.»

وعندما رأيت كازو دموع زوجها انهارت بالبكاء دون أن تحاول السيطرة على دموعها.

ليس من الواضح ما هو سبب دعوة الزَّوجين ليامازاكي لذلك المكان خصوصًا. فلا يُعتقد أن ثمة ضرورة لدى الزوجين لوجود شاهد غريب يرى تعريتهما لمشاعرهما المتبادَلة تلك. أو ربما كان الأمر ببساطة أن الزوجين فكَّرَا مع أن يامازاكي يعتبر من أقرب المقرَّبين. ومن أجل أن يُكفآه بقدرٍ ما على ما بذل من جهد وتعب حتى الآن فكَّرَا أن يُظهِرَا حجم الثقة التي يعطيانها له، وبالنسبة إلى الزوجين اللذين فَقدَا بالفعل موضعهما الرسمي فلم يكن أمامهما إلا مثل هذا الموقف الشخصي. أو ربما كان ثقل ثقة الزوجين في يامازاكي والتأمل فيه خيرًا بالضبط مثل كفتي ميزان حوَتَا نفس القدر من الثقل، وبدون أن ينطق الاثنان بكلمة كانا يعتمدان عليه وربما فكَّرَا أنه سينقذهما بقدر ما من الوحدة القاسية الذي كان محتَّمًا على الزوجين أن يواجهاها.

وبعد ذلك كانت الكلمات التي قالها نوغوتشي لزوجته بعد أن استراح في الرداء الياباني التقليدي، تمتلئ بشدة بالأداء المسرحي الشرقي. فما من شخص أبعد من نوغوتشي عن الأداء المسرحي، وكان بصفة خاصة في الحياة العامة على هذا المنوال، ولكن في المرحلة التي يبوح بها بمشاعره الحقيقية كما يفعل الآن بشكل حميمي خاص، كان

على ما يبدو أن قلبه يطفو عليه خيال مشاعر بطولية عتيقة. كانت تأسره على العكس روح الأشعار الصينية القديمة عندما يعتقد أن تلك حقيقة قلبه ومشاعره العارية. عندما سمع يامازاكي بجواره كلمات نوغوتشي التالية، طفَا على ذهنه قصيدة الشاعر الصيني طاو يوان مينغ بعنوان «قاموس العودة للديار» أو قصيدة الشاعر بو جويي بعنوان «٤٥».

لم يكن يتحمل عدم تَذكُّر بيت الشعر الذي يقول:

«لربما في الربيع القادم أبني
كوخًا من القش بسفح
جبلٍ يشبه جبلَ لوشان.»

ولكن كلمات نوغوتشي كانت في الحقيقة أكثر ابتذالًا. قال وهو يتجنب النظر إلى عيني كازو بنبرة تلعثم متخشبة:

«سأعتزل العمل السياسي. لن أعمل بالسياسة ثانية فيما بقي من حياتي. كنت أملك العديد من المثاليات، ولكن كان ذلك بعد أن أحقق الفوز. لقد أتعبتكِ معي كثيرًا. أتعبتكِ معي حقًّا، ولكن علينا أن نعيش معًا في تواضُع فقط على مرتَّب التقاعد في ركن من العالم. دَعِينَا نعيش جَدًّا وجَدَّة كَبرَا في السن.»

أجابت كازو بالإيجاب قائلة: «نعم» بشكل معتذر وهي تنظر لأسفل كما هي وقد تدَّلى رأسها بعمق.

تعجَّب يامازاكي من حالته تلك التي تخشَّبَت. كان دائمًا ثمة شيء مريب في التأثر العنيف لكازو. تلك القوة الحيوية التي لا تعرف التوقف في مكان واحد، تتصل من هنا إلى هناك، الحزن يصبح زُنبُركًا لفرحة لا يمكن توقُّعها، وكذلك تصبح تلك الفرحة نبوءة لليأس. كانت هيئة كازو المنكفئة على نفسها تمتلئ بكرب وغم، وتُظهر خلفيتها الباكية ذلك حزامًا بتطريز زهرة جرس صينية حانية، ولكنه يُعطي كذلك شعورًا يشبه هواءً ساخنًا مظلمًا يندفع أحيانًا من جسم كازو التي يُفترض أنها أومأت بتلقائية.

وعندما حان رحيل يامازاكي، شكره نوغوتشي بعناية، وقال إنه يستأذن؛ لأنه مرهق حقًّا. وخرجت كازو لوداعه حتى المدخل وهي تمسح دموعها.

انعطفا عند الممر، وبدَا المدخل أمامهما. جذبت كازو طرف بذلة يامازاكي لتُوقِفه. تحت الإضاءة المعتمة لمصباح الممر، تألَّقَت عيناها اللتان كانتا تبكيان حتى وقت قليلًا

مضى في حيوية. بعد أن مسحت أغلب دموعها دون أن تهتم بانهيار مساحيق وجهها، امتزج ظِل الإضاءة المتدلي تحت العينين وتحت الأنف مع خطوط مسحوق الوجه الأبيض الذي سقط منهارًا، مما أعطى للوجه شكلًا غريبًا مثل وجوه ممثلي الكابوكي. رغم عدم تغير ملامح وجهها إلا أنه بدَا وكأنه من فصيلة السِّنَورِيَّات التي على وشك الانقضاض على فريستها من خلال الأسنان اللامعة عند طرف الفم المفتوح قليلًا، وأشعة العين البراقة. ثم تردد في رهبة صدى صوتها الخافت خفوتًا شديدًا.

«تبا لهم، لقد هزمني رئيس الوزراء ساييكي، وغينكي ناغاياما بالمال والشائعات الزائفة. بالإضافة إلى توبيتا الحقير! إنني أريد قتْلَه. إنني أريد قتلهم جميعًا! اسمع يا سيد يامازاكي! أما من وسيلة الآن لإسقاط توبيتا في الوحل؟ ألا تملك ما يمكن أن يوقعه في أزمة؟ لا بد وأن لديه الكثير من الأعمال المنافية للقانون. أما من وسيلة ننتقم بها منه؟ يُفترض أنك أنت الوحيد القادر على ذلك ... بل هذا هو واجبك.»

الفصل السادس عشر

أوركيد/برتقال/غرفة النوم

يميل الأشخاص قَليلو الكلام — ونوغوتشي منهم — إلى إعطاء أهمية قصوى للكلمة التي يقولها مرة. إن كانت عهدًا على نفسه فقط فلا مناحة، ولكنه لا يرتاب أن الآخرين كذلك سينفذون كلمته. كان يفترض أن ما فكر في أنه يجب أن يحدث ونطق به من الطبيعي أن يجده قد حدث. ولذلك عندما قرَّر في ليلة هزيمته، أن هذه المرة بالذات سيعيشان حياة «جَد وجَدَّة» متواضعة فقط على مُرتَّب التقاعد، وبعد أن نطق بذلك، فقد ظن نوغوتشي أن تلك هي نية كازو بالضبط.

ومن المؤكَّد أن كازو قالت وقتها «نعم»، ولكن أثناء انشغالها من صباح اليوم التالي في ترتيب ما بعد الهزيمة ودورانها لتقديم الشكر للمؤيِّدين، انتبهت إلى الظلام والثقل اللذين يتضمنان في كلمة واحدة محتواها «نعم» واللذَين لا يمكن التعبير عنهما بالكلمات. كانت تلك علامة على الموافَقة على الدفن معه في نفس القبر. وكانت تلك رغبة كازو من البداية. ولكن تلك الكلمة لم تكن إلا الموافقة على الطريق الضيقة المليئة بالعشب الرطب والمؤدية مباشرة إلى القبر.

كان ما زال هناك العديد من الأمور التي ينشغلان بها. فقد بدأت انتخابات مجلس المستشارِين في البرلمان، وطُلب من نوغوتشي وكذلك من كازو إلقاء خطب لتأييد المرشَّحِين. وشعر الاثنان بلذة الكرم المشرق في مساعدة الآخَرِين. وقد أنتج المزاح الذي امتازت به خطب نوغوتشي سعة في خطب كازو مما جعل عمَلَهما أفضل مما كانا عليه عندما يخطبان في الجماهير من أجلِهما شخصيًّا. وفي كل مرة يتناولان فيها طعام العشاء كان الزوجان يتبادلان الفخر برد فعل المستمعِين لخطبتهما في ذلك اليوم وهو أمر لم يحدث غالبًا أثناء نشاطهما في الدعاية الانتخابية له.

لقد كانت طريقة تفكير نوغوتشي التي يفضلها في الآونة الأخيرة هي أنه اكتشف سعادة خالصة هادئة بديلًا عن فقدانه كل ما يمكن فَقْدُه ماديًّا واجتماعيًّا. كان ذلك شعورًا نفسيًّا بسيطًا وشاعريًّا للغاية، وربما كان طبيعيًّا بالنسبة إلى سن نوغوتشي، ولكنه لم يكن طبيعيًّا البتة بالنسبة إلى سن كازو. ليس هذا فقط، بل لقد كان نوغوتشي يبالغ في هذا الشعور من وقت لآخر. في أحد الأيام، عند عودته من المقر الرئيسي لحزب الإصلاح، اشترى أصيص زرع به زهرة الدندربيون.

قالت كازو التي خرجت لاستقباله:

«يا للعجب أتحمل بنفسك أصيص الزرع؟ إن كان بائع الورود يرفض توصيلها بنفسه لو كنت اتصلت بالهاتف لأرسلتُ إحدى الخادمات تحملها حتى هنا.»

كانت نبرة الشكوى في الكلمات التي قالتها قبل أن تتعرف جيدًا على نوع الزهرة، أكثر وضوحًا من الحنان، مما جعل نوغوتشي يستاء فجأة. وبعد أن حملت كازو الأصيص عرفت الزهرة لأول مرة. كانت تلك الزهرة التي شرحَها لها نوغوتشي باستفاضة عندما كانا يتناولان طعام الغداء في مطعم «سيه يوكِن».

ولكن هذا الاكتشاف أعطى كازو شعورًا معقَّدًا. لقد أثر عاطفيًّا على كازو بعمق إظهاره لما في قلبه بارتدائه البدلة التي صنعَتها له كازو يوم التصويت على الانتخابات. ولكن لم تصبح زهرة السحلبية هذه المرة التأثر الثاني؛ وذلك لأن كازو شعرت هذه المرة أن يد العجوز الذابلة بتلك الخدعة التي تحاول بها جذب كازو تجاهها، تحاول عنوة أن تربط بين زهرة السحلبية الأوربية التي صُبغت باللون الأحمر القاني، الزهرة المجففة التي شحب لونها في الذاكرة، وتلك الزهرة اليانعة من نفس النوع التي أمام عينها. واعتقدَت كازو أن مغازَلة هذا العجوز المعجَب بنفسه تلك تَربِط ذكريات الماضي بسهولة مع المستقبَل، وتضع السحلبية الذابلة التي في الذاكرة مع السحلبية الحية في صف واحد، ثم تحاول بتلك الطريقة حبس كازو بوضعها داخل إكليل زهور شنيع مضفر بعناية بالغة.

ظلت كازو لعدة ساعات تتظاهر بعدم الاهتمام مع إيقاظها لحاسة الحذر، ولكنها لم تنسَ أن تقول وهي تدخل غرفة النوم ما يلي:

«تلك الزهرة، ماذا كان اسمها؟ لقد ذكرتَ لي اسمها في مطعم سيه يوكِن أليس كذلك؟»

بعد أن توقَّف السعال لفترة قبل خلوده للنوم، أحدث نوغوتشي صوتًا ضخمًا وجافًّا وهو يتقلَّب بشكل كبير على جنبه داخل الفراش المصنوع من الكتان، وقالت الرأس ذات الشعر الأبيض التي أَوْلَت قفاها تجاه كازو بمشاعر منزعجة:

«الدندربيون.»

جاء شهر سبتمبر.

لأول مرة تستدعي كازو يامازاكي في الخارج. وضربَت له موعدًا في محل «سينبكيا» المتخصِّص في الفواكه في البلوك الثامن من حي غينزا.

مشَت كازو في صخب وضوضاء حي غينزا بعد غياب مرتدية كيمونو من حرير رقيق بطراز سامكومون. يمشي الشباب الذين عادوا لِتوِّهم من المصايف ببشرهم التي اسمرَّت من الشمس في جماعات. تذكَّرَت كازو شعور الإثارة غير معلوم السبب عندما كانت تنظر في السابق من نافذة قاعة الطابق الخامس لأسفل لسكان حي غينزا. ولكن الجموع الآن مجرد جموع ليس بينهم وبين كازو أية علاقة. ما من أحد تعرَّف عليها رغم تلك الخطب العديدة التي قامت بها في الأماكن العامة.

«هؤلاء من ذهبوا إلى المصيف أثناء ما كان العرق يسيل مني أنهارًا في الانتخابات.»

مع إنها فكَّرت هكذا إلا أن ذلك لم يمنعها من الإحساس أن كل جهودها كانت بلا جدوى، وأنها منفصِلة عن الجماهير. يسير الناس كل على حِدة في الاتجاه الذي يحلو له وسط أشعة الشمس الحارة بملابسهم الزاهية، وقد فُقِد تمامًا التواصل المتبادل بينهم.

أخيرًا وصلَت كازو إلى المحل الذي وضعته هدفًا لسيرها، ونظرت إلى صفوف الفواكه الاستوائية النادرة وأوراق نباتات الزينة البراقة. وعندها نظرت إليها إحدى السيدات متوسِّطة العمر ترتدي بذلة بيضاء وقبَّعة بيضاء. ثَبَّتت كازو كذلك نظرها على ذلك الوجه لفترة. لقد رأت من قبل تلك الحواجب الرفيعة المرسومة. أجل، إنها مدام تاماكي.

بعد تحية الغياب الطويل قالت مدام تاماكي ما يلي على الفور:

«أعتذر لك عن الإزعاج الذي سبَّبْناه لكم في تلك المرة.»

سمعَت كازو ذلك كأنه تعبير عن كراهية عميقة الجذور. كان الاثنان يقفان أمام رفوف برتقال سانكيست، وكانت الأرملة تتحدث وهي تفرد مرة بعد مرة ورق التغليف الأحمر المطبوع عليه حروف دقيقة باللغة الإنجليزية، وتختبر بيدها الفاكهة التي تنوي شراءها.

«هل ذهبتِ إلى مكان ما هذا الصيف؟»

– «لا.»

أجابت كازو بهذا الشكل في قليل من الغضب.

«لقد عدتُ أول أمس من كارويزاوا. إن طوكيو ما زالت حارة.»

– «حقًّا إن الحر ما زال متبقيًا.»

وعند هذا الحد أخيرًا انتبهت مدام تاماكي إلى معنى غضب كازو.

«آه، وقت الانتخابات كنتُ في طوكيو. بالطبع أعطيتُ صوتي للسيد نوغوتشي، إن هزيمته أمر مؤسِف حقًّا. لقد أسفتُ له كما لو أنها هزيمة شخصية لي أنا.»

– «أشكرك على ذلك كثيرًا.»

كان من الواضح بشدة أن كازو تكذب في التعبير عن شكرها هذا. أخيرًا اختارت مدام تاماكي ثلاث برتقالات.

«لقد طال الغلاء حاليًّا حتى أسعار البرتقال. رغم أن هذا يعتبر في أمريكا مجرد قمامة.»

مع قول مدام تاماكي ذلك أظهرَت شجاعة معاكِسة للعجرفة وتعمَّدَت أن تطلب من البائعة أن تُغلِّف لها ثلاث برتقالات فقط أمام أعين كازو. نظرَت كازو داخل المحل الخالي من الزبائن مخافة أن يكون يامازاكي قد أتى مبكرًا عن الموعد. ولكن لم تجد إلا عدة مراوح دائرة وقد وضعت فوق عدد من الطاولات.

«لقد كان زوجي يحب البرتقال ولذلك أضعه من وقت لآخر أمام مذبح العائلة في البيت. بمناسبة ذكر زوجي، لقد كان هو الملاك الذي ربط بينك وبين السيد نوغوتشي مع أنه مات دون أن يعرف.»

– «يجب عليَّ أنا أيضًا أن أقدِّم لروحه عطايا من البرتقال.»

– «لم أكن أقصد ذلك المعنى وأنا أذكر هذا الأمر.»

لم تعرف كازو لماذا ظهرت وقتها بتلك الوقاحة. ولكن كانت كازو على أي حال دعت فجأة البائعة بمِرْوحتها المصنوعة من خشب الصندل، وأمرَتها أن تصنع صندوقًا للهدايا يحتوي على دستين من البرتقال. تغير لون وجه مدام تاماكي، وبعيون متشنِّجة مسحَت العرق من على خدودها بمنديلها المطوِي المطرَّز الحواف، وظلَّت تنظر بغِل إلى كازو.

رصَّت البائعة دستين من البرتقال في صندوق كبير وزيَّنَته بورق تغليف جميل ورابطة بلون وردي وأثناء ذلك خيَّم الصمت على المرأتين. كانت كازو تتعامل مع المروحة

بتأنٍّ وهي تشم رائحة الفاكهة الغنية التي طغت على رائحة خشب الصندل، تتذوَّق ذلك الصمت وهي تراه منعشًا ممتعًا. كانت كازو تَكرَه المرأة التي أمامها من أعماق قلبها. تكرهها بكل قواها. وهكذا أصبحت متعة ذلك الصمت طاردة للقلق طردًا لا مثيل مؤخرًا.

وبدَت مدام تاماكي وكأنها جاسوس محاصَر. وبدَت حساباتها واضحة تمامًا لكازو مما أمتع الأخيرة أكثر وأكثر. في حالة انتهاء إعداد صندوق الهدية كانت مدام تاماكي تفكِّر لو كانت تنوي إرساله لشخص آخر غيرها، فهي سوف تشعر بالخجل لاستباقها الأحداث، وفي حالة أنها تنوي تقديمها كعطية لروح السفير تاماكي فسيجب عليها الخجل أكثر، كانت تلك حساباتها. وهنا لم تستطع النظر مباشرة إلى البائعة وهي تبالغ في ربط الهدية.

وأخيرًا تلاقَت عينَا مدام تاماكي مع عيني كازو. كانت عينَا مدام تاماكي تقول «شبع بعد جوع!» بينما كانت عينا كازو تقول: «أيتها الكاذبة! من المؤكَّد أن تلك المرأة ستعود إلى منزلها لتأكل البرتقالات الثلاث واحدة بعد أخرى وهي في غاية البخل عليها.»

«حسنًا، أستأذن في الرحيل. لقد سَعدتُ حقًّا بلقائك. من المؤكَّد أنه سيكون لديكما وقت فراغ فأرجو أن تأتي مع السيد زوجك لزيارتي.»

– «إلى اللقاء. تلك ستكون حملًا زائدًا عليكِ؛ لذا سأوصي بتوصيلها لبيتك. أرجو منك وضعها عطايا لزوجك الراحل.»

أشارت كازو بالمروحة إلى صندوق البرتقال الذي كان قد اكتمل تغليفه لِتوِّه.

«ماذا؟ ... ماذا قلتِ؟ ... كلا، حسنًا.»

نثرت مدام تاماكي همسات مبهمة بلا معنى ثم تأبَّطَت اللفة الصغيرة وولَّت هاربة إلى الطريق الذي لمع في شمس العصاري. بقي منظر سِن كعب الحذاء الأبيض من الخلف في مُقلتي كازو مما زاد من متعتها أكثر وأكثر. بدَت لها مثل ثعلب أبيض هارب.

دخل يامازاكي بدلًا منها وهو بنفس القلق والتملْمُل الذي كان عليه وقت الانتخابات.

«ما هذا التأخير؟»

قالت كازو ذلك وهي تسير تجاه الردهة بصوت ممتلئ بالمتعة من أعماق قلبها.

هدأت جالسة على المقعد ثم طلبت شرابًا مثلجًا. سألتها البائعة عن عنوان إرسال الصندوق. قالت لها كازو اسم تاماكي وجعلَتها تحضر دليل الهاتف وتبحث عن العنوان.

قال يامازاكي لها:

«يُفترض أن العلاقات الصاخبة ممنوعة، أليس كذلك؟»

– «لا تقل ذلك أرجوك. فهذا أيضًا ترويح عن النفس. فلقد أكثرت من قول: «من فضلكم! أرجوكم» للناس.»

ولأن يامازاكي لم يستطع أن يفهم معنى ذلك أظهر على وجهه ملامح مبهَمة ثم غطاه بمنشفة اليد.

سألته كازو بشكل غير متعمد:

«ماذا حدث لمطعم ستسوغوان؟»

– «الأمر معقد.»

– «أما من وسيلة للحيلولة دون تقسيمه؟»

– «على الأرجح لا مَفرَّ؛ فالأمر يتغير كثيرًا بعد مبلغ الأربعين أو الخمسين مليون ين ... لقد استشرتُ عددًا كبير من شركات العقارات، وكان خلاصة رأيهم جميعًا هي نفسها. إذا تم البيع على هذا النوع فأقصى رقم هو مائة مليون وحتى مع هذا لن نجد مشترِيًا بسهولة. بسبب تلك الحديقة وذلك المعمار المهيب.»

– «هل تعني أن ذلك يشمل المنقولات؟»

– «بالتأكيد. ولكن إذا تم تقسيمها وبيعها قطعة بقطعة بمساحة خمسمائة أو ألف متر مربع فالمكان في منطقة متميِّزة وعلى أقل تقدير يمكن تحصيل مائة وأربعين أو مائة وخمسين مليونًا.»

– «إذن أنت رأيك النهائي بيعها مقسمة؟»

– «ما من حل آخر للأسف الشديد.»

– «يبدو أننا لن نستطيع حتى قول للأسف الشديد أو غيره.»

– «لأن المباني والحديقة من درجة التراث الوطني ولكن.»

تابع يامازاكي كلامه بعد أن ألقى نظرة على وجه كازو:

– «أجل هناك فكرة! ألا يمكن إعادة افتتاح المطعم مرة أخرى؟»

– «هذا أمر مستحيل. فالمبنى والحديقة موضوعان قيد الرهن ثلاث مرات بإجمالي قروض تصل إلى خمسة وثمانين مليونًا، وثمة قرض بسبعة ملايين برهن كل المنقولات ... لذلك هو مبلغ لا يمكن تسديده بسهولة حتى مع افتراض أن المطعم أعاد شعبيته ثانية. لم يمر على إغلاق المطعم إلا أربعة أشهر فقط، ولكن الناس الآن تنسى سريعًا، وفوق ذلك هناك ما لم أحدثك عنه وهو أن أثناء غيابي اختُلِس من المطعم ثلاثة ملايين ين. إن المثل الذي يقول نحلة تقرص وجهًا باكيًا يصف وضعي هذا ... على أي حال إعادة الافتتاح

أمر مستحيل. ولقد تعهدتُ تعهدًا صريحًا لنوغوتشي ببيع ستسوغوان. وكما ترى طلبتُ منكَ السعي من أجل بيعه.»

لم يكن لدى يامازاكي أية فرصة للنقض أو الاعتراض بسبب نبرة حديثها المهيبة.

سألها يامازاكي بعد أن شرب عصير العنب المثلج دفعة واحدة:

«لماذا طلبتِ لقائي اليوم؟»

– «ما من شيء محدد. فقد كنت أريد سماع رأيك في بيع ستسوغوان بالتقسيم، وكذلك للترويح عن النفس قليلًا، فكرتُ أن نذهب معًا لمشاهدة عرض سينمائي.»

– «هل الأستاذ نوغوتشي في البيت؟»

– «لا. لقد خرج اليوم إلى اجتماع في مدرسة ثانوية أو شيء من هذا القبيل. فقد كره ألا يذهب لكيلا يعتقد أحد أنه يخجل من سقوطه في الانتخابات ... وأنا كذلك أخبرته أن ثمة حفل فنون تقليدية لصديقة قديمة، وأخذتُ منه الإذن بالخروج. وللحذر سوف أقوم بإرسال هدية باسمي إلى غرفة استراحتها في الحفل.»

– «هل هذا هو البرتقال؟»

– «نعم هو كذلك.»

– «أنت يا سيدتي لا يفلت منك خطأ.»

نظر الاثنان لبعضهما البعض وضحِكَا. ثم بعد ذلك عادا إلى الحديث عن الأمور الإدارية، وتحول الحديث إلى تصفية الأعمال التي حطمت قلب نوغوتشي منذ الشهر الماضي. لقد قرر نوغوتشي بيع بيته وكل أملاكه المنقولة تمامًا لتسديد ديونه، والانتقال إلى منزل صغير بالإيجار، وقرر بالفعل بيتًا في مكان عميق الحشائش في منطقة كوغانيه، ولكن ثروة نوغوتشي المنقولة لا يمكن الاستهانة بها، ومن المفترض أن تُباع مع البيت بمبلغ يصل إلى خمسة أو ستة عشر مليونًا. ثم تقرر أن يكون مطعم ستسوغوان المغلق حاليًّا هو مكان مزاد بيع المنقولات، وتم بالفعل نقل الكتب الغربية النادرة والتحف واللوحات والمخطوطات إلى ستسوغوان.

«المزاد بعد غد، أليس كذلك؟»

– «بلى. نرجو ألا يكون يومًا ممطرًا.»

– «لماذا؟»

– «لأنه يجب استخدام الحديقة كذلك. أنت يا سيد يامازاكي تعرف ذلك.»

طلب الاثنان النسخة المسائية من الجرائد واختارا الفيلم الذي يجب أن يذهبا لمشاهدته. المشاهدة هي للترويح عن النفس؛ لذا يجب أن يكون فيلمًا هزليًّا ممتعًا. ولكن رغم قول ذلك فقد كانت كازو تكره الأفلام الكوميدية.

وضعَت كازو وجهها فوق الجريدة المسائية التي بُسطت أمامهما، حتى كادت خدودهما تتلامس، وكان يامازاكي يتأمل تحركات أصبعها الرقيق الأبيض الذي ترتدي فيه الخاتم تتابع الحروف المطبوعة بمشاعر ثقيلة وكئيبة، وهو يسأل نفسه: «تُرى ما الذي أمثله أنا بالنسبة إلى تلك المرأة؟» إن كازو أمام الرجل الذي لا تحبه فقط تصبح امرأة لعوبًا مشاعرها طبيعية، مسترخية في راحة، وتلقائية وأنانية بل لدرجة أن تفوح منها رائحة الريف البكر، ولكن أمام رجل تحبه، تختفي «الطبيعة التلقائية» منها. إن يامازاكي يرى بالتأكيد كازو التي لا يعرفها نوغوتشي. ولكن ما من سبب يجعل يامازاكي يشعر أن ذلك امتياز محمود.

... وأثناء ذلك، تعب الاثنان من عملية اختيار الفيلم.

«لقد ذهبت رغبتي في الذهاب إلى السينما بالفعل.»

– «ما من سبب للذهاب بدون الرغبة في ذلك. في الأغلب بهذا الحال الترويح عن النفس عنوة لن يؤدي الغرض منه. فالآن الوضع أفضل، لأن الانشغال يمكن أن يُلهي، ولكن قريبًا سيأتي فراغ التي لن ينفع معه شيء. الفراغ الذي يجعلك تكرهين حتى تحريك أصبع واحد من أصابعك.»

هكذا قال خبير الانتخابات.

انعقد مزاد بيع مقتنيات بيت نوغوتشي بعد يومين منذ الصباح في ستسوغوان. قام نوغوتشي ببيع كل شيء وأي شيء فلم يُبقِ على شيء.

رُصَّ الأثاث الضخم فوق حشائش الحديقة بعد فرش سجادة من اللَّبَّاد فوق الحشائش. كانت قوة أشعة الشمس ذلك اليوم بارزة، وكأن الصيف قد عاد مرة أخرى. جَذَب زوجَا الأسِرَّة المتماثلان فوق العشب أنظار الناس. كانَا السريرَين اللذَين بات عليهما الزوجان نوغوتشي في الليلة السابقة، يغطيهما مَفرَشَا سرير مصنوعان من قماش دمشقي فاخر، ولكن كانت نظرات الزبائن المريبة تعطيهما شعورًا مأساويًّا.

كان زَوجَا الأسِرَّة منفصلَيْن عن باقي الأثاث ووُضِعَا في المنتصف. وكان بريق القماش الدمشقي مريبًا للغاية وقد انصبَّت عليه أشعة شمس بداية الخريف القوية. وبدت السماء

الزرقاء من بين قمم أشجار الصنوبر والكستناء والميس الصيني العالية، ولكن كان زَوجَا الأسِرَّة اللذان أَخذَا حيِّزا معتبرًا من مساحة المكان وسط الحديقة التي امتدَّت فيها الحشائش والأعشاب لدرجة موحشة؛ مثار اهتمام الناس ونظراتهم.

قال أحد الزبائن بعفوية:

«إنه مفيد جدًّا. كان يجب أن يوضع في هذا المكان على الدوام.»

وعندما حل الغروب سقطَت ظلال أغصان الأشجار فوق السريرين وأحاطت بهما أصوات حشرات الزيز الليلية.

الفصل السابع عشر

مقبرة غيوم الغروب

لم يكن ثمة أمر هدد سلام قلب كازو، مثلما فعلت كلمة يامازاكي التي قال فيها:

«سيأتي عليك فراغ تكرهين حتى تحريك أصبع واحد من أصابعك.»

تُرى متى يأتي ذلك؟ أيأتي بعد عشرة أيام أم يأتي غدًا؟ لا ربما يكون جاء بالفعل وهي فقط التي لم تنتبه له.

وعندما تفكَّر كازو في ذلك، تشعر ببلبلة لا يمكن وصفها بالكلمات. فليس لديها ثقة بالنفس على تحمُّل ذلك الفراغ، ولقد ذاقت حتى تلك اللحظة من نصف عمرها أوقات فراغ أكثر من مرة، ولكنها تتوقع أن الفراغ هذه المرة سيكون فراغًا عملاقًا لا يمكن مقارنته بما سبق.

جرَّبَت كازو بعدة طرق أن تتخيل ملامح ذلك الوحش المخيف، ولكن لم يستطع خيالها أن يصل إلى شيء لم تخبره به من قبل. أيًّا كانت ملامح الوجه مُرعِبة ولكن مجرد أن يكون له وجه هو أقل ضررًا، ولكن ربما يكون ذلك الوحش عديم الوجه.

إن تجربة الانتخابات جعلَت عَيْنَي كازو تبرق بحذر تجاه صفاتها الشخصية الحقيقية. فلقد فككت شخصيتها التي آمنت بها حتى ذلك الوقت إيمانًا مُبهمًا وغامضًا، فاتضحَت لها الآن صفاتها المميزة المختلفة بشكل دقيق، على سبيل المثال، هي يمكنها تحمُّل ذلك الأمر حتى درجة ما، أو أنها تميل في ذلك الاتجاه بمقدار تلك الزاوية إلخ، ونتيجة لذلك أيقنت كازو أنها لم تَعدْ تحتمل أي قدر من الفراغ مطلقًا. مقارنة بالفراغ، تُفضِّل حياة مأسوية مُفعمة بالنشاط والحركة. إن عاصفة شمالية تصل لدرجة شق الجسد نصفين أهون عندها بكثير من حالة السكون في وسط مفرغ من الهواء.

أثناء وقوعها في تلك البلبلة الفكرية، دائمًا كان يلمع في ذهن كازو الحروف الذهبية لكلمة: «إعادة افتتاح ستسوغوان». ولكن لم تكن لديها أية حيلة لتحريك وضعه المستحيل

والميئوس منه. تعرف كازو ذلك معرفة تامة. تعرفه معرفة تامة ولكنه يسحر عينَي كازو على الدوام مثل انبهارها تجاه الشمس الصغيرة التي تتألق كالذهب الأبيض في ركن من أركان السماء ذات الغيوم. إن الأمر المستحيل هو أصل ذلك البريق. ذلك هو معنى التألق. تتعلق بجمال وسط السماء العالية. مَهما أشاحت بوجهها عن ذلك التألُّق أكثر من مرة، يصل ذلك البريق إلى عينها، والسبب أن ذلك الأمر؛ مستحيل التحقيق.

ثم في المرة الأخيرة التي تلقي إليها بنظرة خاطفة تصل إلى اعتقاد أن كل الأمور الأخرى ظلام دامس.

... ظَل قلب كازو أثناء بضعة أيام، يضع على إحدى كفتي الميزان، الفراغ المحَتَّم قُدومه، وعلى الكفة الأخرى إعادة افتتاح ستسوغوان المستحيلة. تحتار تلك المرأة التي تفخر بسرعة اتخاذها القرار، بين شيئين مُبهَمَين مجرَّدَين على طرفي النقيض. تُرى ماذا سيكون طالعها في ذلك الوقت إذا سحبت اقتراع قراءة الطالع في معبد شينتو؟

عندما تسترجع أحداث الانتخابات منذ عدة أشهر في الماضي، لم يكن حزب المحافظِين قد فاز بسبب موقفه السياسي. ولم يفز بسبب المنطِق. ولم يفز بسبب العواطف. ولم يفز بسبب شخصية المرشَّح. فلقد كانت شخصية نوغوتشي عظيمة بكل تأكيد، ويملك منطقًا قويًّا وعواطفه القلبية رفيعة ونقية. لقد فاز حزب المحافظِين بواسطة الأموال ... فقط.

ويجب أن يُقال عن ذلك إنه درس عادي متواضع، ولكن لم تستنفد كازو كل طاقاتها في الانتخابات من أجل تعلُّم ذلك الدرس. فالإيمان أن المال أقوى من أي شيء آخر، لم يكن إيمانًا جديدًا بدرجة خاصة بالنسبة إلى كازو. ولكن على الأقل استخدمت كازو المال مفعمًا بالعواطف، متضمنًا بالصلوات، ولكن كانت أموال المنافس تتدفق كالآلة. كانت الخلاصة التي تلاحق كازو هي الحزن من أن عواطفها ومنطق نوغوتشي كانَا بلا فاعلية أو تأثير، بدلًا من الحزن بسبب قلة المال. الحزن من أن كل أفعالها أثناء الانتخابات التي ضمنتها روحها وطاقاتها وآمنت بها في السابق؛ مثل الدموع الإنسانية، والابتسامات والضحكات الودودة والعَرق ودفء الجسد ... انتهت جميعها بلا طائل.

كان ذلك صدمة جسدية بالنسبة إلى كازو، فلم تَعُد قادرة على الوثوق في سحر دموعها وابتسامتها. من بديهيات المجتمع الذي نشأت وتربَّت فيه كازو في الماضي، أن النفاق سلاح عظيم القوة، وكان يُفترض أنه يستطيع هزيمة قوة السُّلطة وقوة المال، ولكن كازو التي مرَّت خلال تجربة الانتخابات، اعتقدت أن تلك الأفكار مثل الأساطير البعيدة. هكذا كان تقييمها للانتخابات؛ بلا رأس ولا ذيل. أي إن «المرأة» هزمها «المال».

إنه على النقيض تمامًا من ذلك الانتصار الجسدي الواضح والصريح عندما تُسلِّم المرأة نفسها لغني لا تحبه بعد أن تتخلَّى عن حبيبها الفقير.

ثُم، وقياسًا طبيعيًّا على ذلك، كانت هزيمة نوغوتشي كذلك في عين كازو مماثلة. أي إن «المال» هزم «رجولة» نوغوتشي.

لقد شعرت كازو بالغضب والكراهية تجاه تلك القوى التي برهنت لها بلا خجل أو حياء أن المنطق والعواطف والجاذبية الجسدية كلها لا حول لها ولا قوة. ولكنها انتبهَت أخيرًا أن حالتها النفسية تلك التي بلا مخرج مرتبطة بشكل لا يمكن فصله على استحالة إعادة افتتاح ستسوغوان. كان قلب كازو يعيش الفترة الأخيرة من الانتخابات على أمل حدوث معجزة تجعل المستحيل ممكنًا. الآن مات ذلك الأمل. يمكن القول إن الأمل في تحقيق تلك المعجزة في فترة نهاية الانتخابات، كان هو حقًّا أملها تجاه السياسة. ولكن السياسة خيَّبت أملها، ثم فقدَت كازو بالكامل أملها الروحاني تجاه السياسة.

ولكن إذا كانت كازو يئست من السياسة لهذا السبب فقط، فهذا يعني أن كازو، كانت مثلها مثل نوغوتشي تعتقد أن السياسة هي فقط المنطق والعواطف وقوة الشخصية. والسبب أن ما ثبت عدم فاعليته هو تلك العناصر الثلاثة فقط. وعلى العكس، إذا كانت السياسة هي التي أعطت كازو شجاعة الأمل في تحقيق المعجزة وقتها رغم ما يحيطها من أخبار كانت تدل في الغالب على اليأس، وبغض النظر عن مآل الأمر، فإن السياسة الآن لا تساوي اليأس.

عندما وصل تفكيرها إلى هذا الحال، تغيَّرت فجأة معنى السياسة داخل قلب كازو.

لقد كانت كل جهودها عديمة النفع بدرجة كبيرة، ولكن التخلِّي تمامًا عن الأمور التي تأكد عدم فاعليتها والتشبُّث فقط بالأمل في حدوث المعجزة، لربما يجعل ذلك المستحيل يتحقق ويصبح ممكنًا. ولربما تساعدها السياسة مرة أخرى. ربما كان الأمل في المعجزة الذي يظهر بين الفينة والأخرى المثالية، وكذلك الجهود تجاه المعجزة التي تحقق الواقعية، شيئًا واحدًا تحت مُسمَّى السياسة.

ربما يكون إعادة افتتاح ستسوغوان ليس مستحيلًا.

أثناء ما كانت تفعل ذلك، تولَّد داخل قلب كازو اكتشافًا سياسيًّا رائعًا.

«إن حزب المحافظِين فاز بالأموال؛ ولأنه أصبح عليَّ فقدان ستسوغوان، فالطبيعي أن أموال حزب المحافظِين تلك يجب أن تعوِّضَني.»

كان ذلك الاكتشاف عظيمًا بالفعل.

استغلَّت كازو فرصة عدم وجود زوجها في البيت واتصلت هاتفيًّا بإين ساوامورا في مدينة كاماكورا. وكان ساوامورا قد تقلَّد منصب رئيس الوزراء عدة مرات ويُعتَبر الشخصية المحورِيَّة في قوى المحافظِين في اليابان. وقد تعرَّفت كازو على زوجة ساوامورا العُرفية بسبب معرفة قديمة بها.

على غير المتوقَّع حتى كازو اهتز صدرها من الخفقان عندما اتصلَت بالهاتف.

طرَق الخَفَقان صدر كازو بمطرقة. كانت كازو تَقترب وقتَها لأول مرة — دون أن تعلم هي — من جوهر السياسة الحقيقي؛ أي: الخيانة.

كانت عائلة ساوامورا على مدى أجيالها تؤمن بالإلهة البوذية «بنْزايتِن»، ولذلك لم يتزوَّج إين حتى نهاية عمره حرجًا من تلك الإلهة العذراء شديدة الغيرة، بل اتخذ غيشا من منطقة ياناغيباشي تُدعى أوممه زوجة عرفية له، ولكن كان وضْعُها أمام المجتمع لا يزيد عن كونها خادمة. ولم تظهر أوممه طوال عمرها في العلن ولم تتحدث أمام الزائرين ولو بكلمة. وحتى الآن ما تزال تدعو زوجها في الواقع بكلمة «مولاي».

تجاه طلب كازو المقابلة قالت أوممه ما يلي في وضوح:

«أعتقد أن سيدي سيسره مقابلتك، سأسأله عن الموعد المناسب.»

وكانت النتيجة تحديد موعد اللقاء الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخامس والعشرين من سبتمبر. يجب على كازو عدم التخلف عن ذلك الموعد لأي سببٍ كان.

... في اليوم التالي، عندما علمتْ أن نوغوتشي قد حدَّد موعد الانتقال للبيت الجديد في كوغانيه يوم الخامس عشر من سبتمبر، اندهشت كازو من سوء حظها الشديد. ولكنها لو أخلفت موعدها ذلك فعلى الأرجح لن يرضى إين ساوامورا أن يحدد لها موعدًا آخر.

عانت كازو من التفكير في سبب قاهر يجعلها تتغيب عن البيت في يوم الانتقال. تعلم جيدًا أن الزوجة يجب أن تحضر عملية الانتقال ونقل الأمتعة. ولكن نوغوتشي هو الذي قرَّر موعد الانتقال بمفرده دون أن يستشيرها، فلم يكن من صفات نوغوتشي الشخصية أن يناقش مع زوجته أمرًا مثل هذا. لا تستطيع كازو الآن تغيير موعد انتقاله للبيت الجديد بقوتها الذاتية.

عادت مرة أخرى إلى كازو قوة اتخاذ القرار العشوائي، اليوم السابق للانتقال، عادت إلى ستسوغوان بحجة إنهاء بعض الترتيبات، ثم استدعت طبيبها الخاص الذي يسكن بجوار ستسوغوان، واشتكَت له أنها تعاني من صداع شديد، وجعلَت الطبيب يتصل

بنفسه من هناك بنوغوتشي ليبلغه أنها من الأفضل لها أن تبيت تلك الليلة في ستسوغوان. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، استدعَت الطبيب مرة ثانية، وجعلته يتصل بزوجها مرة أخرى، ليقول له:

«إن من الصعب عليها في تلك الحالة القيام بالمساعدة في نقل العفش اليوم، وإن عليه أن يسمح لها بالراحة حتى المساء في ستسوغوان.»

وبعد أن جعلت الطبيب يغادر سريعًا، أرسلَت اثنتين من الفتيات العاملات في المطعم للمساعدة في نقل العفش، تاركة معها أخلص العاملات وأقربهن إليها. ثم نهضَت كازو من فراش المرض بقوة اندفاع هائلة. كانت العاملة الأثيرة إليها قد فهِمَت وكانت قد أعدَّت لها ملابسها. كان الكيمونو طبقة واحدة من قماش مجعَّد مُزيَّن بطيور السِّمان وطُرز على حوافه زهور ناردين بتدرُّج من ألوان البني، وطُرز الحزام بأنواع مختلفة من الحشرات بخيوط فضية وبرونزية على أرضية بيضاء. جلست كازو أمام مرآة خزانة التجميل التي انصبَّت عليها مباشرة أشعة شمس صباح يوم في بدايات الخريف، وبدأَت تتجمَّل بعد أن خلعَت النصف الأعلى من الرداء. وقفَت العاملة بجوارها مكتومة الأنفاس تساعدها بتناولها الشيء الذي تحتاجه بدون أن تتحدَّث إليها كازو، بل حركة واحدة من عين كازو في المرآة. كانت العاملة تعلم أن مُهمَّة كازو الضخمة اليوم ستؤثر على مستقبَل العمال والخدم جميعًا.

بالرغم من ذلك التعب والإرهاق أثناء الصيف لتلك الدرجة، إلا أن كتف وصدر كازو الوفيرين لم يصبهما أي قدر من الترهُّل. فقط برزت الرقبة التي اسمرَّت بلون بني فاتح بسبب لفح الشمس أثناء الحملة الانتخابية، كزهرة ذابلة من بين البشرة البيضاء مثل الثلج. من الجهة الأخرى للمرآة تَنصبُّ أشعة شمس الصباح بطول السطح، وكانت تختزن داخلها بقايا عنف حرارة الصيف. ولكن بشرة كتف كازو وصدرها البيضاء كانت كأنها مخزن للثلج الطبيعي. كان ذلك البياض المركز الدقيق والرقيق رافضًا للضوء، ويبدو وكأنه يخفي داخله الغرفة الداخلية للصيف المظلم المنعش.

واقعيًّا تكفي بشرتها لا تَنمُّ مطلقًا عن عمرها لكي تثير العجب. كأن البشرة استطاعت المروج فالتةً بِلدُونة من أصفاد العمر الصلدة. كانت تلك البشرة المستقِرَّة بتلقائية وطبيعية، تلك البشرة التي تمتلك قوة مرونة كامنة فيها رشاقة ودهاء من نوع نادر، تكتفي بنفسها بنعومة وكأنها حليب امتلأت بها تمامًا قاعدة أصيص ورد. بدَت آثار مسام بشرتها بالغة الصغر التي تمدَّدَت بإسهاب متلقية أشعة شمس الصباح معطية لبشرتها توهُّجًا مُعتَّقًا.

قالت العاملة:

«يا لها من بشرة رائعة. إنها تجعل حتى النساء يرغبن في الهجوم عليها والتهامها التهامًا.»

– «لا وقت لدينا لهذا الكلام.»

ولكن كازو في قلبها قَبِلت ذلك المديح وغفرته لها، ثم فتحت عينيها على وسعهما بشدة ووجهتهما إلى داخل المرآة. دهنت سطح بشرتها كله بماء البشرة، وجعلت العاملة تدهن قفاها، وبدأت تضع المساحيق البيضاء، والحدود الواضحة بشدة مع الجزء الذي لفحته الشمس، أخفته بالدهان الأساسي بلون البشرة. لم يسبق لكازو أن وجَّهت كل قواها في التجمل بتركيز من قلبها وتوتُّر شديد في وقت قصير من قبل مثل هذه المرة.

«هل السيارة جاهزة للتحرك في أي وقت؟»

– «أجل.»

ومع بدء كازو في ارتداء الملابس أرسلت الخادمة لتستدعي السائق. دخل السائق الشاب، ووضع إحدى ركبتيه على أرض الممر. ألقَت سيدة المكان وهي تربط حبل الخصر نظرة بملامح حادَّة إلى السائق قالت له:

«حسنًا هل تسمعني؟ حذارِ أن تخبر مخلوقًا بالمكان الذي سنذهب له اليوم. لو عُرف سيكون الأمر جَللًا. حتى إن سُئلتَ من أي شخص فأجبتَ لن أُمرِّر الأمر بسهولة.»

عندما عادت كازو إلى ستسوغوان في المساء كانت في أحسن حالاتها المزاجية. قالت للخادمة الأثيرة، إنها كلما حاولت المغادرة أمسك بها ساوامورا ودعاها ذلك العجوز صعب المراس للغداء معه في كاماكورا. ثم دخلت الحمام في عجلة لكي تزيل مساحيق التجميل. ثم بدَّلَت ملابسها إلى كيمونو بسيط وغير مُلفِت، وتظاهرت أن احمرار وجهها بسبب الاستحمام هو حمَّى من بقايا أثر الصداع وهرعت مباشرة إلى البيت الجديد في كوغانيه.

لم يقل نوغوتشي لها شيئًا. فقط سألها سؤالًا بسيطًا عن حالتها ولم يسمع إجابتها باهتمام.

بعد أن شاهدَت كازو حالة الانتقال اندهشت بعد فوات الأوان من برود المجتمع. فلم يأتِ أحد من حزب الإصلاح إلا اثنين فقط من السكرتارية، ولم يكن ثمة أي أثر لأولئك الشباب الذين كانوا يحومون حوله بأعداد غفيرة أثناء الانتخابات. كان يامازاكي ينقل بنفسه خزانة الشاي بأيدي تنقصها المهارة. وكان الباقي السكرتير ثم الخدم الذين أتوا من ستسوغوان من الأصل.

كان البيت يطل على ضفة النهر في كوغانيه القريب جدًّا من محطة هاناكوغانيه على خط قطار سيبو الغربي. كانت الطريق المعبدة التي تمر على ضفة النهر في الناحية الأخرى من سطح الماء هي طريق إتسوكائتشي السريعة. وكانت الضفة على هذه الجهة طريق ترابية؛ لذا كانت أعشاب الضفة والنباتات التي تُعَد أسوارًا للبيوت غارقة في غبار ناصع البياض. كان البيت ذو السبعة غرف له حديقة غنَّاء رحبة، ولكنه بُني بمواد بناء رخيصة، فكان البيت يهتز بأكمله عندما تمر عربة نقل من أمامه. وزُرع شجر صفصاف وأرْز ياباني عتيق ونخيل بجوار أعمدة البوابة المصنوعة من الخشب الطبيعي.

... خرج الزوجان في نُزهة للمرة الأولى بعد ظهر اليوم التالي، بعد أن هدأَت الأمور قليلًا داخل المنزل. مشى الاثنان لفترة في الطريق الضيقة فوق الضفة ذات الحشائش الكثيفة، في عكس اتجاه تيار النهر.

لا تتذكر كازو مثل هذه الحياة الريفية إلا في طفولتها البعيدة. حتى لو كان مرور السيارات أكثر بكثير في طريق إتسوكائتشي السريع، ولكن لا تمر السيارات في طريق هذه الضفة إلا عربات النقل والدرَّاجات مرورًا نادرًا، علاوة على أنهم لم يُصادِفوا حتى البشر في الطريق الضيقة فوق الضفة لا في الذهاب ولا في الإياب. سمعت كازو صوت كلب ينبح في الظهيرة نباحًا أجوف وهو ما لم تسمعه منذ زمن بعيد. وكانت الطريق الضيقة تمتلئ بأصوات العديد من الحشرات. وتفتحت سنابل نبات الحسكة الكثيف بالفعل وكانت السنابل تلمع في رشاقة بلون رمادي فضي طازج. تُذكِّر الأجزاء السفلية التي تواجه الطريق من الخيزران والحشائش البرية عالية القامة والتي كأن الغبار قد نُثر عليها، بوِرَش صناعة الجبس، ولكن الحشائش فوق الضفة كانت جميعها بها روح وحيوية.

وقد نبتَت النباتات كما يحلو لها في تلك الطريق الضيقة التي تمر أسفل صف من أشجار الكرز على الجانبين، مما يجعل المرء يستطيع أن يتخيَّل منظر الحشائش في فترة الصيف. من شدة عمق الحشائش لا تستطيع أن تتلصص وترى سطح ماء النهر. تمد أشجار الكستناء وأشجار الحرير فروعها فوق الماء كما يحلو لها، وفي بعض الأماكن تتلاقى الأفرع على الجانبين، وعلاوة على ذلك تشابكت هناك نباتات اللبلاب، فلم يكن يُسمع سوى فقط صوت الماء ضعيف المتعة للغاية. إذا حاولت أن ترى الماء، يجب أن تُعرِّض نفسك للخطر بأن تخطو بقدميك فوق جرف الحشائش.

كانت الطريقة الضيقة بالغة الضيق لدرجة عدم سماحها للاثنين أن يسيرَا جنبًا إلى جنب. وهنا تقدَّم نوغوتشي للسير في المقدِّمة. لقد اضطر إلى بيع حتى عكازته التي على شكل كوبرا في المزاد؛ لذا كان نوغوتشي يسير وهو يُبعد الحشائش حوله بالعصا الحقيرة المصنوعة من خشب الكرز. رأت كازو شعر نوغوتشي من الخلف وقد صار كله أبيض. وفقد الكتف الذابل دون إرادة منه هيبته وبدَا ظهره بالقميص الرمادي ينضح برائحة الاعتزال لدرجة كبيرة.

ولكن كانت كازو تعلم أن نوغوتشي يتظاهر بذلك عمدًا. فلقد تقدَّم نوغوتشي من نفسه ولعب دور السياسي المعتزل من تلقاء نفسه. عدم بحثه بعمق عن سبب غياب كازو يوم أمس، وتحمُّله أثناء الانشغال في الانتقال إلى بيت جديد ببساطة وهو الأمر الذي كان في العادة يجعله يثور غاضبًا، ... كان كل ذلك واحدًا بعد آخر يُظهر موقف نوغوتشي الجديد. كان نوغوتشي يحاول البحث عن بذور المتعة في أي شيء يقابله، محاولًا الاستمتاع بوقت الفراغ بعد أن فقد كل شيء. ولكنه لا يعثر على تلك المتعة بسهولة؛ ولذا ثمة شيء رسمي صارم ومنطقي في مرح نوغوتشي الحالي يعكس مزاجه السابق.

وفعليًّا عندما كان على وشك الخروج للنزهة هذه المرة استنشق نوغوتشي الهواء النقي في الضواحي وقال:

«آه ... يا لها من متعة!»

وكرَّر تلك الكلمة ثلاث مرات بتعبيرات مختلفة تناسب الحالة في كل مرة. كان من صفاته أنه عندما يقرر في داخله هدفًا ما، لا يهدأ باله حتى يوحد ويجمع كل الأمور الأخرى لتحقيقه. وكان يؤمن أن الجميع سيعطونه كل قواهم ويساعده صفاؤه الأخلاقي في ذلك. أو ربما كان يحلم بذلك. إن من ينوي ممارسة السياسة سيجد أعداء، ولكن الذي يضع الشِّعر هدفًا له لا يجب أن يكون له أعداء ... حتى الآن ما زال هناك عدم توافق. حتى الآن تتبقى أمور كثيرة غير مرتَّبة. ولكن في النهاية سيتطهر كل شيء ويسير نحو التوافق كما في كلمات قصيدة غوته «أغاني المسافر الليلي» من المؤكد أنه سيُرشد إلى «الراحة في قمة الجبل.»

رأت كازو التي تسير محنيَة الرأس، قِطعًا من زجاجات ليمونادا زرقاء، وزجاجات بيرة مغروزة بعمق في تربة الطريق الترابية الضيقة. كانت مُرصَّعة في الأرض بإحكام بعد أن غسلتها الأمطار والرياح، ويُعتقد أن مر عليها زمن طويل.

قالت كازو لزوجها:

«من المؤكَّد أن هذا المكان يكون في غاية الازدحام في موسم مشاهدة الزهور.»

قطعت تلك الكلمات أحلام اليقظة التي كان نوغوتشي غارقًا فيها. ولكنه كان قد جهز بالفعل ردًّا مختلفًا. رد بصوت مرح مجيبًا:

«لا. كما سمعتَ مؤخرًا لم يعد الأمر كذلك. فأشجار الكرز في تلك المنطقة شاخت تمامًا، وفوق ذلك فالعناية بها رديئة؛ لذا لا تزهر زهورًا تجعل الناس يرغبون في رؤيتها. ويبدو أن محبي مشاهدة الزهور الباحثِين عن الكمال دائمًا، يتجمَّعون في حدائق كوغانيه. هذا ما قاله يامازاكي لي.»

– «إذا كان الأمر كذلك فهو أمر جيد.»

تركت كلمة كازو ورائها أثرًا غير مقصود نوعًا ما. سبب عدم القصد هذا كان مبهمًا حتى لكازو نفسها. كانت كازو ترى حلم «الجماهير».

وقف نوغوتشي تحت شجرة كرز قائلًا وهو يطرق بطرف عصاه جذع به تجويف رطب:

«انظري! هذا هو، إنها على وشك إن تموت وتذبل.»

نظرت كازو بمشاعر مرتَعِدة إلى هذه الحركة النشيطة الحيوية منه التي أوضحت على العكس شيخوخته أكثر، حيث تسقط ظل رموشه التي تشبه مكنسة قديمة كثر استخدمها فوق ابتسامة عينيه الحنونة.

وصلت كلمات نوغوتشي في صوته المرح مرحًا مصطنعًا، فوخزت بألم قلب كازو كلمة كلمة مثل ألياف زجاجية شفافة. في الواقع لقد شعرت على العكس بعدم السرور أنها لم توبخ بسبب ما فعلته في اليوم السابق.

لقد ذهبَت في اليوم السابق إلى ساوامورا ومعها دفتر تبرُّعات من أجل إعادة افتتاح ستسوغوان. بدأت كازو ذلك الطلب بتجهيز خطة من مرحلَتَين كما تفعل دائمًا. فقد طلَبت في البداية طلبًا مفاجئًا وهو أن يستخدم ساوامورا تأثيره ليجعل وزير الخزانة ووزير التجارة والصناعة الحالِيَّين، يعملان لها ترتيبات خاصة للحصول على تمويل. ظل ساوامورا يفكِّر بعض الوقت، ثم أجاب إنه من الصعب عليه فِعل ذلك، بالإضافة إلى أن تلك الخطة المتهوِّرة لن تفيد كازو في الوقت الحالي.

وعندها قدَّمت له دفتر التبرعات، وأقنعَته أنها إذا حصلت على اسم ساوامورا على رأس القائمة فلن يستطيع أحد الرفض. ابتسم ساوامورا ابتسامة مُرَّة واعتذر لها؛ لأنه

رجل متقاعِد لا يستطيع إلا القيام بدور رمزي. وأمر أوممه أن تُذيب الحبر الصيني، ثم كتب بخط يد رائع: «عشرة آلاف ين فقط لا غير: إين ساوامورا.»

يُفترض أنه لا أحد يعلم بذلك بعد، وما من احتمال أن يصل الأمر إلى أذن نوغوتشي الآن، ثم لا بأس من أن يعرف بعد أن يدور دفتر التبرعات على من اقترحهم ساوامورا مثل ساييكي رئيس الوزراء وغينكي ناغاياما، وأشخاص كثيرين في عالم المال والأعمال.

منذ اللحظة التي حصلت فيها كازو على توقيع ساوامورا في دفترها أمس، اشتعل قلبها فرحًا بهذا النجاح غير المتوقَّع. انتشرت طاقاتها في كل الاتجاهات مرة أخرى مثل النيران البرية، وشعرت بفرحة لا توصف. كان الأمر الوحيد الذي ظلَّت تفكر فيه منذ ليلة أمس هو كيف تخفي فرحتها تلك. وكانت النتيجة أن قرَّرَت كازو داخلها، أن تحني جسدها ضد إرادتها — مثل القطط التي تحجز طاقتها الزائدة بالتقوُّس — فتبدي قدرًا من السعادة ضئيلًا جدًّا يتناسب مع سعادة زوجها بإذعانها له، ثم بعد ذلك تجتهد في الحفاظ على ملامح وجه كئيبة. ولكن جعل ذلك الاجتهاد غير الطبيعي أعصابها حساسة بلا داعٍ … وفكَّرت كازو أن شعورها بعدم الارتياح تجاه سماح نوغوتشي لها بسبب تلك الحساسية.

ولكن عندما تفكر أن نوغوتشي لا يعرف شيئًا، تبدو لها هيئته تلك وهو يتنزه في قميصه رمادي اللون متكئًا على عصاه في غاية الحزن والوحدة بما لا يمكن وصفه، بل وشعرت أن معرفة نوغوتشي بالأمر أحرى أن تجعل قلبها يستريح. لم يكن في وعي كازو أنها ارتكبت إثمًا لدرجة أن ترغب في عقاب نفسها، بل وكانت أيضًا تحلم أن نوغوتشي سيفهم مشاعرها في المستقبل.

«انظري!»

وقف نوغوتشي مرة أخرى، وهو يشير إلى الضفة على الجهة الأخرى.

«ثمة مكان لتقديم الشاي مثل هذا في هذه الأيام. ألا يبدو كمشهد من مسلسل تاريخي؟»

وعندما نظرت كازو، رأت محلًّا عتيقًا لطعام الأودِن مع الشاي مواجهًا للطريق على الضفة الأخرى. أسفل الإفريز المائل، باب يعلوه التراب نصفه الأسفل خشبي ونصفه الأعلى زجاجي ليظهر قائمة الوجبات، ويتدلَّى من ذلك النصف الزجاجي لافتات من القماش بألوان متعددة، والنصف الخشبي مَغطًى بقماش أحمر. يمكن رؤية أن اللافتات المتدلِّية كُتب عليها بحروف كبيرة أسماء الوجبات «أودِن» «دانغو» … إلخ.

«يا لها من شاعرية!»

رفعت كازو صوتها المتعجِّب في مبالغة. لاحظ نوغوتشي أن ثمة بيت عنكبوت سميكًا وعريضًا يمتد على كامل سطح الحشائش بجوار قدم كازو التي وطئت الأرض بها، فأسرع بإبعاده بطرف عصاه. اشتبكت خيوط العنكبوت بالعصا، ثم طفَت قليلًا واستقبلَت أشعة الشمس الغاربة فأوصلت ببطء لمعانًا طفيفًا داخل الهواء.

لم تعُد كازو تحتمل الصبر، فقالت أخيرًا ما كان يجب أن تقوله.

«حسنًا، إنه بيت جيد للعيش في هدوء، ولكن يبدو أنه من الأفضل تجديد الحمام وإعادة بنائه على الأقل. مَهما كان بيت إيجار، فسنعيش فيه طويلًا.»

قال نوغوتشي بمشاعر رضا: «هذا ما كنتُ أفكِّر فيه أنا أيضًا. فمن الأفضل أن أستمتع بحمام العودة من لعب الغولف.»

– «غولف؟ أجَل لقد قلتَ إنك مارسته في الماضي خارج اليابان ... لكن ماذا عن الأدوات؟»

– «أفكر بعد استقرار الأمور، في العودة لممارسة الغولف، سأجمع أدوات رخيصة من محل أدوات مستعملة. وجود ملعب كوغانيه للغولف بالقرب من هنا، هو ما جعلني أفكر في ذلك، وسأدعو أصدقائي القدامى وأحيانًا أدعو أصدقائي الأجانب.»

– «أرجو أن تفعل ذلك، فهي فكرة رائعة وصحية. لقد كنت أنا أيضًا أفكر أن توقفك فجأة عن ممارسة أي شيء بعد تلك الحملة الانتخابية العنيفة سيكون ضارًّا جدًّا بصحتك.»

هكذا وافقته كازو وهي تُبدي هذه المرة فرحة صادقة. فمن الضروري أن يواصل زوجها حركته ونشاطه بأي شكل كان.

وصل الاثنان إلى أول جسر على النهر. ثم استندَا على الأنابيب المعدنية التي صُنعت بديلًا عن درابزين الجسر الصغير البسيط، وتلصَّصَا النظر واستطاعَا لأول مرة رؤية تيار الماء أسفل أغصان الأشجار المتشابكة. يتدفَّق تيار النهر بسرعة شديدة وكانت أشعة الشمس المتسربة من بين ظلال أوراق الكستناء تصنع من سطحه غزلًا مُنقطًا.

قالت كازو: «يبدو السطح وكأنه حزام كيمونو لاميه، مع أنني أكره مثل تلك الموضة.»

فقال نوغوتشي:

«هذه أول مرة أرى فيها مياه النهر منذ انتقالي إلى هذا المكان.»

ثم صعد الاثنان أخيرًا إلى الضفة مرة أخرى، واتجها إلى الشمس ناحية الغرب وواصلا السير في اتجاه أعالي النهر.

انتبهت كازو أثناء تبادلهما ذلك الحوار إلى أنها ترى الموقف من أعلى في نظرة شاملة كنظرة الطيور. بدا لها تحت عينيها مباشرة مشهد صغير لزوجين عجوزين يسيران فوق ضفة النهر في بداية الخريف. يلمع شعر نوغوتشي الأشيب وتلمع أحجار المرجان فوق دبوس زينة شعرها، وتلمع قليلًا عصا نوغوتشي وهو يلوح بها من وقت لآخر. كانت مشاعر الزوجين العجوزين شفافة وممتلئة بالأسى وتفيض منها وحدة إنسانية. وما من احتمال لاختلاط أية شوائب بتاتًا.

ولكن كانت تلك النظرة بالطبع وسيلة كازو للدفاع عن النفس. لدرجة أنها إن لم تفعل ذلك، فهي نفسها ستُجْرَح وزوجها أيضًا سيُجْرَح، كازو التي عرفت أن وجودها يحتوي داخله على سيف حاد النصل، فبقدر نظرها من أعلى بهذا الشكل كانت تحس أن اللوحة اللطيفة لزوجين عجوزين في نزهة ممتلئة بالأسى والوحشة تتغير على الفور، إلى لوحة بالغة السوء لدرجة أنها لا تستطيع إلا أن تشيح بصرها عنها.

كان من الواضح تمامًا أن نوغوتشي يستمتع بتلك النزهة النقية الرائقة لحظة بلحظة، وتظهر علامات ذلك في كل حركة من حركات أكتافه وفي نظرته التي ينظرها من وقت لآخر عاليًا للسماء وفي خطوات أقدامه وطريقة تلويحه بالعكازة. ولكن كانت طريقة استمتاعه يبدو بها إحساس عنيد من إلغاء الآخر، فلا يبدو أن وجود كازو أمر لا غنى عنه. ورأت كازو التي كانت تسير خلفه أنها يجب أن تملك حرصَ مَن يتلصص على لوحة رسام في لوح القنب من وراء كتفه. وفكرت أنها يجب ألا تكون دخيلة على ذلك المشهد؛ لأنها الآن لا تملك مؤهل إزعاجه.

يستند تعاطف كازو على كل لحظة من تلك اللحظات التي تنيرها شمس الغروب في بداية الخريف. وكان من الواضح أن نوغوتشي كذلك يحاول أن يحتفظ بذلك الصفاء ولو عنوة لأنه يعرف أن إحساس قلبه الصافي المنسق هذا لن يأتي مرة ثانية. ولا يحق لكازو أن تدمر شعوره هذا. ليس لديها الحق الذي ينبغي من خلاله إنكار أن تلك اللحظات لحظة بلحظة، تشكل لوحة للسعادة حتى ولو كانت مزيفة.

شاهد الاثنان كيف تميل أشعة الشمس داخل غابة أشجار الأرْز العالية على يسار الطريق، مسببة ضبابًا ذهبيًّا سحريًّا يلف بين جذوع الشجر. ثم مرت عربة نقل بجوارهما مسببة عاصفة هائلة من الغبار. توقف الغبار المتبقي قائمًا وسط أشجار الأرز لفترة قليلة ثم عاد الضباب الذهبي الهادئ مرة ثانية.

وكذلك شاهد الاثنان غروب الشمس الرائع في السماء في مقدمتهما وهما يسيران في الطريق. تصبغ غيوم الغروب الملونة الأشجار الواقفة هنا وهناك بألوان تشبه الخضروات

الطازجة. تألقت غيوم الغروب بحيوية، ولكن بين الغيوم المتألقة هناك قطعة غيم احتوت بالفعل على لون ظلام الليل. تعرفت كازو في تلك القطعة من الغيوم الرمادية على شكل شواهد القبور. إنه شاهد قبر عائلة نوغوتشي.

ومن العجيب أن شبح شاهد القبر الذي يخلب قلب كازو دائمًا لم يفلح اليوم في استدعاء أية إثارة. إنها تعتقد نوعًا ما أن ذلك سيصبح قبرها. تعتقد ذلك ولكنها تركت ذلك القبر بعيدًا جدًّا يهتز ويتباطأ في غموض. يميل القبر. ينهار. يوشك أن يذوب ... وعلى الفور أصبحت غيوم الغروب الزاهية المحيطة في لون الرماد.

الفصل الثامن عشر

بعد الوليمة

جاء أكتوبر، وتلَقَّى نوغوتشي دعوة على العشاء من الأصدقاء القدامى الذين ذهب معهم في رحلة طقس تناوُل الماء المقدَّس في محافظة نارا. ولم تُوجَّه الدعوة إلى كازو.

تجمَّعَت الوجوه المعتادة في مطعم إيناسه الواسع على النهر في منطقة ياناغيباشي. ومن المتوقَّع أن التكاليف ستتحملها الجريدة. جلس العجوز ذو الثمانين عامًا مستندًا بظهره إلى أحد الأعمدة. وأحاط به نوغوتشي ومسئول كبير في الجريدة ومحلل اقتصادي.

استقبلتهم مالكة المكان القصيرة السمينة كالعادة استقبالًا مرحًا هزليًّا. تستغل تلك المرأة التي لها من الفطنة الذكاء القدر الكبير، دائمًا سمنتها وهيئتها المرحة لتصنع من نفسها وجودًا مرحًا لا مباليًا ولا يعلم شيئًا من أمور الحياة. وعندما يدور الحديث عن هوليوود تقول مثلًا:

«أليست هوليوود تلك تقع بالقرب من باريس.»

قالت غيشا الكبيرة السن: «ألا تعلمون حديث المالكة عن الخبز؟»

فتلقائيًّا استعدَّت المالكة، وقالت: إن تلك الحكاية غير ممتعة. ولكن الغيشا الكبيرة السن تابعت حديثها قائلة:

«كانت المالكة تريد إنقاص وزنها بأي شكل، فاستشارت طبيبًا فقال لها الطبيب لا بد من تناول الخبز ثلاث مرات في الوجبات الثلاث. ثم بعد أن فكَّرَت المالكة سألَت الطبيب: أتناول الخبز يا دكتور يكون قبل الأكل أم بعده؟»

وبهذا الشكل ضحك الجميع على مثل هذه المزحة التي يكثر وجودها، وكان حفل الليلة اسميًّا لمواساة نوغوتشي؛ ولذا حاول العجوز الثمانيني بشتَّى الطُّرق أن يجعل نوغوتشي الأبرز في الحفل.

وقف نوغوتشي للذهاب إلى المرحاض، فوقف العجوز الثمانيني أيضًا. وعندما حاولت فتاة الغيشا أن تجذب يده لإرشاده، لكنه دفعها بعيدًا بحزم. وقال لنوغوتشي في أحد أركان الممر ما يلي:

«أعتقد أنك أنت أيضًا سمعتَ ذلك يا نوغوتشي، ولكن إذا لم تكن تعرف أجد لزامًا عليَّ أن أخبرك، لقد ارتضيت ذلك الدور المقزِّز وأنا عجوز؛ لأنه طُلب مني القيام به. ولكنه أمر يصعب عليَّ قوله.»

تلجلج العجوز قليلًا في حديثه.

«إن زوجتك تدور في الآونة الأخيرة على مجلس الوزراء وعالَم الاقتصاد حاملة دفتر تبرُّعات لإعادة افتتاح مطعم ستسوغوان. في الأصل مَن فتح الموضوع هو السيد ساوامورا؛ لذا يبدو أنها جمعَت مبلغًا كبيرًا من المال، لا تقل إنك.»

– «لا، لم يكن لدي علم.»

قاطعه نوغوتشي على الفور.

... كانت المعاناة الذهنية التي أصابت نوغوتشي بعد عودته لمقعده واضحة لكل ذي عينين. فقد عرف باقي الضيوف الذين رأوا ذلك الوجه جيدًا ماذا قال العجوز الثمانيني له، وفهموا جيدًا أن نوغوتشي لم يكن يعلم شيئًا؛ ولذا أبدوا تجاه نوغوتشي تعاطفًا وشعورًا حميميًّا يفوق الوصف. لقد كانوا مهذَّبين جدًّا في تلك المشاعر الحساسة والصعبة تجاه صديقهم، ولكن كان ذلك التهذيب على العكس سببًا في جرح نوغوتشي أكثر. مما جعَلَه يستأذن مبكرًا في مغادرة ذلك الحفل. كانت كازو قد تركت له رسالة أنها ستبيت تلك الليلة في ستسوغوان، فلم تعد إلى البيت في كوغانيه.

أثناء ذهاب نوغوتشي إلى ياناغيباشي كانت كازو تقابل غينكي ناغاياما في أكاساكا.

عندما طلبَت من غينكي مقابلته، قال لها غينكي الذي يعلم كل شيء ببساطة: «آه من أجل دفتر التبرُّعات، أليس كذلك؟» ورغم أن كازو قالت له إنها تريد مقابلته في مكتبه، إلا أنه حدَّد مطعم شيراكاوا في حي أكاساكا. ولم يكن ممتعًا لكازو أن تقابل غينكي في مطعم يملكه أحد معارفها. ولكنها ذهبت في الموعد المحدَّد بالضبط. وانتظرَت أكثر من ثلاثين دقيقة حتى مجيء غينكي.

وأثناء ذلك كانت مالكة المطعم تحاول الترفيه عنها بالأحاديث المتنوِّعة مما جعل كازو تشعر بمعاناة أكثر. كانت المالكة العجوز قد سمعَت بالفعل شائعة إعادة افتتاح مطعم ستسوغوان، وأبدَت دعمها الكامل لكازو، وكانت راغبة في إعطائها النصح والمشورة.

«حصولك على ختم التأييد من السيد ساوامورا هو أمر في منتهى البراعة. بغير ذلك لم يكن الأمر لينجح. لقد عانيتِ طويلًا يا سيدتي ومن الآن ستحصدين ثمار تعبك.»

ثم عرضَت عليها المالكة بتكرار أن تُعرفها على شخص بارع في التنبؤ بالمستقبل لعل ذلك يساعدها في فيما هو قادم من أعمال، وقبلَت كازو ذلك الطلب على مَضض. فقد كانت خائفة أن يتنبأ لها بأمر سيئ في المستقبَل من البداية، وفي الواقع كانت كازو تؤمن فقط بقوتها الحيوية الكاملة.

سُمعت أصوات في نهاية الممر وبمجرد أن وقفت المالكة لاستطلاع الأمر تكلم صوت جهوري وكأنه انفجار.

«إنها في انتظارك. أمر سيئ أن تترك سيدة راقية تنتظر.»

ثم سُمع صوت غينكي الذي لا يبال بما حوله.

«إنها ليست سيدة راقية، بل هي عجوز رفيقة شرب الشاي.»

– «ما هذا القول؟»

ارتعش قليلًا جسد كازو التي كانت تجلس على طرف المكان. إنها تجلس مرة أخرى الآن في المنتصف تمامًا من هذا النوع من المزاح، هذا النوع من الألفة الزائدة عن الحد، هذا النوع من العشوائية المتسامحة. مَهما حاولت أن تنكر، إلا أنها تجلس في هذا المكان. لم يحاول غينكي ولو لمرة واحدة فقط أن يتعامل معها على أنها زوجة وزير سابق.

ولكن أحسَّت كازو أنها الآن أكثر قربًا من السياسة أكثر من وقت وجودها في دوامة الحملة الانتخابية العنيفة. عندما أحاط بها مثل هذا المزاح، والحديث الفكاهي المتبادَل، وصوت ضحك النساء، ورائحة البخور الشهير الذي يُحرق في ركن الزينة ... أحسَّت كازو وقد أحاط بها كل ذلك أنها تشكو لحواسِّها الخمس لأول مرة بكل ذلك. ووقتها لأول مرة أظهرت السياسة وجهها بلا حياء وحققت المعجزة.

دخل غينكي ناغاياما قادمًا إلى الغرفة بزيه الياباني التقليدي.

«أهلًا.»

قام بتحية من رأسه بلا أي اهتمام بالرسميات، وجلس على ناحية الأخرى من الطاولة قدام كازو.

كانت كازو تجلس كما هي جلسة معتدلة، وتأمَّلت وجه ذلك العجوز الدميم غير مصدقة. ذلك الوجه الذي وكأنه تَكوَّن من تقطيع قطع صلصال ولصقها معًا، كان يمتلئ بتعرُّجات بلا معنى ولا انتظام. بل وتُظهر البشرة التي احمرت قوة وحيوية

مقزِّزتَين وتعطي انطباعًا أن اللحم يتصارع بعضه مع بعض. كانت العين التي أحاطت بها التجاعيد السميكة المزدوجة تجحظ للخارج بلا أي اعتبار لتلك التجاعيد. وفي عمق الشفاه الكبيرة الغليظة تصيح بخفوت صفوف لطقم أسنان شديد البياض.

قالت كازو كلمة واحدة وهي تضع في اعتبارها ذلك الوجه.

«إنك لشيطان.»

قال غينكي وهو يبتسم في خبث:

«حقًّا! ألا تقولين أكثر من ذلك؟»

– «أنت وضيع، لا إنساني، أقذر شرير في الوجود. أنا أعرف أنه حتى كتابات «سيرة زوجة يوكِن نوغوتشي» المريبة أنت الذي كنتَ تموِّلها، فلا جدوى من إخفاء الأمر. فأنت لا تملك ولو شقفة من ضمير. تفوح منك رائحة أخبث من رائحة حشرة تزحف في مرحاض، أنت حثالة البشر. نفاية تجمعت فيها كل القاذورات التي لا يمكن أن تخطر على ذهن إنسان. من العجيب أنك تعيش مرتاح البال حتى الآن دون أن تُقتل. أنا بكل صراحة وصدق أعتقد أنه حتى لو مُزق جسدك لثمانية أجزاء فلن يشفي ذلك غليلي.»

أثناء حديثها انفعلَت كازو أكثر وأكثر وأصبحَت هي نفسها تلاحق كلماتها بصعوبة. واحمر وجهها بشدة وجَف حلْقها، ومع غضبها فاضَت دموعها بلا توقُّف، وظلَّت تسبُّه وهي مستمرة في البكاء. وضربت المائدة بعنف لدرجة أن الخاتم الذي به فص الفيروز كاد أن يتحطم. ولقد كان من الأفضل أن يتحطم ذلك الخاتم بالذات؛ لأن كازو لا ينبغي أن تضع في أصبعها أي أحجار كريمة مطلقًا أثناء تنقُّلها حاملة دفتر التبرعات.

«أحقًّا ما تقولين؟»

كان غينكي يسمع ما تقول وهو يهز رأسه موافقًا قليلًا، وبعد قليل ظهرت في عينيه دموع تستعصي على الفهم، وانسابت على خدوده مارَّة من التجاعيد السميكة.

«أنا أتفهم. قُولي. قُولي أكثر.»

قال غينكي ذلك بصوت باكٍ. ثم قبض كفه التي ينبت بها شعر أحمر غزير، ومسح بها دموعه. تسرَّب من فم هذا العجوز الدميم صدى صوت مسكر خامل وكأن يضعها فوق مهد طفل هزاز ليُسكتها.

«أنا أتفَهَّم. لقد بلغ بكِ الإرهاق مداه. لقد تعبتِ حقًّا.»

امتدَت يد غينكي بحنان من الجهة المقابلة من الطاولة، ولمست كتف كازو الذي يهتز ببكائها. وقتها كانت كازو قد غطت وجهها بمنديلها المفرود فوق راحتيها، ولكنها أحست بطيف يده فأبعدتها بكتفها.

«حسنًا. اهدئي قليلًا.»

كان سبب سماع صوت غينكي مغمغما، لأنه هذه المرة انحنى بجسده وأدخل وجهه تحت المائدة، ووضع يده داخل الحقيبة القماشية ذات اللون البنفسجي العتيق التي وضعت أمام ركبتي كازو.

فتح غينكي اللَّفَّة عند الركبة التي تجلس متربعة. وأخرج دفتر التبرعات وتصفح ببطء صفحات التبرعات السميكة التي رُبطت على الطريقة اليابانية. وحتى وهو يتصفح كان يمسح حواف عينيه بقبضة يده.

أخيرًا أَحسَّت كازو بطيف غينكي وهو يضغط على جرس استدعاء عاملة المطعم. عدلت كازو من جلستها لتعطي ظهرها لمدخل الغرفة حتى لا تراها العاملة التي يفترض أن تأتي، وأزالت المنديل الذي يغطي وجهها.

«إليَّ بأدوات الكتابة!»

هكذا أمر غينكي العاملة التي ظهرت.

جاءت العاملة وبدأت في إذابة فحم الكتابة، كانت كازو مضطرة إلى إخفاء الدموع من أجل كرامتها. فتحَت علبة التجميل الصغيرة وأصلَحَت وجهها. العاملة التي وَجِلَت من الدموع والصمت المريبَين للضيفَين، خرجت من الغرفة سريعًا بمجرد انتهائها من إذابة الفحم.

كتب غينكي بخط بارع:

«ثلاثمائة ألف ين نقدًا فقط لا غير من غينكي ناغاياما.»

أخرج من جَيْبِه شيكا قد تغضن قليلًا وقال لكازو وهو يدفعه في يدها مع دفتر التبرعات:

«إن تلك مشاعر ضئيلة للغاية، ومن أجل أن تُغفر لي جريمتي النكراء، في صباح غد سأعتصر لكِ مبلغًا معتبرًا من السيد ياماناشي من بنك إيتسوي. أنا من الأصل لم أفعل ذلك كرها فيكِ ... صباح غدٍ سأستعلم عن ظروف السيد ياماناشي وأتصل بكِ هاتفيًّا، ولكن سيكون أمرًا سيئًا لو اتصلت بهاتف المنزل أليس كذلك؟»

– «من فضلك اتصل بي في ستسوغوان.»

– «أريد منك أن تكوني مستعدة للخروج بمجرد أن يصلك اتصالي.»
– «سأفعل.»
بعد قول ذلك لم يكن أمام كازو إلا أن تقرر المبيت هذه الليلة في مطعم ستسوغوان.

في غروب اليوم التالي، قابلت كازو مَن يجب مقابلته، وفعلت بالضبط ما يجب فعله، ثم عادت إلى منزل كوغانيه. كانت مستعِدَّة لتلَقِّي تأنيب نوغوتشي، ولكن كان قلب كازو الآن في سلام وهدوء. فأخيرًا اتضحَت معالم إعادة افتتاح ستسوغوان، «وتحققت المعجزة.»

كان نبات الحَلفاء الأبيض في شفق غروب ضفة نهر كوغانيه، وكانت الطيور تطير في السماء التي ما زالت مضيئة. وتذكَّرت كازو عندما استيقظَت هذا الصباح مبكرًا جدًّا بسبب شدة انفعالها، وتنزَّهَت بعد فترة طويلة من الغياب في حديقة ستسوغوان التي عبثَت بها الفوضى، تذكَّرت بوضوح صوت أجنحة عدد لا يحصى من العصافير التي كانت هابطة تستريح في منحدر أعشاب عميقة لا يمكن التفريق بين الحشائش والنجيلة ثم تفاجأت بوجود كازو فهرعت للطيران مغادرة. وكأنها حطمت بضربة واحدة هواء الصباح النقي الصافي لقطع صغيرة متناثرة مثل الزجاج.

أمرَت كازو السائق، فأوقف السيارة عند حافة الجسر الذي يسبق البيت بمسافة بعيدة. فقد أحرجت أن تُوْقِف السيارة بعرض الطريق أمام البيت. فتح السائق الباب، وعندما وضعت خُفها الأبيض على الطريق التي تعكس أشعة الغروب في العين، انتبهت إلى ظل إنسان كان خارجًا بالصدفة من بوابة بيت نوغوتشي يأتي نحوها.

اقترب الظل منها وهو يترنح ممسكًا في إحدى يديه بحقيبة مطوية. لم تستطع رؤية وجهه لأن شمس المغيب كانت خلف ظهره. رجل بلغ من الكبر عتيًّا، ومع أن هيئة جسده متينة إلا أنه بدَا ضعيفًا وهو يسير ناظرًا إلى أسفل. تتوهَّج سماء الغرب في هدوء، لتعطي إحساسًا بنهاية المثالية. وتغيب الشمس في أقصى الأفق وهي تشعل العديد من الشموع مثل قنديل دوار عملاق للمثالية عديمة الفائدة. وكأن الإنسان الذي يمشي مولِّيًا ظهره لتلك الشمس مثل لوحة ظِل ملتصقة فوق حرير القنديل. لوحة ظِل تمثل ورقة نحيفة قُطعت من صفحة سوداء ترقص فوق الحرير. ولم يكن ثمة شَك أنه يامازاكي.

عادت كازو مرة أخرى إلى مقعد السيارة، ثم أغلقت الباب، وأنزلت زجاج النافذة وأخرجت منه وجْهَها. ارتطم هواء الغروب البارد بوجهها. وعندما جاء يامازاكي لمسافة لا تضطر معها للتحدث بصوت عالٍ، نادت على اسمه. ورغم أن صوتها كان بتلك الدرجة من الخفوت، إلا أنه رفع وجهه من المفاجأة.

– «ماذا؟ سيدتي؟»

– «ادخل السيارة، أريد أن أتحدث معك.»

دخل يامازاكي بجسده الذي مثل الدب إلى داخل السيارة، وجلس بجوار كازو.

«يا سيد يامازاكي، من الآن ستعود مباشرة إلى طوكيو، أليس كذلك؟»

– «بلى.»

– «إذا كان الأمر كذلك استخدم هذه السيارة. أنا سأنزل هنا، فعلى أي حال السيارة يجب أن تعود إلى بيت كويشيكاوا.»

– «أنا ممتن لكِ، حسنًا، سأفعل ذلك.»

استمَر الصمت لفترة داخل السيارة المظلمة.

ثم سألَته كازو وهي كما هي تنظر إليه من الأمام:

«عما تحدثتَ مع نوغوتشي؟»

– «اليوم، وضع الأستاذ يديه على حصير التاتامي واعتذر لي متأسفًا. هذه أول مرة أرى فيها الأستاذ بهذا الوضع. لدرجة أنه حتى أنا دمعَت عيناي.»

توجَّس قلب كازو خوفًا فتسارعت ضرباته.

«ما الذي اعتذر لك نوغوتشي عنه؟»

– «لقد قال الأستاذ ما يلي: لقد أتعَبَكِ كثيرًا بتسوية أوضاع ما بعد الهزيمة في الانتخابات، ولكن بعد أن وصلنا إلى هذا الحال تغيَّرت نية كازو. أعتذر لك بوضع يدي كما ترى. أرجو منك أن تعتبر ذلك الأمر كأن لم يكن.»

– «وماذا يقصد بذلك الأمر؟»

– «هل تتظاهرين بالجهل أنت أيضًا يا سيدتي؟ إنه أمر بيع ستسوغوان.»

– «ماذا يعني بِتغيُّر نيتي؟»

– «الأستاذ يعرف بالفعل موضوع دفتر التبرعات.»

– «حقًّا؟»

اخترقَت كازو بنظرها الظلام القابع بعيدًا خلف نافذة السيارة الأمامية. تسقط أشعة أضواء بوابة منزل نوغوتشي خافتة فوق الطريق. وتبقي السماء خطًّا ضئيلًا بلون أصفر باهت، وغرقت بالفعل ظلال أزهار الكرز الحالكة السواد فوق ضفة النهر.

«لقد أزعجناكَ يا سيد يامازاكي حقًّا.»

قالت كازو ذلك بشكل متقطع.

«أنتِ تقولين أشياء غريبة. أنا لا أتعقد ذلك بشكل خاص. بل إنني أتمنى أن تستمر علاقتنا من الآن فصاعدًا دون تغيير.»

– «يسعدني أن تقول ذلك لي ... ماذا أقول؟ لقد حصل ذلك بسبب أنانيتي أنا.»

– «أنا أعرف ذلك منذ البداية.»

قال يامازاكي هذا القول الذكي لكي يمرر الموقف.

ومن أجل أن ترد كازو على حسن صداقة يامازاكي في فترة السنة تلك، وصل تفكيرها إلى أنه كان يجب عليها على الأقل أن تبوح بأمر دفتر التبرعات إلى يامازاكي قبل البدء فيه. ولكن كان ذلك سِرًّا ينتمي إلى نوعية تختلف عن العالم الذي يسكنه يامازاكي. من المؤكد أن كان يجب ألا تبوح له بذلك.

«حسنًا سأذهب أنا الآن.»

استندَت كازو بيدها على المقعد لتقف، ووقتها لمست يد يامازاكي الذي يجلس فوق المقعد المظلم بجانبها. كانت تلك اليد تستقر في الظلام باردة صامتة ويبدو عليها عدم الرضا.

وبسبب حدة مشاعرها، وكذلك بسبب رغبتها في مواساة وحدة يامازاكي الذي تُرك بمفرده، كانت كازو التي تعلم تمام العلم أن تعبير جسدها يدافع عنها أكثر بكثير من كلماتها، وهو أمر لم يحدث ولو مرة واحدة خلال علاقتهما الطويلة، قبضت بقوة على يد يامازاكي وكأنها تحيط بها من فوقها.

عيون يامازاكي المندهشة التي نظرت ناحيتها، كانت تتلألأ وهي تستقبل أشعة الطرقات التي تأتي من بعيد.

ولكن لم يكن يامازاكي من النوع الذي يخطئ مثل هذا التعبير المفاجئ. منذ أول مرة قابل فيها كازو في بيت نوغوتشي، محصلة هذا العام حتى اليوم، مجيئها في هذا الشكل، لم يكن شيئًا غير متوقَّع. إن ذلك لا هو بالصداقة ولا هو بالحب، هي علاقة أنانية بين اثنين من البشر، أمر يغفره يامازاكي بلا حدود؛ ولأنه حافَظ على حياده حتى الآن، فلم يكن الأمر أن كازو هي وحدها فقط التي تتصف بالأنانية. ثم في نهاية الأمر، مثلما يبدد الرسام لوحة رتب تشكيلها جيدًا باللمسة الأخير من الفرشاة، فلقد بدَّدَت كازو علاقتها بمسكة اليد المفاجئة وغير المتوافقة، تلك الفعلة التي تُعَد بالنسبة إلى الحب أمرًا ضحلًا تافهًا، وتُعد بالنسبة إلى الصداقة تدنيسًا، فقفز يامازاكي متقهقرًا من زاوية مختلفة وكان من السهل عليه إبداء الغضب.

وعوضًا عن ذلك كان ما أحس به يامازاكي هو قوة ضغط واحتواء عجيبة ليد كازو الدافئة الطرية مثل اللحاف المصنوع من ريش النعام. دفء مبهم بطريقة لا منطقية، لا يقول سلبًا أو إيجابًا، يُخْفِي داخله قوة تدميرية هائلة. دفء يمتلأ بلحم كثيف، كانت يدها تختزن دفئًا وثقلًا، ثم بعد ذلك ظلامًا لا يمكن حقًّا إيجاد بديل لها.

وأخيرًا أبعدت كازو يدها.

«حسنًا، الوداع ... إنني أتفهم جيدًا برود مشاعرك الحالية بعد كل ذلك الإرهاق. كذلك أنا ونوغوتشي، سنعيش معًا ونحن نقاوم تلك المشاعر ذاتها، مَهما يحدث لنا فيما بعد.»

– «كلما مررتُ أمام أعمدة الهاتف أتذكر البوسترات التي كانت ملصقة عليها.»

– «حقًّا. لسوء الحظ حتى مع المجيء إلى منطقة ريفية مثل هذه ثمة عمود في كل ركن.»

هذه المرة رَبتَ يامازاكي قليلًا على ظهر يد كازو بحيادية.

ثم قال: «ما باليد حيلة. إن الزمن كفيل بإصلاح كل شيء. فأي شخص بعد الوليمة يستمر في الإحساس بذلك الشعور لوقت طويل.»

تذكَّرت كازو انعكاس الضوء عديم الفائدة من ساتر الزينة الذهبي بعد أن انتهت من الوليمة في القاعة الكبرى بمطعم ستسوغوان.

بعدما ابتعدت الإضاءة الحمراء المشتعلة في ظهر السيارة التي استقَلَّها يامازاكي، مَشَت كازو باتجاه بيتها وحيدة في الطريق التي صارت مظلمة تمامًا. لم تستطع الولوج مباشرة من البوابة فأخذَت تتسكع لفترة من الوقت حول المكان.

ثم حسمَت أمْرَها ودخلَت البيت. وتعمَّدَت أن تسأل الخادمة بصوت عالٍ:

«هل تناول سيدك وجبة العشاء؟»

– «كلَّا. إنني أُعد العشاء حاليًّا. هل سيدتي ستتناول أيضًا العشاء؟»

– «إنني لست جائعة لتلك الدرجة.»

قالت كازو ذلك القول الغامض. فلقد كان لديها شك أتسمح الظروف أن يتناول الزوجان عشاءهما معًا الليلة أم لا؟

«... سأخبرك فيما بعد عندما أحتاج للعشاء.»

كان نوغوتشي في الغرفة الصغيرة المطِلَّة الحديقة. وتحدَّثت إليه كازو من خلف الباب المغلق:

«لقد عُدتُ إلى البيت.»

لم يَردَّ نوغوتشي عليها ومع ذلك دخلَت كازو الغرفة وجلست. كان نوغوتشي يقرأ في كتاب ما، ولم يحاول الالتفات ناحيتها. لاحظَت كازو رأسه التي ابْيَض شَعرُها كله تقريبًا بعد الانتخابات، وميل خياطة ظهر ردائه ناحية اليسار عند الكتف المنتصب النحيف بسبب طريقة لبسه المهمَلة كالمعتاد. ولكن كانت تلك الكتف بعيدة جدًّا عنها، وعرفت كازو أن يديها لا يمكنها أبدًا الوصول إليه من أجل إصلاح خط الخياطة له.

تكلم نوغوتشي أخيرًا بعد لحظات صمت مولِّيًا لها ظهره كما هو قائلًا:

«إنني أعرف كل ما تفعلينه. ربما الأمر بالنسبة إليك لا مَفرَّ منه، ولكنه بالنسبة إليَّ أمر لا يمكن السماح به. إن فعلك ذلك ليس فيه إخلاص لزوجك.»

– «تُرى ما الذي تُشير إليه؟»

اندهش نوغوتشي لقوة كازو تلك؛ لأن ردَّها بتوجيه ذلك السؤال بدَا له ديكتاتوريًّا بشدة، ولكنه انتبه على الفور إلى أن الأمر مجرَّد أنه أخطأ فهم كلماتها. ثم اتَّجه ناحية زوجته للمرة الأولى وشرح لها. ولم تكن نبرة صوت نوغوتشي عنيفة مطلقًا، بل كانت كلماته هادئة إلا أن بها إحساسًا بالتعب الشديد فكانت تَتبايَن مع محتواها المتعالي.

كان تفكير نوغوتشي يفترض أن أفعال البشر لا تختلف كثيرًا سواء في السياسة أو في الحب. ويرى أن أفعال الإنسان تعتمد على نفس المبادئ؛ ولذا يُفترض أن السياسة والحب والأخلاق، يجب أن تتبع قانونًا محكَمًا ومقرَّرًا سَلفًا مثل كل الأجرام السماوية؛ ولذلك لا خلاف أن أية خيانة في تلك الأفعال تُعَد خيانة للمبادئ العامة مثل كل الخيانات الأخرى. فلا تختلف عِفَّة الزانية السياسية عن خيانة العفيفة السياسية كلاهما فِعل غير أخلاقي، بل والأسوأ من ذلك، أن خيانة واحدة تنتقل مثل العدوى من مجال إلى آخر، لتشجع المبادئ العامة كلها على الانهيار. وطبقًا لتلك النظرية السياسية الصينية القديمة، يُعَد حمل كازو لدفتر التبرعات، واللَّف به على أعداء زوجها السياسِيِّين جريمة زِنا من كازو، وبهذا الفعل تكون كازو «نامت» مع كل رجل من هؤلاء الرجال.

كانت كازو شاردة أمام كلمات نوغوتشي؛ فقد كانت كازو لا تفهم مطلقًا الأفكار التي يريد نوغوتشي قولها. ولكن كانت كازو لا تقل عن نوغوتشي في إيمانها أنها في أعلى درجات الصحة.

كان الأمر هذه المرة مخيبًا لآمال نوغوتشي تجاه كازو تمامًا، وبلغ به اليأس من إمكانية إصلاح أفعال كازو واحدًا بعد آخر مداه. ولكن كان ذلك الاكتشاف متأخِّرًا جدًّا، ويُظهر أحد وجوه التفاؤل في شخصية ذلك الرجل الطيب. كانت عينا نوغوتشي ما زالت

مخدوعة بسبب عدالته فلم تدرك بعد جوهر الأمر. لِمَ تزوج نوغوتشي من كازو؟ بقدر عمق إيمانه بالمبادئ، ألم يكن ما يطلبه نوغوتشي سرًّا في لاوعيه من تلك المرأة هو إلحاق العار بتلك المبادئ؟

غضب نوغوتشي من عدم رد فعل كازو بإخلاص تجاه حماسه وشغفه بالعلم والتعلم حتى الآن وإن كانت تتكيف معه تكيفًا سطحيًّا. لم تدرك مطلَقًا أن شغفه التعليمي يتدفَّق من مبادئه، ولم تستطع إلا التفكير أنه مجرد علامة على مشاعر حبه. فعلى الأرجح من المستحيل أن يُغير التعليم إنسانًا ناضجًا، ولا بأس من التفكير أن البريق اللامع في عين زوجها المنجذب نحو المستحيل هو علامة حبه لها. ثم لم يكن أمامها إلا التعامل باعتدال مع حماسه العقلاني تجاه تحقيق المستحيل، فأجابت بطاعة حقيقية سلسة لمشاعره.

ومن المحال ألا يكون نوغوتشي قد أدرك شغف كازو تجاه العمل باستمرار وشغفها تجاه الحيوية والنشاط، ذلك الشغف المولودة به تجاه العمل وتحريك كل أعضاء الجسم. فلقد كانت تلك هي جاذبية كازو بدون أدنى شك، وكانت تلك هي حقًّا ما يستثير رجلًا جادًّا ذا شغف تعليمي مثل نوغوتشي.

كان نوغوتشي يطلب بالطبع أن تلتزم كازو بمبادئه بإخلاص، ولكن كازو نفسها لم تحمل طموحًا أن يلتزم نوغوتشي بمبادئها. وعندها أدركت كازو نوعًا ما أنها فقط التي يمكنها التحرك طبقًا لأفكارها، مما جعلها تشعر بالوحدة أثناء نشاطها. ولم تكن كازو تملك أي نوع من الشغف العقلاني. إن المنطق يجعلها فقط باردة المشاعر. وكانت كازو دائمًا ما تخاف من وحدة ما بعد الموت، لمعرفتها بتلك الوحدة أثناء نشاطها.

وكان نوغوتشي يحاول بالتأكيد إشعال النار بمخاوفها تلك عندما قال ما يلي بتأنٍّ:

«ماذا ترين؟ إن تلك هي كلمتي الأخيرة. إن تركتِ فكرة إعادة تشغيل مطعم ستسوغوان وفكرتي في بيعه، فيمكنني تحمُّل ما لا يمكن تحمله وأفكر في أن نبدأ معًا بداية جديدة ... إن قلتِ «نعم» الآن، يمكننا بصعوبة إنقاذ الموقف ... ولكن إن قلتِ «لا» ... فيجب أن تعتبري أن تلك هي آخِر علاقتنا معًا، وأعتقد أنك مستعِدَّة لذلك.»

برز أمام عيني كازو قبر موحش في مقابر مُقفرة، لا يأتي لزيارته أحد. كانت تلك الصورة المتوَهَّمة لقبر موحش ومنبوذ، متهالِك ومائل على جانبه تغطيه حشائش برية، تطعن قلب كازو بخوف مظلم بلا قاع كنهاية لحياتها المفعمة بالحيوية والوحدة. إذا تَركت كازو عائلة نوغوتشي، فليس أمامها إلا طريق واحدة تؤدي إلى هناك؛ ولذلك تصبح تلك إشارة خفيَّة مؤكَّدة بدرجة وقحة.

ولكن كان هناك من ينادي على كازو من بعيد. إنها الحياة المعيشية الحيوية النشطة، والانشغال اليومي، ودخول وخروج ذلك العدد الكبير من الناس، شيء ينادي على كازو يشبه نارًا مُزدهِرة ومستمِرَّة في الاشتعال. ليس هناك يأس ولا استسلام، وليس هناك مبادئ معقَّدة، والمجتمَع هناك كاذب مخادع، وكل البشر مُتقلِّبو المزاج، وبديلًا عن ذلك تفيض منهم الضحكات ونشوة السُّكْر الممتدَّة. وعند النظر إلى ذلك المكان من هنا، من فوق تلة بعيدة في مرعًى مظلم، تبدو وكأنها لبشر يرقُصون تحت أضواء نيران تحرق سماء الليل.

يجب على كازو أن تجري مُتوجِّهة إلى ذلك المكان مُطيعة على الفور لأمر حيويتها. حتى كازو نفسها لا تستطيع رفَض أوامر حيويتها تلك. وعلاوة على ذلك كانت حيوية كازو تلك ترشدها في نهاية المطاف للذهاب بشكل مؤكَّد تجاه قبر موحِش في أكَمة مائلة ليس فيه سواها ولا يزوره أحد.

أغمضت كازو عينيها.

شعر نوغوتشي باستياء شديد من منظر زوجته التي عدلت من وَضْع عنقها وهي تجلس جلسة صحيحة مغمضة العينين. كان نوغوتشي يعلم جيدًا أن في شخصية تلك المرأة جوانب غير مفهومة، وبسبب أن كان هذا العلم عائقًا، وأن الجانب غير المفهوم هذه المرة من نوع مختلف تمامًا عمَّا كان عليه في السابق، لم يفطن نوغوتشي أن كازو في مرحلة تغيير وهي على وشك أن تصبح امرأة مختلفة.

فكَّر نوغوتشي كما يلي:

«لا ريب أنها تفكِّر في أمر أناني. وربما تستخدم وسيلة أن تنهار باكية. على أي حال، لقد تعبتُ من تلك المرأة. حتى وإن عُد علامة على شيخوختي، إلا إن ذلك التعب بالنسبة إليَّ هو المشاعر المؤكَّدة الوحيدة التي أحس بها الآن.»

ومع تفكيره ذلك، كان يهزُّه القلق والأمل كطفل ينتظر مترَقبًا انفجار الألعاب النارية أمام عينيه.

وهكذا ورط نوغوتشي كازو في موقف ليس به ثغرة لكي تأخذ قرارًا نهائيًّا حاسمًا. ولكن كازو هي التي خلقَت في الأصل موقف الإجبار على الاختيار من خيارَين لا ثالث لهما. ويجب القول إنه عندما صنع لها قفصًا بلا ثغرات كان يريد الهرب من أحد أنواع الإزعاج أكثر منه أنه كان مجبرًا. وفي الحقيقة كان نوغوتشي سيتقَبَّل ردَّها على سؤاله أيًّا كان.

كان نوغوتشي يخاف تَغَيُّر قلب كازو المتوقَّع مجيئه في المرة القادمة وإزعاجها له بذلك التغيير. كان نوغوتشي يُظهر التردُّد والحيرة وكأنه مراهق لا يهدأ له بال حتى يتأكَّد بأسرع وقت من رسوخ الفترة القصيرة المتبقِّية له من حياته. كفى! لا مزيد من الإصلاح ولا من الترميم، لا إعادة كتابة لمسوَّدات ولا تعديل لخطط. لم يعد يحتمل بالفعل جسديًّا وذهنيًّا أي نوع من أنواع القلقَلة. مثل قطعة الفاكهة التي داخل جِيلي الفواكه، تنتظر على أَحرَّ من الجمر تَجمُّد الجيلاتين وهي تهتز يمينًا ويسارًا. إن تحقق له عالم راسخ يطمئن لأول مرة، ويستطيع النظر عاليًا إلى السماء الزرقاء، فيستطيع تأمُّل شروق الشمس وغروبها وتأمُّل اهتزاز قِمم أغصان الأشجار مع الرياح حتى يتمتع القلب.

كان نوغوتشي مثله مثل الكثير من السياسيين المعتزِلين يريد الاحتفاظ «بالشِّعْر» من أَجْل أواخر سنوات عمره. فهو حتى الآن لم يكن لديه مُتَّسَع لكي يتذوَّق تلك الأطعمة المحفوظة الذابلة، وكذلك لم يكن يعتقد أنها تبدو لذيذة المذاق، ولكنها بالنسبة إلى الإنسان، ليس الشعر، ولكن الأكثر منه هو أن الشِّعر يكمن سرًّا في الرغبة المحمومة المطمئنة تجاه الشِّعر، ويصبح الشِّعر هو رمز الاستقرار الحق الذي لا يتزعزع في هذا العالم. لا خوف مِن تَغيُّر العالم مرة أخرى، وبعد أن عرف أنه لن يجتاحه مرة ثانية لا قلق ولا أمل ولا طموح، فيُفترض أن يظهر الشِّعر، بل يجب أن يظهر.

ويُفترض وقتها أن تَتفكَّك دروع المنطق ويَنحَلَّ القيد الأخلاقي الذي صاحَبه طوال عمره، فيتحوَّلَا إلى «شِعر» يصعد إلى سماء الخريف مثل خيط من الدخان الأبيض. ولكن كانت كازو أكثر معرفة وأسبق خبرة بمثل هذا الشِّعر الآمِن، وتعلم عدم جدواه تمام العلم.

ولم يكن نوغوتشي يعرف أنه لم يحب الطبيعة مطلقًا؛ لأنه إن أحب الطبيعة، لكان يستطيع بلا ريب أن يحب كازو بمهارة أكثر. كان نوغوتشي أثناء نزهته بمنطقة كوغانيه يتمتع بالآثار المتبقِّية من بلدة موساشينو وهو يفكر أنها جمال الطبيعة، ولكن لم تكن أشجار الكرز العتيقة والدردار العملاقة والغيوم وسماء الغروب إلا مجرد بورتريه مثالي رسمته شخصيته المستقيمة البلهاء.

... كانت كازو ما زالت مُغمضة العينَين.

في تلك اللحظة، شعر نوغوتشي أنه يجلس حائرًا على مقربة من حياته العائلية الممتلئة بقلَق لن يزول إلى الأبد. وشعر أن كازو قد تجمَّدَت في مكانها لدرجة أنه حتى إن

وضع يده على كتفها وهزَّها بعنف فلن تتحرَّك قيد أنملة. وربما يتجمَّد العالم بغرابة لا يتخيلها نوغوتشي لتركد الشهور والسنون في مكانها آسنة حتى الموت.

وأخيرًا فتحَت كازو عينيها ببطء.

أثناء إغماضها عينيها، كان قلبها قد تخطَّى بعزم وتصميم منحدَر جبل عالٍ ووصل إلى الإجابة الوحيدة بالنسبة إليها.

استحمَّتْ كازو بظلام عينها المغمضة، وكأن تأثير زوجها صُب على كامل جسدها للمرة الأولى. فأجابت كازو مُتَّبِعة منطقًا رائعًا لم يسبق لها حتى الآن استعماله:

«ما باليد حيلة. سوف أعيد افتتاح ستسوغوان. وأعمل حتى تُطحن عظامي، وبالتأكيد سأردُّ الديون للجميع.»

لقد مَقت نوغوتشي كازو مقتًا شديدًا. لقد قضى طوال ليلة أمس غاضبًا، ولكن اليوم في الوقت الذي قابَل فيه يامازاكي ثم كازو، كان الغضب قد ذبل تمامًا، واستعدَّ نفسيًّا للتعامل بإذعان بارد فقط؛ ولذا لم يكن يتوقَّع تلك الكراهية التي نبعت من داخله فجأة بعد أن سمع كازو تجيب بلا تردُّد بأحد الردَّين اللذَين خيَّرها بينهما.

تُرى ما الرد الذي توقعه نوغوتشي؟ هل لو اختارت كازو الرد الآخر، لانتهى الأمر حقًّا دون أن يشعر بكراهية ضِدها؟

على أي حال، يبدو أن كازو أصبحت عدوًّا حقيقيًّا لنوغوتشي عندما اغتصبت سلاح المنطق منه. وهو ما لم يحدث عندما ضربَها بسبب أفعالها الأنانية أثناء الانتخابات.

ولم تذرِف كازو دمعة واحدة بخلاف ما حدث في السابق. بل على العكس كان وجهها الأبيض مشرقًا، وكانت جلستها غنِيَّة ومستقِرَّة مثل دِقة العرائس الخشبية التقليدية.

أدركت كازو من نظرة واحدة ألقَتها على عيني نوغوتشي، أن جسد ذلك العجوز النحيف النبيل يشتعل بالكراهية. ولم تكن نظرَتُه تلك نظرة رجل متعلِّم، بل لم تكن كذلك نظرة توبيخ أب يجمح بعواطفه ... وعندما رأت كازو تلك النظرة، ارتجف جسدها من الفرحة.

ساد الصمت خارج باب الغرفة المغلَق تمامًا. بدَا فجأة أن الإضاءة داخل الغرفة ازدادت وهجًا، فلمعَت رفوف مكتبة نوغوتشي المتواضِعة ومكتبه والمقص الذي فوق المكتب وصبغة الأثاث الفقير، وبرزَت بروزًا أكثر مما هي عليه في المعتاد. وكذلك فاحَت رائحة حصير التاتامي الجديد.

ظل الاثنان يُحدِّقان طويلًا بعضهما لبعض، وكانت تلك المرة الأولى التي استطاعت كازو أن تحدِّق حقًّا في وجه زوجها. وارتعد كتف نوغوتشي من الغضب وحقد على كازو بكل حواسه. وخافَت كازو من أن يقع نوغوتشي صريعًا في لحظته.

وعندها أصابها الرُّعب، وفكَّرَت في طرق مختلفة لإسعافه إن حدث ذلك. ولكن كانت يداها تعجزان عن الوصول إليه من مكانها، إن القوة الوحيدة التي تملكها كازو حاليًّا من أجل التسرية عن خيبة أمل نوغوتشي لم تعد من حقه.

وكان نوغوتشي أيضًا يعلم جيدًا أنه لا يملك وسيلة عاجلة لتهدئة مَقْته قليلًا. لم تَعُد يد الضرب تصل لجسد كازو بعد أن ردَّت بذلك الرد، وقد يبدو مضحكًا أن ما أوقف يده عن الضرب الآن هو أحد أنواع اللباقة. لباقة لها إحساس كَفَن رطب يلتصق بالجسد.

مر وقت طويل ثم نطق نوغوتشي أخيرًا.

«حسنًا؛ لنبدأ إذن في إجراءات الطلاق. ليس لديكِ اعتراض أليس كذلك؟»

الفصل التاسع عشر

قبل الوليمة

اتَّفق نوغوتشي وكازو على الطلاق وإزالة اسم عائلة نوغوتشي من اسمها. ثم جمعَت كازو أغراضها وعادَت إلى ستسوغوان. وعندما انتشر ذلك الخبر بين الناس، توافَد عمال وموظفو ستسوغوان الذين تشتَّتوا بعد إغلاقه هنا وهناك، واحدًا بعد الآخر يطلبون العودة للعمل مما جعل كازو تذرف دموعها فرحًا.

كان المطعم من الداخل في فوضى عارمة، ولكن كانت الحديقة الأكثر بشاعة. اصطحَب الجنائني الأصلي عددًا من تلاميذه الشباب، وطلب منها أن يُقدِّموا لها خدمة مجانية على سبيل الهدية بإعادة افتتاح المطعم. وتعهَّد لها أن يجعلوا الحديقة كما كانت عليه في السابق بأسرع وقت.

كلما عثرت كازو على وقت فارغ كانت تذهب إلى الحديقة وتفرح بتأمُّلِها في آخر أيام عمل الجنائني وهو يقطع الحشائش التي طالت ويُقلِّم أغصان الأشجار. ينعق البوم في المساء، وفي النهار يُرى الصقر الذي اعتاد على العيش بين أغصان شجر الصنوبر في صحة جيدة. وعندما تُقطع الحشائش وتقع، تهرب طيور الحجل مُتَّجِهة إلى عمق الحديقة. أنبتَت ثمار شجر الزعرور البنفسجية اللون التي أطالت أغصانها، ولكن لا تزال زهورها الصيفية البيضاء الذابلة متبقِّيًا بعضها، ويبقى عطرها وكأنه كان وهمًا. كانت أوراق شجر الأزالية في ذروة احمرارها. وأعطى ذلك ظلًّا خلابًا لمدخل بوابة تشوجاكو العتيقة.

لم تعتقد كازو وهي تتأمَّل جمال الحديقة يعود تدريجيًّا مع الأيام، أن الحديقة التي برزت وكأنها كتابة سرية تُستعاد مجددًا بالحرارة، هي نفسها التي كانت في الماضي. تبدو الحديقة وكأنها شبيهة بما كانت عليه في الماضي، ولكنها تختَلِف عن تلك الحديقة التي كانت كازو تحفظها في قلبها مثل خارطة سرية لكنز وتستعيدها من الذاكرة وتمسكها في يديها. لقد فُقدت بالفعل تلك الحديقة الغناء الباهرة التي كانت تعرف كل ركن من

أركانها وكل جزء منها معرفة تامة. لقد فُقد التناغم الذي كان متناسقًا في روعة كاملة مع مشاعر قلب كازو حيث كانت كل شجرة وكل صخرة في المكان الذي يجب أن تكون فيه.

قُطِعت الحشائش وسُوِّيت بعضها مع بعض بارتفاع منخفِض. وقُلمت أغصان الأشجار التي كانت قد نبَتَت بعشوائية، لتصبح السماء أكثر إشراقًا. وبالتزامن مع ذلك، برز وجه الحديقة تدريجيًّا كأنه يستيقظ من نومه ببطء، يستيقظ من حلم غامض، فبدَا جميلًا. ولكن لم تكن ملامح ذلك الوجه من العالم الذي تعرفه هي بالفعل حتى وإن كانت شبيهة به.

في أحد الأيام أمطَرَت السماء فأخذ الجنائني راحة من العمل، وعند الغروب انزاحت الغيوم، وتلألأ ماء البِركة والجزيرة التي داخلها والخيزران الكثيف المزروع في تلك الجزيرة بأشعة الشمس. وتناثرت بشدة أشعة قلِقَة حول البِركة، وأخذَت كازو تتأمَّل الحديقة التي أظهرت فرحة غريبة لم تعهدها كازو من قبل. وكذلك في صباح يوم من الأيام، غطَّى الضباب الحديقة، وبدَا الصنوبر الذي بسط أغصانه وسط الضباب وكأنه محاط بذاكرة غير سارة.

في ذلك الوقت وصل رد يامازاكي على الرسالة الطويلة التي كتبتها كازو له.

خرجت كازو إلى الحديقة في الصباح بنيَّة أن تقرأ الرد في الحديقة الدافئة التي تبقى منها بقايا من نهايات الخريف.

تتألَّق البِركة الواقعة جنوب شرق الحديقة في ضوء الشمس، وتعلو خضرة بلون غامق رزين لشجرة شرابة الراعي عملاقة في المنتصف تحيط بها أشجار صنوبر وشوفان وبلوط ونبق مهيبة وعتيقة، وكأنها قمة حقيقية للغابة التي في الخلفية. كانت المشكاة الحجرية التي تُعَد النقطة المحورية للمنظر الواسع الممتد للنجيلة الخضراء هي الوحيدة التي استفادت أثناء إغلاق ستسوغوان، فنالت على العكس لونًا عتيقًا موحشًا ثم بعد أن قُصت الحشائش التي حولها بعناية كبيرة، أصبحت أكثر بروزًا وحيوية. كانت السماء صافية ذلك اليوم، ويظهر سحاب سِمْحَاقي من بين قمم الأشجار.

انتفَشَت الحديقة التي طُويت وصغرت جدًّا، مثل زهرة ورقية في ماء وأصبحت حديقة ضخمة غَناء مليئة بالألغاز والأحاجي السحرية. وتعيش في تلك الحديقة طيور ونباتات طبيعية وفطرية في هدوء، وبها الكثير مما لا تعرفه كازو، فاليوم مثلًا عادت من الحديقة ومعها نبات بري وتعتني به شيئًا فشيئًا ثم تطحنه في الهاون الصغير

المخصص لطحن الأعشاب، ... ثم تجرب أن تسحقها بين كفيها وبين أصابعها كما تفعل مع الأعشاب الطبية، ولا تنتهي المواد الأولية المجهولة والطازجة مما يُعطي كازو وفرة بلا حدود.

مشَت كازو وسط الخطوط المقلمة التي صنعتها أشعة الشمس المتسربة من بين أغصان الأشجار، وجلست على الأريكة التي في منتصف الطريق تقرأ رسالة يامازاكي.

«شكرا لكِ على رسالتكِ لدعوتي وليمة الاحتفال بإعادة فتح ستسوغوان. ربما لا يحق لي أن أرسل إليك تهنئة بهذه المناسبة، ولكني سأترك للحظات موقفي وأعرب عن تهانِيَّ القلبية لكِ. وأنا أُقدِّر جيدًا عدم الحديث في رسالتك لي ولو قليلًا عن الحادث المحزن الذي حدث من فترة، بل تحدثتِ فقط عن مراحل ترتيبات الحديقة استعدادًا لإعادة افتتاح المطعم.

لقد تحطمتْ في الأعوام الأخيرة ثقتك في معرفتك بالبشر، وتبدَّل القلق براحة القلب، حصلتِ على معرفة أليمة جديدة بديلًا عن السعادة، وعندما حاولتِ الحب تعلمتِ التمييز، وإذا حاولتِ أن تبدئي تجدين النهاية، وعندما تعتقدين أنها النهاية تجدينها مجرد بداية، ... وأنا أشعر تجاه نيلك قلقًا هادئًا الآن بعد تضحيتِك بالعديد من الأشياء بالاحترام والتقدير لكِ أكثر من التعاطف.

أفكرُ، أن تلك الانتخابات لو لم تكن حدثت، ربما كنتِ حصلتِ على السعادة، وربما أصبح نوغوتشي سعيدًا. ولكن إذا فكرتُ في الأمر الآن، فإن الانتخابات قضتْ تمامًا على السعادة الزائفة، وربما لا يمكن القول إن الانتخابات كانت أمرًا تعسًا بالمعني الحقيقي للكلمة خاصة في أنها جعلت كلًّا منكما يُظهر عُري الآخر. لقد تلطختُ في أوحال السياسة لعهد طويل من الزمن، بل ربما كنتُ على العكس أعشق تلك الأوحال، ولكن في السياسة تغسل عكارة الأوحال الإنسان، وينمي النفاق إنسانية المرء أكثر من الصدق المزعزع، وعلى العكس تُعيد الأعمال الشريرة في غفلة من الزمن للثقة الضعيفة قوتها، ... بالضبط مثلما يُلقى بالملابس المغسولة داخل آلة التجفيف ذات قوة الطرد المركزي التي تفصل الماء، فلا يمكن رؤية القميص أو الملابس الداخلية التي ألقيتِ بها توًّا بسبب أنها وسط دوران شديد السرعة، والذي نطلق عليه نحن في أيامنا العادية إنسانية البشر، تختفي على الفور ولا يمكن رؤيتها في وسط دوامة الحياة، كنت أعشق ذلك التأثير شديد العنف. وهو أمر ليس بالضرورة تنقية أو تنظيفًا، ولكنها تجعلكِ تنسين ما يجب نسيانه، وتفقدين ما

يجب فقدانه، إنها تؤدي بنا إلى نوع من السُّكرة غير العضوية. ولهذا كله لا أقدرُ على ترك العمل بالسياسة حتى نهاية عمري مَهما حدث لي من فشل ومَهما لاقيتُ من أهوال.

ولكنكِ أنتِ كما هو متوقَّع يجب عليكِ العودة إلى نشاطك الإنساني ودمائكِ الدافئة. وكذلك يجب على السيد نوغوتشي أن يعود إلى المثالية النبيلة والعدالة الجميلة. وسيبدو الكلام قاسيًا، ولكن عند النظر إلى الأمر بعين طرفٍ ثالث، فلقد استقر كلٌّ في موضعه اللائق به، وعاد كل طائر إلى عشه.

على ما يبدو أن شتاء هذا العام دافئ كثيرًا، ولكن أرجو منكِ الانتباه إلى صحتكِ. فأنت ستبدئين ذلك العمل المُضنِي بعد إرهاق شديد الوطء جسمانيًّا ونفسيًّا؛ لذا ربما تنسين نفسك بسبب الانشغال في العمل، ولكن أرجو منك أن تعتني بجسدكِ بقدر الإمكان.

حسنًا سيسعدني من كل قلبي أن أحضر ليلة حفل إعادة الافتتاح.»

هنـــداوي